محاضرات

# تاريخ الامم الاسلامية

تاليف

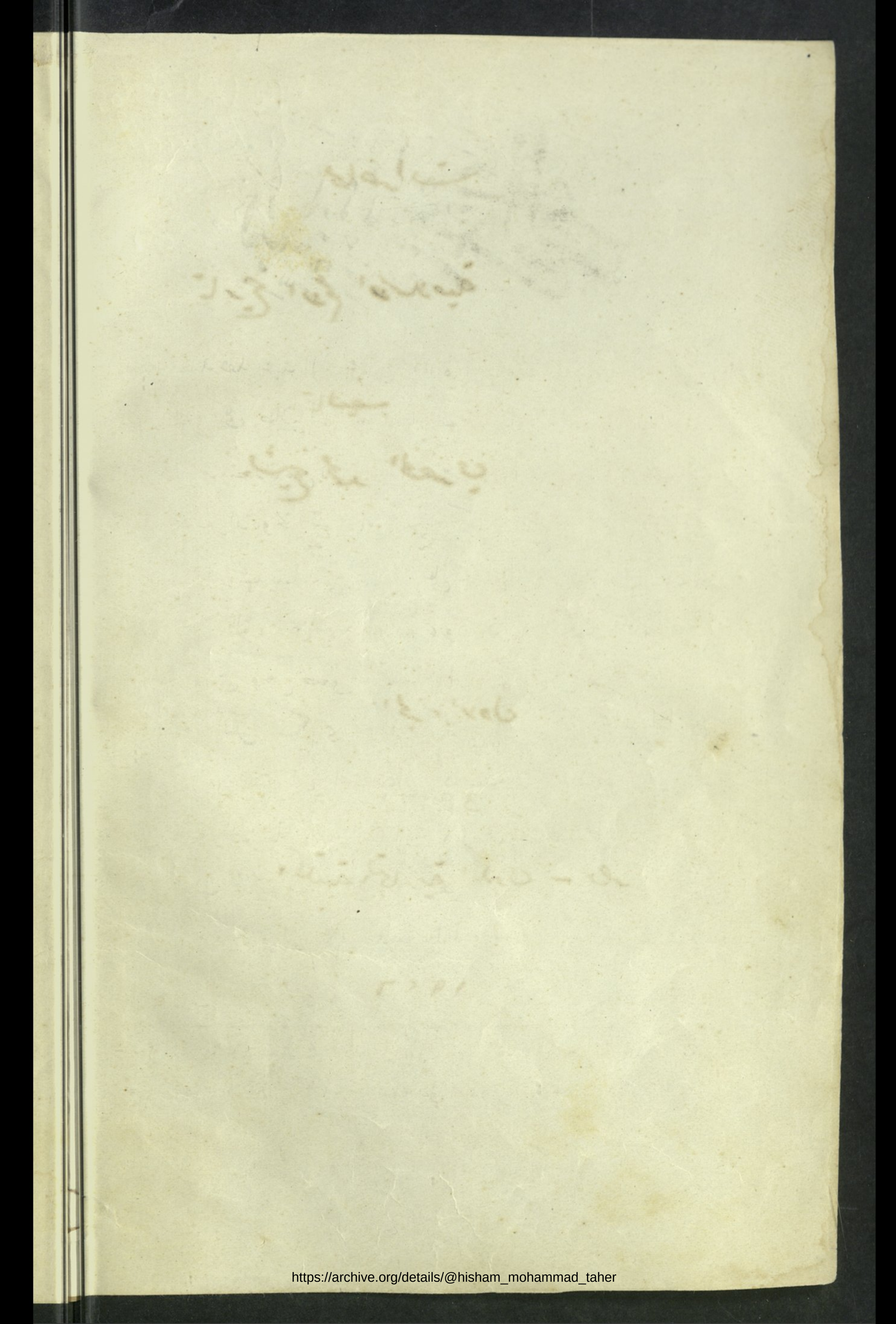
الشيخ محمد الخضري

الجزء الاول



المكتبة التجارية الكبرى - مصر

١٩٢٦





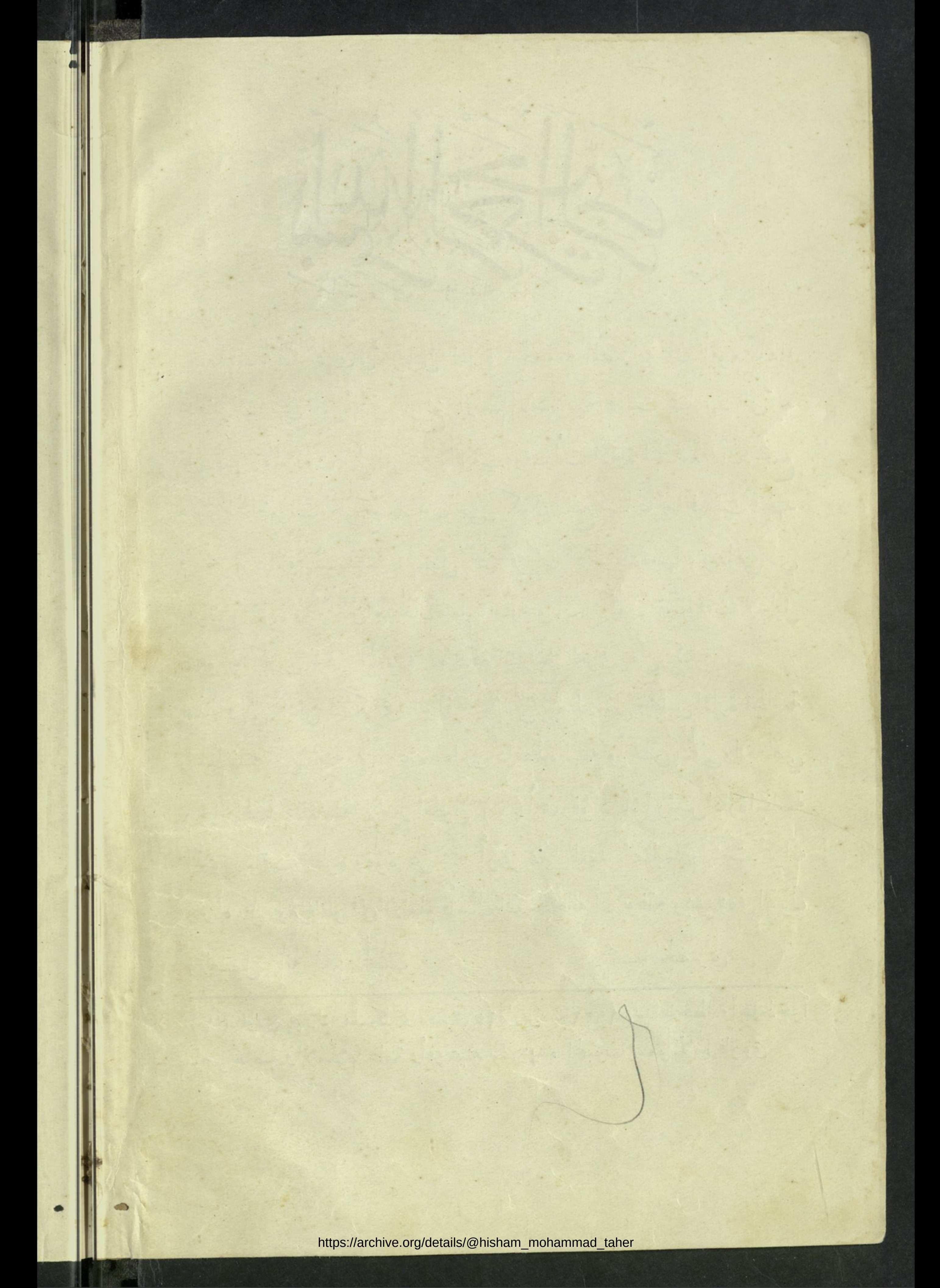
أما بعد فقد عهد الىّ مجلس ادارة الجامعة المصرية أن أقوم بالقاء محاضرات على طلابها في تاريخ الامم الاسلامية فقمت بما عهد الىّ به على قدر ما منحت من العزيمة والوقت، وقد رأت ادارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عامّاً فبذلت الجهد في تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها، وهاهي ذي تعرض على المؤرخين ورجال العلم، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهي صعوبة استفادة التاريخ العربي من كتبه

هذا واني أعلن شكري الوافر وثنائي العظيم على مجلس ادارة الجامعة لما نلته من ثقته حتي اعتمد علي فى أداء هذه المهمة وأخص بثنائى واخلاصي رجل الهمة والعزيمة الامير الجليل (١) أحمد فؤاد باشا رئيس ادارة الجامعة الذي بثاقب نظره وقوة عزيمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو الى الامام فأسال الله سبحانه أن يوفقه ويسدده في القول والعمل إنه نعم المجيب

محمد الخضري

---

(١) نودى بجلالته ملكا على مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدد الله خطاه وأبقاه ذخراً لمصر خاصة وللاسلام عامة وأقر عينه بولي عهده المحبوب سمو الامير فاروق



بسم الله الرحمن الرحيم

## المحاضرة الاولي في التاريخ الاسلامي

مباحث التاريخ الاسلامي — مايلزم المؤرخ — جزيرة العرب و وصفها — شعب قحطان ومقاماته

اذا ذكر الاسلام اتجهت النفس الى ذلك الدين الذى جاء به سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهيأها لان تسيح الي ماجاورها من الاقاليم وتؤسس سلطاناً واسعاً يرتكز على دعامة ذلك الدين . فمؤرخ الاسلام يرجع بحثه الي ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضاً

الاول — الدين الاسلامي وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التي وقفت في طريقه حتي غلبها الثبات والصبر

الثاني - تأثيره في النفوس العربية حتي استعدت لبسط سلطانها على ماجاورها من الاقاليم وما كان منها في سبيل ذلك من الحروب والاعمال حتي عظم قدرها واتسع سلطانها منقاداً الي سلطان الدين

الثالث — ما كان من انتقال هذا السلطان عن الامم العربية الي غيرها من الامم التى دانت بالاسلام وما كان للدين من التأثير في قيام دولة وسقوط أخرى وفي حضارة الامم التابعة لسلطانه

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثر به لأول مرة هم العرب لم يكن

النا بد من ذكر مقدمة اجمالية في تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالهم قبل مجيء الاسلام لتكون أمامنا منهم صورة تمهد لنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين: الا أنا سنقدم كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكما تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ فان عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسنا وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة حتي ما أدى منها الى سقوط فاعله وخيبته وعاطفة الكراهة تدعو الى ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحا وتستنبط من الخير شراً ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الامم الا نفر قليل جداً. واذا نظرنا الى أنفسنا نجدها لا نحكم على شيء من الحوادث التي تشعر بها حكما بحسب ما تستحق فرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملا حسنا جميلا، والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله على أسوأ محامله: نحكم على متصدق بالتبرز لانه تذكر الفقراء والمعوزين في حال رغده ولا نأبه بتلك الصدقة نفسها من آخر، بل نسمه بأنه مراء يحب الشهرة الكاذبة: والتجرد من هذه العواطف فى دراسة التاريخ أمر صعب المنال لا يصل اليه الانسان الا بعد عقبات شديدة لابد له من اجتيازها ان كان المراد تمثيل الامم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون

فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تاريخ أمم ان كانت أخطأت في بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعة ذلك الخطأ شيء، وليس لنا الا أن نعرفه ونستفيد منه وان كانت أصابت المحجة فان ذلك لا ينفعنا اذا لم يكن لنا مثل أعمالهم

لذلك يحتاج دارس التاريخ الي سعة صدر تحتمل كل مايرد علي تاريخ قومه من نقد حتي لا تبقي حقائق الاشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض.

## جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الارض التى نشأوا فيها جزيرة العرب مع أنها لم تتم احاطتها بالماء كما قال ياقوت (١) في معجم البلدان نقلا عن هشام (٢) بن محمد بن السائب عن ابن عباس (٣) انما سميت بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن الفرات (٤) أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين (٥) ثم انحط على اطراف الجزيرة وسواد العراق حتي وقع بناحية البصرة (٦) والابلة (٧)

---

(١) هو ياقوت بن عبد الله الحموي الرومى الاصل أسر من بلاده صغيرا فتعلم ببغداد ساح سياحات مهمة وألف كتبا نافعة فى التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم الشعراء ومعجم الادباء وغير ذلك من الكتب المفيدة وكان ثقة فى النقل توفى سنة ٦٢٦ بظاهر مدينة حلب

( ٢ ) نسابة عربى له كتاب الجمهرة في النسب وله مصنفات كثيرة كلها فى أخبار العرب توفي سنة ٢٠٤ ( ٣ ) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب جد الملوك من بني العباس من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفى فى خلافة ابن الزبير سنة ٦٨ ( ٤ ) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى اذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبا معا فى خليج عمان من بحر الهند ( ٥ ) قنسرين مدينة جنوبى حلب وكانت اسما لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧ هـ ( ٦ ) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريبا من المصب فى خليج عمان مصرت أيام عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ ( ٧ ) بلدة على شاطىء النهرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة

وامتد الي عبادان (١) وأخذ البحر في ذلك الموضع مغرباً مطيفا ببلاد العرب منعطفا عليها فأتي منها علي سفوان (٢) وكاظمة (٣) الى القطيف (٤) وهجر (٥) وأسياف البحرين (٦) وقطر (٧) وعمان (٨) والشحر (٩) ومال منه عنق الى حضرموت (١٠) وناحية أبيين (١١) وانعطف مغربا منصبا الى دهلك (١٢) واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان (١٣) وحكم (١٤) والاشعريين (١٥) وعك (١٦) ومضي الى جدة (١٧)

---

(١) مدينة فى الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة فى خليج عمان منسوبة الى عباد بن الحصين وكثيراما ينسب اهل البصرة باضافة ألف ونون الى آخر المنسوب اليه (٢) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو اول منزلة بجادة البصرة الى البحرين (٣) جو على سيف البحر وهى المنزلة الثانية فى جادة البصرة الى البحرين (٤) مدينة بالبحرين وهى قصبتها (٥) مدينة بالبحرين وقيل هى اسم كورة من كور البحرين قصبتها الصفا (٦) اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هى وعمان فى ايام بنى العباس عملا واحدا وسيف البحر ساحله (٧) قرية على سيف الخط بين عمان والعقير وهذه بحذاء هجر (٨) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند وتنتهى الى البحرين وقصبتها مدينة صحار (٩) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان (١٠) ناحية واسعة في شرقى عدن وحولها رمال الاحقاف ومدينتها الكبرى شبام (١١) مخلاف باليمن منه عدن (١٢) جزيرة فى بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة وكانت منفى فى زمن بني أمية (١٣) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبى (١٤) قبيلة قحطانية تنسب الي حكم بن سعد من قضاعة ثم من حمير ينسب اليهم أبو نواس الحكمى (١٥) قبيلة قحطانية تنسب الى الاشعر ابن ادد من كهلان بن سبأ ينسب اليها أبو موسى الاشعرى (١٦) قبيلة قحطانية تنسب الى عك بن عدنان من الازد ثم من كهلان (١٧) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها و بين مكة مرحلة

ساحل مكة والجار (١) ساحل المدينة ثم ساحل الطور (٢) وخليج أيلة (٣) وساحل راية (٤) حتى بلغ قلزم (٥) مصر وخالط بلادها وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين (٦) فمر بعسقلان وسواحلها وأتى صور (٧) وسواحل الاردن (٨) وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ الى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطا على أطراف قنسرين والجزيرة (٩) الى سواد العراق

وهذا التحديد وان كان يسهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضي أن ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضي عند المؤرخين فانهم يحدون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام

---

(١) فرضة على ساحل بحر القلزم وهي جنوبي ينبع (٢) شبه جزيرة فى شمال خليج القلزم وهى كورة مصرية (٣) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي آخر حدود الحجاز وكانت منزلة الجادة بين مصر ومكة (٤) كورة من كور مصر البحرية (٥) مدينة كانت على منتهى الخليج المبتدىء من المندب وبها سمى الخليج والمسافة بينها وبين الفرما التى كانت على بحر الروم مقدار القناة والاولى فى مكان السويس والثانية فى مكان بورسعيد (٦) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبتها بيت المقدس ومن مدنها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن مرافئها عسقلان (٧) مدينة من أعمال الاردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عكة ستة فراسخ (٨) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعكة وما بين ذلك والاردن نهر يصب فى بحيرة طبرية (٩) هى الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمى جزيرة أقور

وفلسطين فهذان خارجان عنها وان كان العرب قد سكنوا قبل الاسلام جزءاً مهما من بلاد سوريا كما سكنوا جزءاً من الجزيرة وعلى ذلك لا بد من القول ان هناك تسامحا فى اطلاق لفظ الجزيرة على البلاد العربية

أقسام الجزيرة الطبعية

قسم العرب جزيرتهم الى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهي :

تهامة ــ الحجاز ــ نجد ــ اليمن ــ العروض

فأما تهامة و يقال لها الغور فهي الاراضي التى على شاطيء بحر القلزم ممتدة عرضا الى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح : يقال تهم الحر اذا اشتد وسموها غوراً لانخفاض أرضها، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدة من أقصي اليمن الى الشام فى عرض أربعة أيام (١) يزيد كسر يوم في بعض المواضع وقد ينقص مثلها في أخرى فمبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن شرقي عدن ثم تمتد حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان في بعض جهاتها، وانما سميت حجازاً لانها حجزت بين الغور ونجد

وأما نجد فهو ما دون ذلك الجبل الى شرقيه يبتديء جنوبا من أدني حدود اليمن وينتهى الى السماوة و ينتهي من الشرق الى العروض وأطراف العراق وسمي نجداً لارتفاع أرضه

---

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلا أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤ م لان محيط الارض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠٠ ك وتكون الاربعة أيام ١٤٢ ك تقريبا

وأما اليمن فهو ما كان جنوبي نجد الى ساحل بحر الهند ويمتد شرقا الى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهائم والنجد

وأما العروض فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل أودية فيه وسمي عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق .

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحرار جمع حرة وهي الجبال السوداء التي كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان أعدتها السيول ليجري فيها ماؤها والصحاري الرملية المترامية الاطراف

فما كان من أرضها قريبا من هذه الوديان أخصب وأنبت الكلأ والمرعى فتمكن أهله من الاقامة فيه حيث يجدون ما يشربون وما يسيمون فيه أنعامهم، وما بعد عنها أقفر ولم يصلح للسكنى

وأعظم واد ببلاد العرب الدهناء وهو الوادى الذى في بلاد بني تميم ببادية البصرة يمر في بلاد بني أسد فيسمونه منعجا ثم في غطفان فيسمونه الرمة، وهو أول نجد ويصب في الرمة أودية أخري أكبرها وادى الجريب والعرب تقول على لسان الرمة

كل بني فانه يحسيني      الا الجريب فانه يرويني

ثم يمر في بلاد طيىء فيسمونه حائلا وهو واد في جبلي طيىء ثم يمر في بلاد كلب فيسمونه قراقر، ثم في بلاد تغلب فيسمونه سوديً واذا انتهى اليهم عطف الي

بلاد كلب فيصير الى النيل وهو نهر يتخلج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل في سواد الكوفة ومتي أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعا لسعتها وكثرة شجرها، طيبة التربة طيبة الهواء

وبلاد اليمن كثيرة الوديان منها ما يقطع السراة حتى ينتهى الى البحر ومنها ما هو على عكس ذلك الاتجاه

فمن أعظم الوديان المتجهة الي البحر وادي مور وهو ميزاب تهامة الاعظم ويتلوه في العظم و بعد المأتي وادي زبيد، ومن أعظم الوديان المتجهة الى الشرق ميزاب اليمن الشرقي وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى الى موضع السد سد مأرب ويسقي بعدها أرض الجنتين أرض السبئيين وهناك وديان كثيرة في الحوف بين الجبلين

العرب تسمي المواضع التي يستنقع فيها الماء رياضا وهو جمع روضة وذلك الاسم خاص بما يكون في الارض الواطئة فان كانت في أعالى البراق(١) والقفاف (٢) فهي السلقان واحدها سلق واذا جاءتها المياه أنبتت ضروبا من العشب والبقول لا يسرع اليها الهيج والذبول واذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمي (٣) ربعت العرب ونعمها جمعاء ور بما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلا في ميل فاذا عرضت جداً فهي قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة

---

(١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة وجمعها البراق، قد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة (٢) القفاف جمع قف وهو ما ارتفع من الارض ولم يبلغ أن يكون جبلا (٣) الوسمى أول مطر يصيب الارض والثانى يسمى الولى

ذراع وكل روض يفرغ اما في روض وأما في واد: وحدائق الرياض ما أعشب منها والتف، وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة في جهات مختلفة وهي المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة فاذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ومنع الرمل السمائم أن تنشفه فاذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء

ولما كانت مياه هذه الاودية لاتسد حاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليها ولا سيما أن كثيراً من مياهها يغيض في باطن الارض فلا يمكنهم الانتفاع به الا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها الا ما كان من بلاد اليمن التي أمكنها فيما مضى أن تتحكم في مجاري الوديان فتوجهها الى جهة ثم تبني سداً محكماً يحجز الماء خلفه في أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب الى رمال الصحراء ويغيض في الارض ولهذا عدت اليمن قديماً من البلاد المخصبة المستعدة لان يزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الاشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

أما ما عداها فان شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التي لا تروى الا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلأ في بعض سهولهم القريبة من الوديان — وأما نجد والعروض ففيهما وادي الدهناء وما يصب فيه من صغار الاودية، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لان الكثير من مائه يغيض في الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل

ومن هنا قلما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد وانما يتبعون مواقع القطر أنّي كان لتربع أنعامهم وتنفرج كربتهم

وحاجة العرب الدائمة الى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة الى العمل لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان ـ بحكم الضرورة ـ عدم الاعتماد على ما تنبته الارض من المزروعات الدورية التي تصلح للانسان كان جلّ اعتماد أهل البادية على أنعامهم ولا سيما الابل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها وتحمل أثقالهم في تلك الصحاري المقفرة الى ما يرومون من الجهات

أما بلاد اليمن فانها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر من أي جهة أخرى في الجزيرة لان تمدين المدن في غير السواحل البحرية يعتمد على المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

جو البلاد

أما ما كان من الجزيرة تهامياً يجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحر في الجبال اذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصا الحرار منها لسواد لونها و يشتد بالجبال البرد في الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الامثال

أما نجد فما كان منها مجاوراً للاودية ومسايل المياه فان الهواء يكون به معتدلا وما بعد عنها حره أكثر

وجو اليمن وهواؤه معتدل في فصلي الشتاء والخريف ، أما الربيع ففيه المطر الكثير

والرطوبات التي تستمر زمناً طويلاً ويشتد به الحر في فصل الصيف

محاجّ الجزيرة

في هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبري الى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمي محجة ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب فانهم اذا عرفوا بقرية أو جهة جعلوا المحجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هي على جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمين السائر الى البصرة أو الكوفة فان لم يكن للمطلع علم بذلك كانت جدواه قليلة

وقد فصل هذه الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني المتوفي سنة ٣٢٤ في كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها وما بين كل منزلتين من الاميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيد الله بن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك .
ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها الى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلاً ، وجادة الكوفة الي مكة وهي تفارق الاولي من معدن النقرة في الشمال الشرقي من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلاً منها

وجادة البصرة الي مكة مارة بالمدينة وهي تتحد مع جادة الكوفة في معدن النقرة الذي يلي منزلة النباج وجادة البصرة الي مكة ولا تمر بالمدينة

ومنها في الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠ :

وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالاولى

ومنها محجة عدن تلتقي مع محجة صنعاء في منزلة اسمها عثر بعد سير ١٦ منزلة

ولحضرموت محجتان منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء في صعدة ومنها السفلي

وتتقابل مع محجة صنعاء في تباله وتمرّ على نجران

ومنها محجة البصرة الى البحرين على ساحل خليج عمان ( أنظر الخريطة )

## الشعوب العربية

العرب قبائل شتى ترجع في نسبها الى شعبين عظيمين الاول شعب قحطان والثاني شعب عدنان

فأما شعب قحطان فمهده بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك: ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيىء ومذحج وكندة ولخم وجذام والازد الذين منهم الاوس والخزرج وأولاد جفنة ملوك الشام :

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف الى اسم القبيلة التي اختصت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافاً

وكان الملوك المتقدمون منهم قد فكروا في الاستفادة بمياه السيول التي تنقذف في الوديان فيذهب الكثير منها هباء في جوف الارض أو في البحر فأقاموا بمأرب سداً وصفه ياقوت نقلاً عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل الى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج الا من جهة واحدة فكان الاوائل

قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص، فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر، فكانوا اذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بابواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه اذا أرادوا

ويظهر أنه لما تطاولت الازمان علي ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه علي ما أمامه من القري والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠ ق م كما قاله العالم سيديو

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فمنهم من يقول ان هجرة أهل مأرب كانت قبل أن ينهدم السد، لان كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ومنهم من قال ان الهجرة انما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الارض والمزارع ولم يمكنهم اعادة السد كما كان فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزرع كما كانت

ونحن نرجح الرأي الاخير لسببين:

الاول أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملا خصوصا انه سائر الى بلد لم يخبره

الثاني أن الكتاب لما قص علينا هذه القصة فى السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا

له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ) فهذا واضح في أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها وممن سار على هذا الرأي العالم سيديو

كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأى كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو مزيقيا سيد ولد الازد من كهلان خرج هو واخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الازد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم فصاروا يتنقلون في بلاد اليمن ويرسلون الروّاد ثم ساروا بعد ذلك الى الشمال

فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذي قار يتتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة وبها ناس من بني اسرائيل متفرقون في نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغرسوا النخيل، ومن ابناء ثعلبة هذا الاوس والخزرج ابنا حارثة ابن ثعلبة

وانخزع عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - بمن معه فافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرهم

وعطف عمران بن عمرو مفارقا قومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها من طسم وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان

وسارت قبائل نصر بن الازد - وهم قبائل كثيرة - نحو تهامة وهم ازد شنوءة

وسار جفنة بن عمرو الى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو ابو الملوك الغساسنة نسبة لغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الازد نزلوا عليه فنسب هؤلاء اليه

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بني ادد بن زيد قبيلة لخم بن عدى الذين

منهم نصر بن ربيعة ابو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلا — عمرو بن عدى بن نصر الذي ملك بعد جذيمة الوضاح

ومنهم طيء : ساروا بعد مسير الازد نحو الشمال حتي نزلوا بالجبلين أجأ وسلمي لما رأوه هناك من الخصب، وهذان الجبلان في الشمال الشرقي من المدينة ويخترقهما وادي الدهناء ولهما ذكر كثير في أشعار العرب الطائيين لما لهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بني نصر : قال شاعرهم عارق الطائى

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة　　اذا استحقبتها العيس تنضي من البعد

أيوعدني والرمل بيني وبينه ؟　　تأمل رويداً ما أمامة من هند

ومن أجأ حولى رعان كأنها　　قبائل خيل من كميت ومن ورد

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة وهي في آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادي الدهناء

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمنية واحتلت أخصب الاراضي العربية من الشمال والغرب

وبقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد، منهم الملوك والاقيال

## المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه — معيشة العرب من بدو
ومن حضر — حال العرب الاجتماعية

### شعب عدنان

أما شعب عدنان فمهده مكة وما جاورها من ارض الحجاز وتهامة فان عدنان — باجماع كلمة المؤرخين من العرب — ينتهي نسبه الي اسمعيل بن ابراهيم الذى جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم والكتاب ينسب اليه والى أبيه بناء البيت الحرام ( واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ) ولم تزل أبناء اسمعيل بمكة تتناسل هناك حتي كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه أياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونهما

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا يناصون مضر في الشرف والرفعة، ومنهم كان أكثر الخوارج في الاسلام

ومن ربيعة عبد القيس ابن أفصي ومنها بكر وتغلب ابنا وائل، ومن بكر حنيفة وعجل ابنا لجيم

وتشعبت قبائل مضر الى شعبتين قيس عيلان بن مضر، وبطون

الياس ابن مضر

وقيس عيلان بطونها كثيرة، فمنهم بنو سليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان: ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغني بن أعصر

وافترقت أولاد الياس فمنهم بطون تميم بن مر وهذيل بن مدركة وبنو أسد ابن خزيمة: وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة

وقد انقسمت قريش الى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم ابنا هصيص بن كعب وعدى بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قصي

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم: وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد على بن أبي طالب بن عبد المطلب

مساكن العدنانية

لما تكاثر أولاد عدنان رأوا ان البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة و بطون من بكر بن وائل - الى البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجيء الاسلام، وذلك الامير هو المنذر بن ساوي من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر الى اليمامة فنزلوا بحجر قصبة اليمامة وكان أميرهم عند مجيء الاسلام هوذة بن علي الحنفي الذي يقول فيه الاعشي

من ير هوذة يسجد غير متئب ... اذا تعمم فوق التاج أو وضعا

له أكاليل بالياقوت فصلها ... صواغها لا تري عيباً ولا طبعا

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لم يتتوج معدي قط وانما كانت التيجان لليمن. فسأله أبو عبيدة عن هوذة فقال انما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يجير لطيمة كسري في جنبات اليمامة.

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الارض من اليمامة الى البحرين الى سيف كاظمة ، إلي البحر فأطراف سواد العراق فالابلة فهيت

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بطون كانت تساكن بكراً

وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة من وادي القري الى خيبر، الى شرقي المدينة الى حد الجبلين، الى ماينتهي الى الحرة فتلك ديارهم لا يخالطهم الا بعض الانصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس — وهي على الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيء وبينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء الى حوران وبقي بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش الا أنهم متفرقون لا تجمعهم جامعة حتى نبغ

فيهم قصي بن كلاب فجمعهم وكون لهم وحدة شرفتهم و رفعت من أقدارهم

بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب - بالنسبة الى مساكنهم - الى حضروهم سكان المدن وبدو، وهم الذين يقيمون في البادية. انما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا يصفو عيشهم الا فى ذلك الجوّ الفسيح - لا يحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور : وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الاعراب، وهو ما سنتبعه و يغلب على خلق هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو ما يسمي بالعنجهية

أما الحضر: فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون انها أقدم مدينة على وجه الارض، وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك، وفي شمال اليمن مكة: وهي تهامية والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر: وفي نجد حائل وفي العروض حجر - قصبة اليمامة - والقطيف بالبحرين وأهل المدن لا يظعنون عن مقامهم لا في صيف ولا فى شتاء

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء ما يبغون وبيع ما يحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لكسري والنعمان لطائم يرسلها الى نواحي الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الاعراب كبير من كبار العرب تحمل البز

والثياب وما تحتاجه العرب : وكان لقريش رحلتان تجاريتان إحداهما للشام في زمن الصيف ! والاخري لليمن في زمن الشتاء : وبلاد اليمن كانت تتجر بحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافيء تجارية كبيرة ولم يعرف للامة العربية نقود كان بها التعامل، وانما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لهما وهما الفرس والروم

صناعة العرب

أما الصناعات فكانوا أبعد الامم عنها حتي أن البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة واذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من تميم لانجده اكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفاً بحرفة هي جلاء السيوف ! وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لان القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعمالها فيما تصلح له من النعال وغيرها، وكذلك حياكة الثوب : ويقول قائلهم هم بين دابغ جلد وناسج برد، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ـ وكانوا يرجعون في صناعة البناء الى عمال من الروم اوالفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورنق في زمن النعمان : وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

أحوال العرب

قد حصرنا أحوال هذه الامة التى تمثلها لنا اكبر تمثيل في الاحوال الاجتماعية والادبية والسياسة والدينية، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد

منهم من العلاقة بأهله و ولده و بني عمه دنيا: ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعني بالادبية ما كان لهم من الاخلاق التى توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها، ونعني بالسياسية ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم اوالتبعة لغيرهم ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجل في أهله — ونريد بالاهل خصوص الزوج

يظلم العربي من زعم انه كان ينظر الى المرأة نظرة استخفاف او إهانة فانا اذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم نري الامر على العكس من ذلك فقد كان الرجل اذا أراد ان يتمدح بماله في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته الا المرأة التي ان رقي في نظرها فقد رضي الناس كلهم عنه، وتري ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائى شيخ الكرام وعنترة العبسي شيخ الشجعان ثم انظر الى اي شجاع من العرب هل كان يفتخر الا محدثاً امرأة من قومه بانه المدافع عن الحريم الحامي للحقيقة؟

تراه اذا عذلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيبها بأرق ما تجيب به مخالف فى الرأي

ألم تعلمي - ياعمرك الله أنني  كريم على حين الكرام قليل؟

أو لاتري أن جميع الشعراء اذا بدأوا قصائدهم التي بها يفخرون

بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم - لا يذهبون الى شيء من ذلك حتي يعطوا المرأة
قسطها مما تحب من النسيب يرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة
وتراهم حينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الالقاب فيقول أحدهم

يا ربة البيت قومي - غير صاغرة ... ضمي اليك رحال القوم والقربا

فاعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو
الدرجة وما أحلى احتراسه في قوله غير صاغرة ! ويقول الآخر لزوجه

سلى الطارق المعتر يا أم مالك ... اذا ما أتاني بين قدري ومجزري
أيسفر وجهي وهو أول القرى ... وأبذل معروفي له دون منكري

فلا يناديها الا بكنيتها وهذا من سمات التشريف في عرفهم

وبالجملة فان المتتبع لاشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار
والاهانة للمرأة ويفخرون بنسبتهم الى أمهاتهم كما يفخرون بنسبهم الى آبائهم
وكانت المرأة فيهم اذا أرادت فرقت، وان شاءت جمعت فان اتجهت عواطفها
للسلام سعت اليه ونجحت وان وجهتها ارادة الانتقام الى الشر أشعلت النار
بين الاحياء

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان - في ابان الحرب بين
عبس وذبيان - أتراني أخطب الى أحد فيردني قال نعم: أوس بن حارثه بن
لام الطائي، فقال الحارث لغلامه هيىء لي مركباً ثم ركب هو وغلامه
ومعهما خارجة، حتى أتيا أوساً فوجداه في داره فلما رأى الحارث رحب به
وسأله عن مجيئه، فقال جئتك خاطباً فقال أوس: لست هناك فانصرف ولم
يكلمه ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت من

رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال ذاك سيد العرب الحارث بن عوف قالت فمالك لم تستنزله قال انه استحمق جاءني خاطباً قالت أفتريد ان تزوج بناتك قال نعم قالت فاذالم تزوج سيدالعرب فمن قال قدكان ذلك قالت فتدارك ما كان منك فالحقه وقل له انك لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب الا ماسمعت فانصرف ولك عندي كل ماأحببت فانه سيفعل ففعل ذلك أوس ورد حارثة فلما وصلوا الى بيت أوس قال أوس لزوجه ادعي لى فلانة لكبري بناته فأتته فقال يابنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب وقد جاءني طالبا خاطباً وقد أردت ان أزوجك منه، فقالت لاتفعل لاني امرأة في وجهي رَدَّة في خلق بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن ان يري مني مايكره فيطلقني فيكون عليَّ في ذلك مافيه، قال قومي بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فاجابته بمثل جوابها وقالت اني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن ان يرى مني مايكره فيطلقني فيكون على في ذلك ماتعلم، ثم دعا الثالثة وهي بهيئة صغراهن فلما عرض عليها قالت انت وذاك فاخبرها باباء اختيها فقالت لكني والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً فان طلقني فلا اخلف الله عليه بخير فزوجها الحارث وهيئت اليه في بيت ابيها فلما خلاها واراد ان يمد يده اليها قالت مه أعندأبي واخوتي ?هذاوالله مالايكون فارتحل بها حتى اذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها فقالت أكما يفعل بالأمة الجليبة او السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل

مايعمل لمثلي فرحل حتي اذا وصل ديار قومه أعدلها ما يعدّ لمثلها فلما اراد قربانها قالت له أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج الى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع الى اهلك فلن يفوتك فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ومشاركتها لهم في جميع أمورهم وكيف كان الرجل لايزوج بناته الا بعد ان يستشيرها ويقف عند إرادتها ولا يمكننا ان ندعي ان هذا كان امراً عاماً عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعامل من جمهور الأمة لأن وجود افراد هذه معاملتهم لايحتمل ان يكون برهاناً على ان هذا خلق عامتهم كيف ونحن في بيئة لانعدم فيها من يرفع زوجه الى اعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستنتج من وجودهم ان احترام المرأة خلق عام للبيئة كلها ولكن الذي يمكننا ان نقوله هو ان ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير ان يقابلوا بالنكير يدل على انه لم يكن عندهم بدعاً من العمل بل كان شيئاً لاتنفر منه طباعهم . يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماً ولكن لايجسر ان يخالف التقاليد العامة يوماً فيكتب في احدى الجرائد قلت لامرأتي واستشرت امرأتي في زواج بنتي فكان مني ومنها كيت وكيت لو قال هذا لقابلته النفوس بالاستنكار لانه ليس من مألوف عادات القوم

ومن ذلك يمكننا أن نقول ان علاقة الرجل العربي بأهله كانت على درجة من الرقي أكثر مما يخيل الينا وكان لها من حرية الارادة و نفاذ القول القسط الأوفر

وسيمر بكم كثير من آثارها الكبيرة في الاسلام وهي مما يزيدنا تأكداً من هذا الرأي إلا أن الرجل كان يعتبر - بلا نزاع - رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاء أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم بذلك وهذا الزواج هو ما عليه جمهورهم

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوي الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان او مكان لم يكونوا يطلقون عليها الا السفاح واتخاذ الاخدان ولم يكن ذلك أمراً مستحسناً عند جمهورهم اذ المعروف عن العربي - من غيرته على أهله ومحافظته على شرفه - يبعد ذلك

فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال ان الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج في ضمن هذه الانواع تلك المسافحات

وكانوا يعددون بين الزوجات الا أنه لم يكن هناك حد معروف اليه ينتهي الأمر في هذا التعدد فقد ورد في الصحيح ان غيلان الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة

وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل الا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن فكن يشترطن عند التزوج ان تكون الفرقة بأيديهن

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان اذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حلف تقاتلا فاذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الاولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار في مدة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم ان تكون أمه حرة نسيبة لا سبية جليبة وان كان قد بذغيره بشجاعته اعتمد على هذه الشجاعة في نفي العار عنه كما قال عنترة

اني امرؤ من خير عبس منصباً　　شطري وأحمي سائري بالمنصل

وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون لهم الشرف حتى كانوا اذا امنوا على أولادهم ذكروا في اول ذلك انهم تخيروا امهاتهم وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يحرمون أنواعاً من الاجتماعات : كزواج البنت والأخت والعمة والخالة ومن غرائب ما يحكونه عن لقيط بن زرارة أحد أشراف بني تميم انه تزوج بنته دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الاباحيين لمجاورته للفرس والصحيح عند المؤرخين أنه انما كان يحبها و يتيمن برأيها ولذلك كانت تكون معه في غزواته .

أما معاملتهم لابنائهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعاً حصينة يتقي بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الاسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شاكل ذلك وكان لهم من الحنو على الاولاد ما يعبر عنه قول أحدهم

وانما أولادنا بيننا　　أكبادنا تمشي على الارض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يئدون بناتهم اذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب ولم يكن هذا في جميع العرب، بل كان في بعض بطون من تميم وأسد ولم يكن بالطبع الا في طبقة منحطة منهم لأن ذلك انما كان يفعله من يفعله منهم خشية الفقر والى ذلك الاشارة في قول الكتاب (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم)

وكان هناك من أشراف تميم قبل الاسلام من كره الوأد وعابه وكان

يشترى البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منهُ وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك ان نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التي تعد على الأمة العربية بل انما تعد على أولئك الافراد الذين اجترأوا عليها

أما معاملة الرجل لأخيه و بني عمه دنيا فبينها هذه الجملة التي قالوها أنصر أخاك ظالماً او مظلوماً: وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الاسلام لأن الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه: أما هم فكانوا ينصرون اخوانهم و بني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله ألسنة الشعراء بما يغض من كرامته و ينقص من قدره ور بما أصاب الذم القبيلة جمعاء من جرَّاء حادثة لم يقوموا فيها بنصر أحدهم كما قال شاعرهم

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذاً لقام بنصرى معشر خشن ... عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... عند النائبات على ماقال برهانا
لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن اساءة أهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس انسانا

واذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من إحدي القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الاخري ،وهذا الحلف قد يعقده الافراد وقد يعقده رؤساء القبائل والامر واحد في الحلفين

بينما هذه حالهم في بني أبيهم دنيا وفي حلفائهم اذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً في الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد وكل واحدة قد وقفت لاختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منهما الدرجة التي لا تطاق كما كان بين بطني الاوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراه في الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماما بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية في حروبهم والسبب في ذلك يرجع الى أمرين

الاول — التنافس في مادة الحياة بين بني الأب الواحد فانا نعلم ان حياة العرب كانت على مراعيهم التي يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التي منها يشربون وهي محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلأ والماء : وا كثر ما يبتدىء ذلك النزاع بين رعاة الابل القائمين بشأنها فانهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء اولاً او في نفس المراعي فيتجاوزهم النزاع الى ساداتهم فلا يجدون من الافتراق بداً فينزح أحد الاخوين عن داره مرغما الى مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذ به ولا

يكون ذلك الا بعـد ان يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفي النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للابناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل ، واذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى: وهـذا أمر نشاهـده في ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين : رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الامام مالك في عبادتهم ، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الامام الشافعي ، فاستغربت ذلك ! وسألت ذوى الاسنان منهم عن سببه ، فاخبروني أن أهل هـذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذي يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثاني — تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك اذا مات أكبر الاخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضا تزيده الايام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً في نفسه مافيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد! كما كان بين الاوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة وبين عبس ، وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ، ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نري الحروب الهائلة والايام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة في الانساب ، المتقاربة في الامكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون اليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف انما كانوا فى بعض الاحيان يلجأون الى حكم منهم قد عرف باصالة الرأي و يقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر واطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد اذا حكم الحكم لاحد الفريقين لان ذلك انما كان يزيد نار العداء ضراماً

واذا كان الحكم عارفا بدخائل العرب سوى بينهما في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فانه قال لهما انتما كركبتي البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما ان يجد له شاعراً يلهبه ويزيد في نفسه نعرة الجاهلية كما فعل الاعشى في هذه القضية فانه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامرا ويزعم ان الحكم قضي له ومما كان يزيد في هذه النيران شدة ألسنة الشعراء فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الاخري واذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيله بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى انا اذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص لان كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التي تعادي قبيلته حتي أنك لتري القبيلة المعترف لها بالتبريز فى السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحى الانسان من انشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة

ومتي وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لايحتاج شبوب

نار الحرب بينهما الى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الاطفال وتأييم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان واذا رجعت الى أسبابها المباشرة وجدتها في بعض الاحيان تافهة كما كان في حروب الفجار وفي البعض الآخر تراها أمورا يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الاسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المتأصل في القلوب لما ذكرناه

## المحاضرة الثالثة

### (حال العرب السياسية)

كان حكام الجزيرة من هذه الجهة قسمين القسم الاول منهم ملوك متوجون الا أنهم يرجعون الى سلطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين * القسم الثاني: رؤساء عشائر لهم ما للملوك من الحكم والامتياز الا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوّج

### (القسم الاول)

### « الملوك المتوجون »

ملك اليمن

اذا نظرنا الى المولعين بارجاع التاريخ الى الازمان المترامية الى الوراء وتحديد ما بيننا وبينها من السنين والأيام وجدناهم يتناقضون ولا يشعرون

فانهم انما يبنون هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تغني من الحق شيئاً

يقولون ان قحطان بن عابر المعبر عنه في التوراة بيقطان هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الارض خلاء ويتبع هذا الكلام انه كان ملكاً متوجاً لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م فتكون النتيجة انه كان ملكاً على نفسه او على أولاده ثم ملك بعدها ابنه يعرب وهو من أعاظم ملوك العرب ولا يدرون ان الذي يعطونه هذا اللقب لا تزيد رعيته عن ثلاثين من اخوته وبنيه

والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفي سنة ٣٤٦ يقول فيه ان اول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر انه ملك ٤٨٤ سنة

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة سلطانهم وهي بالخرافات أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم انه غزا الهند ثم رجع الى اليمن وعاد فذهب الى بلاد طيىء ثم على الانبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه الى أذربيجان فغزا وغنم * ويروون عن ابنه ذي منار انه غزا بلاد الغرب وذهب الى أقصاها وان ياسر أنعم سار نحو المغرب حتي بلغ واديا يقال له وادي الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنماً من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادي وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميري وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك احد * وان تبعاً دخل الصين غازيا فقتل مقاتلتها واكتسح ماوجد بها وخلف بالتبت اثني عشر ألف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن

وكل تلك الاخبار لا تقبل الا اذا ضحي جزء كبير من العقل ، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربي ( المتوفي سنة ٨٠٨ ) في مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدا والخبر ، وكذلك علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير الجزرى المتوفي سنة ٦٣٨ .

وقد بين محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم في موضعين من كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام وان الرئيس منهم انما كان رئيساً على مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك فأن نزع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك وان بعدت مسافة سيره من مخلافه فانما ذلك منه عن غير ملك له ، وطد ولا لآبائه ولا لأبنائه ولكن كالذي يكون من بعض من يشردون من المتلصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فأذا قصده الطلب لم يكن له ثبات ، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمر به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعاً الى محجره من غير أن يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة أو يؤدي له خرجاً

وقال في موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير أنه كان غير متصل وانما كان يكون لواحد منهم بعد الواحد وبين الاول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الاول منهم والآخر ، اذ لم يكن من الامر الدائم فان دام شيء فانما يدوم لمن دام له منهم لانه عامل لغيره في الموضع الذي هو به لا يملك

بنفسه اه

فالظاهر ان قبائل اليمن من قحطان تشعبوا في انحاء اليمن كما تشعب غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء في بعض الأحيان من يوسع سلطانه الى ما يجاوز مخلافه ثم يرجع الامر الى ما كان عليه اذا ضعفت قوة المتغلب في حياته او ضعفت قوة أعقابه

وكانت حمير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخلاف يتسع و يضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه

غير ان مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه الى ما وراء مخلافه بما يتاح له من القوة فاذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعاً لا يستحق هذا اللقب غيره، حتى أذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا المتغلب او في أيام أبنائه عاد الأمر الى ما كان عليه و رجع سلطان المخاليف الاخرى الى ذوي السيادة فيها وكانوا يسمون بالاقيال والواحد قيل

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التي كانت بينه و بين الملك الذي يليه فربما جعلوا حكم الملك ٤٠٠ سنة او اكثر كما قدمناه عن المسعودي

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها في التوراة بلقب ملكة سبأ وفي القرآن بهذا اللقب أيضاً

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك اسرائيل

ورأت عظمة ملكه وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على ان ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة التي تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت ( إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ) وقال سليمان لما أرسل اليها مهدداً (إرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواليها من تلك الاصقاع : فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع، وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك اليمن اذ ذاك . وممن اشتهر من ملوكهم يوسف ذو نواس وكان يهوديا فرأي ان بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعا لدعاة أرسلهم الامبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣م فلم يكن من ذي نواس الا ان مثل بهم حرقا بالنار سنة ٥٣٤ ولما علم بذلك امبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية ان ينتقم من ذي نواس فبعث اليه قائداً حبشيا اسمه ارياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذونواس أغرق نفسه فى البحر خشية العار وظل ارياط حاكما على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد ان استرضي ملك الحبشة فرضى عنه وأبرهة هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد ان يصرف الناس عنها الي بيت بناه بصنعاء فأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الامراض الثقيلة وقد بينها

ابن هشام (١) في سيرته بأنها الحصبة والجدري: وروي ان هذا كان أول حصولهما بمكة فعاد منهزماً وتوفي بعد عودته وأشار القرآن الى هذه الحادثة في سورة الفيل

وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثاني مسروق

كان في ذلك الوقت من اولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع الي نيل الملك ولا يقعده الا العجز وهو سيف بن ذي يزن الحميري فرأى من الضروري ان يستنجد بأحد الملكين العظيمين ملك الروم أو ملك الفرس، ولكنه أخفق في استنجاده بملك الروم فاستنجد بملك الفرس وهو كسري أنوشروان فوعده كسري خيراً ثم شغل عنه حينا من الزمن حتى مات سيف (٢) فذهب ابنه معديكرب الي كسري يستنجزه وعده فاشار على كسري كبراء دولته ان يعين معديكرب لما كان لهم من الامل في امتلاك اليمن فأمدوه بجند يقوده أحد الاساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الابلة وقطعوا خليج عمان حتي أتوا شواطيء حضرموت فنزلوا من احدي فرضها وتوجهوا الي صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

وحينئذ توج وهرز معديكرب ملكاً علي اليمن وأبقي معه جنداً من الفرس كانوا يسمون بعد بالابناء وينسب اليهم فيقال ابناوي

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد ابن اسحاق رئيس أهل المغازى المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعد في السير

(٢) بعض المؤرخين يروى أن سيفاً هو الذي ملك اليمن لا ابنه

وقد وفدت الوفود على ابن ذى يزن يهنئونه بعوده الملك ، وممن وفد عليه عبدالمطلب بن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم

كان معديكرب قد أبقى معه من الحبشة جمعاً يخدمونه ويمشون في ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذي يزن إلا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله ومازالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي كان على عهد الفتح الاسلامي لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب الى الاسلام فجاء الاسلام وصنعاء إيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدي له الخراج ولم يكن ملكه عاماً بل كان هناك أقيال آخرون يحكمون في مخاليفهم وكتب اليهم النبي صلى الله عليه وسلم كتبا مستقلة بصفتهم أقيالا ، كما كتب الى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان ، وكما كتب الى الحارث ابن عبد كلال وأخيه * وكان لكندة بحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك

الملك بالحيرة

بعد ان انهزم دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون في تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض في هذه التجزئة وهي ان يسجل على بلاد فارس ضعفا ابديا لا يتمكنون معه من اعادة الكرة على أملاك اليونان وقد نجح في هذه الفكرة فان ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التي كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف

يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم الى سنة ٢٣٠ م وهو الوقت الذي نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية او دولة الاكاسرة

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا اجزاءاً مهما من ريف العراق كان قبل ملكا للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم في تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية

فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التي كانت لهم من قبل رجع الى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سببا في رحيل جمع من قضاعة الى الشام: ودان له أهل الحيرة والانبار وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وما ئر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكأن أردشير رأى انه يستحيل عليه ان يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الاغارة على تخوم ملكه الا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر ( يظهر انها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس )

ولجذيمة هذا خبر طريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة

ومشارف الشام فانه غزا ملكهم المسمي عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به الى بلادها وقتلته وكان له ابن اخت اسمه عمرو بن عدي فأراد ان يأخذ منها بالثار فأعمل الحيلة الى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمي قصيراً فسار قصير اليها حتي عرف مداخل مدينتها وما عملته فى قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليجيء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمراً أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال في الغرائر علي الابل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما ادركت جلية الامر ذهبت لتدخل المكان الذي أعدته لهربها فادركها عمرو فمصت سماً وقالت بيدي لا بيد عمرو ، ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرابتها ينكر صحتها المؤرخون من الافرنج، و يقولون ان الزباء هذه كانت ملكة علي تدمر من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها اذينه من بني السميدع الذين سكنوا بلاد العراق و براري الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حار بها الرومان في عهد القيصر اوولياُنس وقهروها وأخذوها أسيرة الى رومية حيث قضت هناك نحبها وذلك في المدة بين سنتي (٢٧٠ و ٢٧٣) م وموت جذيمة كان حوالى سنه ٢٦٨ م

و بعد موت جذيمة ولي أمر العرب عمرو بن عدي بن نصر اللخمي وهو أول ملوك اللخميين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ م الى سنة ٦٣٢ م وهي السنة التي فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلي ذلك تكون مدتهم ٣٦٤ سنة الا ان الملك قد انقطع فيها عنهم مرتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أرد شير ولم تزل الملوك من بني

نصر تتوالي على الحيرة حتى ولي الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر فى زمنه مذهب الاباحية فى بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك فوجد المذهب رواجاً وتبعه خلق كبير ومنهم الملك قباذ فارسل الي ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه الى ان يكون على ذلك المذهب فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى الذى كان اميراً على قبائل بكر بن وائل وفده ملكه بعد ان أجاب دعوته الي المذهب المزدكي

ولم يزل ملكا حتي مات قباذ وخلفه كسرى انوشروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضراً بالبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بهذا المذهب من الفرس واعاد المنذر الى ولاية الحيرة وطلب الحرث بن عمرو وكان بالانبار وبها منزله فهرب باولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وأياد وبهراء فلحق بارض كلب فنجا وانتهبوا امواله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفساً من بني حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا وهم الذين يعنيهم عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته

فآبوا بالنهاب وبالسبايا      وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث في ديار كلب حتى مات

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم بعض ولده فملك ابنه حجرا على بني أسد بن خزيمة وغطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معد يكرب على قيس عيلان وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط و بني سعد من تميم . ولم يكن

هذا الملك بالشيء الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل الملك وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ القيس وقيامه لأخذ الثار ممن قتلوا أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فآب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت عليه في ذهابه الى ملك الروم واستنجاده به على قتلة أبيه

ولما عاد الملك الي المنذر بن ماء السماء استمرّ في عقبه حتى كان النعمان ابن المنذر المكني بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي العبادي انتقاماً منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الأمر واشتدّ غضب كسرى على النعمان وأرسل اليه يطلبه فخاف النعمان عاقبة الامر وأيقن انه هالك ان توجه الى المدائن فذهب يتنقل في أحياء العرب يريد منهم أن يحموه من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلاً حتى ورد ذاقار ونزل على بني شيبان سراً فلقي هانئ بن مسعود الشيباني وكان سيداً منيعاً والبيت من ربيعة في آل ذي الجدين لقيس بن مسعود أخي هانئ وكان كسرى أطعمه الأبلة فكره النعمان ان يرفع اليه أهله لذلك وعلم ان هانئاً يمنعه مما يمنع منه أهله وولده فأودعه أهله وماله وتوجه الى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي وهو من أشراف طيئ وأمره أن يرسل الي هانئ بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبي ذلك هانئ حمية وآذنوا الملك بالحرب فأمر إياساً أن يسير اليهم بالجنود ومعه مرازبة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بني شيبان قال لهم هانئ يا معشر بكر لا طاقة لكم بحرب كسرى فاركنوا الى الفلاة فأسرع الناس الى ذلك فقام حنظلة بن ثعلبة العجلي وقال

ياهاني أردت نجاءنا فالقيتنا في التهلكة ورد الناس وقطع وضن الهوادج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة فرجع الناس وانتظروا مجيء الفرس حتى جاءتهم، وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل فأنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكماً فارسياً كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معديكرب

وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك الى آل لخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته الى أن قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقى من بني نصر بالعراق

جاء الاسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جداً، كما كان في اليمن لأن الملك كان عاملاً للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدي لهم الخراج واذا شاء ملوك الفرس أبقوه وان شاءوا عزلوه. ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطاناً تاماً وانما كان اسمياً لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون في وجهه محاربين وكان أحياناً ينتصر عليهم اذا أقاموا في اماكنهم وأحياناً يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويحتمون ببواديهم فلا يمكنه أن يتبعهم

ومما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر بن ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي قال يوما لجلسائه هل تعلمون احداً من العرب يأنف ان تخدم أمه أمي قالوا ما نعرفه الا ان يكون عمرو بن كلثوم

التغلبي فان أمه ليلى بنت مهلهل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمر و
فسكت عمرو على ما في نفسه ثم أرسل الى ابن كلثوم يستزيره ويأمره ان تزور أمه
هنداً بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم في فرسان من قومه تغلب ومعه أمه
ليلي فنزل على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات
وصنع لأهل مملكته طعاما وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل
السرادق وليلى أم عمرو ومع هند في القبة وقد قال ابن هند لأمه اذا فرغ الناس من
الطعام فنحي خدمك عنك فاذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها ان تناولك
الشئ بعد الشئ ففعلت ما أمرها به ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى
ناوليني ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى
واذلاه يا آل تغلب فسمعها عمر و بن كلثوم فثار الدم في وجهه والقوم يشربون
وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره
فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال في ذلك شاعر التغلبيين

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا ... لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا ... وأمسك من ندمانه بالمخنق

وقال ابن كلثوم في معلقته

بأي مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأي مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويداً ... متى كنا لأمك مقتوينا
فان قناتنا يا عمرو أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا

## ﴿ المحاضرة الرابعة ﴾

الملك بالشام — الامارة بالحجاز — الحكم عند الاعراب

### الملك بالشام

في العهد الذي سار فيه عرب اليمن الى ريف العراق كان من قضاعة قبائل سارت الى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم ان يعيشوا فيها وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سعد ابن سليح ويقال لهم الضجاعمة نسبة الى أبيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الاسكندر المقدوني وفتوحاته فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكاً ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقد مكثت الضجاعمة عهداً طويلاً يلون أمر العرب حتي أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من عشائرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين على ما بيدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكاً على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب في المملكة الرومانية ويسمى في تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتى جاء الاسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للاسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وكان لبني جفنة بالشام مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا كثيراً من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحي

وكان حسان بن ثابت كثيراً ما يمدحهم لأنه ينتمي إلى أصلهم وهو الأزد وله فيهم المدح الجليلة منها قوله

أولاد جفنة حول قبر أبيهم　　قبر مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ما تهر كلابهم　　لا يسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر ، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أُباغ (وهي وادوراء الانبار على طريق الفرات الى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين الحرث الاعرج بن أبي شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة في هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذي بدأ بالشر لانه كان يريد من خصومه أن يدفعوا له الفدية بمعني أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفي هذا سقوطهم أمام الروم الذين اصطنعوهم

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الاسود بن المنذر لما ولي بعد أبيه أراد الانتقام له فجهز جيشاً تحت قيادته وسار الى ان أتي مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر أيضاً

الامارة بالحجاز

كان يلي أمر مكة ولاة من جرهم قحطان ـ وهي جرهم الثانية ـ ولما جاء اسماعيل مكة مع أبيه ابراهيم صاهرهم : وكان لاولاد اسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما لأبيهم من بناء البيت وان لم يكن لهم من الحكم شيء * ولما ارتحل

الأزد من مأرب بعد السد، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثه بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى : نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

و وليت خزاعة أمر مكة حيناً من الزمن وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بمكة أولاد فهر ابن مالك وهو قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب وهو الأب الخامس لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فجمع شتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنتهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة، ولما لم يبق الا أمر ولاية البيت أخذه قصي من سادنه المكنى بأبي غبشان وهو صهر قصي، ويقال إنه اشتراه منه بزق خمر، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة الا بالقوة التي كونها من عصبية فهر بن مالك وبهذا كانت له السيادة التامة والامر النافذ في مكة، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد اليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة * ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لانها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى : وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الامور ويزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لا تعقد راية لحرب الا بيده ؛

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها الا هو وهو الذي يلي أمر خدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعني السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها اذا وردوا مكة: والرفادة طعام كان يصنع للحاج على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة

كان كل ذلك لقصي بن كلاب وكان ابنه عبد مناف قد ساد في حياة أبيه فأراد أبوه ان يلحق به ابنه عبد الدار الذي كان أسن من عبد مناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش، فلم ينازع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه : ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل فنافسوا بني عمهم عبد الدار في هذه المصالح التي رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتدأ النزاع بين بني العم، وسببه المنافسة في الشرف وافترقت قريش فرقتين: فرقة تساعد بني عبد مناف وفرقة تساعد بني عبد الدار، وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لا يغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا لبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، ولبني عبد مناف السقاية والرفادة. ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم ابن عبد مناف فكان هو الذي يليهما، ومن بعده بنوه حتي جاء الاسلام والامر على ذلك

وكانت لقريش مصالح أخري لا تساوي هذه في العظم وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء

القبائل المختلفة من قريش حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ماحفظ قريشاً مما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال، الا أنهم وان لم يصابوا بمصيبة الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتماً بين كبراء البيت الواحد، اذا كان لكل واحد مايساعده على الشرف والرئاسة، وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبدشمس، فقد كان هاشم سيداً بماله من المصالح الكبرى في قومه، وكان أمية مثرياً من المال والولد، ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش، فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الاسلام، ولكن لم يصل هذا النزاع يوماً الى حد شبوب القتال بينهم لان البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه، لأن ذلك لو وقع لانحط المركز السامى الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فان مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من لجأ اليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع الى هذه الاسواق من جهات العرب كافة لانهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فاذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجترىء عليه غيرهم، وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم: فمن هنا كان التحكيم في الامور العظيمة من مألوف عادتهم

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش اليها اضطراراً سمتها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده ومما امتازت به قريش حلف الفضول، وكان مداره على أن ترد كل

مظلمة بمكة الى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره، وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها

جاء الاسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام - تعترف لها بذلك جميع العرب

الحكم عند الأعراب في بواديهم:

- كانت القبائل في نجد: ما كان منها بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة: وما كان منها في بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام، الا أن هذه التبعية - بالنسبة لقبائل البادية - كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطيقون أن يحكموا حكما ملوكياً يقيد حريتهم التي ليس عندهم ما يعدلها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال وأعظم مسوّد كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فمتى وجدت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء! تقيم بأقامته وتظعن بظعنه، واذا دعا الحرب لا تتأخر عنه واذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحمله من الحمالات فكان له المرباع والصفيّ والنشيطة والفضول: فالمرباع ربع الغنيمة والصفيّ ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة، والنشيطة ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل الى بيضة القوم، والفضول ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما: قال بعض الشعراء يخاطب بسطام ابن قيس سيد شيبان

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه، فاذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد، وكان بيت قيس في الجاهلية في بني فزارة ومركزه حذيفة بن بدر، وبيت تميم في بني دارم، ومركزه حاجب ابن زرارة، وبيت ربيعة في آل ذي الجدين، ومركزه قيس بن مسعود الشيباني: وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان ما يشبه سلطان الملوك في رعاياهم الا أنهم كانوا لا يتتوجون حتى كان بعضهم اذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لا تسأله فيم غضب! وكان في بعض الاحيان يعظم قدر الرئيس ويشتد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدي له خرجاً كل سنة، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس - من قيس مع هوازن، وهم بطون من قيس فانهم كانوا يؤتونه الاتاوة كل سنة بعكاظ، وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

وممن ساد من العرب هوذة بن علي الحنفي سيد بني حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى التميمي - سيد عبد القيس: وتميم بالبحرين

وعلى الجملة: فقد كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة في السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً، ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم الى بذل الندى واكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فيهتفون بأسمائهم مادحين: والشعر كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو!!

# المحاضرة الخامسة

## ﴿الحال الأدبية﴾

### الاخلاق — اللغة

#### الاخلاق

الخلق هو الملكة التى بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصر لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل ، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الاخري كالمشي واللعب النظامى

#### عموم الخلق

لا يحسب الخلق على الامة الا اذا كان مألوفاً عند أفرادها يفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيراً أو يخشي لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عد من مذام الامم التى بها تستحق السقوط والخذلان أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، ومن هنا قال الله تعالى في الكتاب (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لان الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه في الجريمة : فان كان الشر معروفاً عن فرد أو جماعة يستترون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم، كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم الى الامة بأسرها، وحينئذ يكون من الخطأ

عد هـذا الخلق على الامـة : كذلك لايحسب الخلق للامة الا اذا كان فاشياً بـين أفرادها مألوفاً عنـد جميعهم لا يخـالفه أحـد منهم الا مستتراً ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور، وعلى هـذه القـاعدة نسير في بيان الاخلاق عند العرب

من الاخلاق التى كانت للعربي سرعة الانفعال والاقدام على المكاره[1] تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج في هيجه الا الى كلمة صغيرة أو فعلة حقيرة يتخيل معها أن قد مسّ شرفه فتجده زار كالاسـد خرج من مكمنه لايتريث حتى يستطلع جلية الامر، بل يقـدم منـكباً عن ذكر العواقب جانباً ! وهذا الخلق أكثر ماتراه فى قبائل البادية الذين كانوا لايخشون سجناً، ولا احكاماً قاسية من جرّاء أفعالهم، بل هم بالعكس ينتظرون النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم، والنفس اذا أحست بما يضرها انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام ، فاذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم الى السير في طريق الحروب بقليل من الـكلمات ، وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي كما في كل أمـة وأرقاها درجة في التأثير: يالفـلان واذلاه ! وانصيراه! شرف الآباء ! وماشا كل ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التى تجعـل صاحبها يألف سماع مايهين شرفه حسبما يتخيل ويتبع هـذا الخلق الجرأة على سفك الدم ! لان النفس متى تهيأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تـكـتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه

ومن هنـا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً ألّهمّ الافي سادتهم وذوي الاسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلين

٢ ومن أخلاقهم التعصب : ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة في حال العرب الاجتماعية، وقد سمى القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لأن كليهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت

٣ ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح به وممتن على غيره * كان الواحد منهم يأتيه الضيف -في شدة البرد والجوع- وليس عنده من المال الا ناقته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم اليها ويذبحها لضيفه: يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم

واعلم بأن الضيف يو مأ سوف يحمد أو يلوم

ومن طريف أخبارهم في الكرم أن سالم بن قحفان من بني العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيراً ثم طلب من امرأته حبلاً يقرن به بعيره الى من أعطاه إياه، ثم ثانياً وثالثاً حتى لم تجد حبلاً! فقال لها علىّ الجمال وعليك الحبال، فرمت اليه خمارها وقالت اجعله حبلاً لبعضها فقال

لا تعذليني في العطاء ويسري لكل بعير -جاء طالبه- حبلا
فاني لا تبكي عليّ إفالها اذا شبعت من روض أوطانها بقلا
فلم أر مثل الابل مالاً لمقتن ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

﴿ فأجابته امرأته ﴾

حلفت يميناً يا ابن قحفان بالذي تكفل بالارزاق في السهل والجبل
تزال حبال محصدات أعدّها لها ما مشى منها على خفه جمل
فأعط -ولا تبخل- لمن جاء طالباً فعندي لها خطم وقد زاحت العلل

ويري المطلع على أبواب الحماسة والرثاء والأدب والاضياف من ديوان الحماسة الذي جمعه حبيب بن أوس الشهير بأبي تمام ما يثلج الصدر

ومن أخلاقهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به ويستهينون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم : أنظروا الى مافعله هانئ بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر وأولاده حيث عرّض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه ويصيب قومه من جرّاء ذلك، ثم انظروا الى مافعله السموءل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث الغساني بين قتل ولده وتسليم أدرع امرئ القيس بن حجر الكندي التي كان أودعها عنده ففضل قتل ولده ! وفي ذلك يقول الأعشى مخاطباً شريح بن عمرو الكلبي

| | |
|---|---|
| كن كالسموءل اذ طاف الهمام به | في جحفل كسواد الليل جرار |
| بالأبلق الفرد من تيماء منزله | حصن حصين وجار غير غدار |
| خيره خطتي خسف فقال له | اعرضهما هكذا اسمعهما حار |
| فقال غدر وثكل أنت بينهما | فاختر ، ومافيهما حظ لمختار |
| فشك غير طويل، ثم قال له | أقتل أسيرك اني مانع جاري |
| وسوف يعقبنيه إن ظفرت به | رب كريم وبيض ذات أطهار |
| فاختار أدراعه أن لا يسب بها | ولم يكن عهده فيها بختار |

ثم انظروا الى مافعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى للملك بما تعهد به بعد أن رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل

بقوس حاجب، والقوس في الحقيقة لايمنعه رهنها من فعل مايشاء إن كان من شيمته الغدر، وإنما خاف السبة على بنيه من بعده إذا هو غدر

ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الامة العربية أنهم كانوا اذا زل واحد منهم زلة فغدر بذى عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأساً بين العرب

وخلق الوفاء في الحقيقة أعظم ممثل للأمة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقي فان خلت منه فبشرها بالخذلان وسقوط لا محيص عنهما

ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يغلون في الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم مقدماً على الابناء والاخوان . ومن ذلك أن رجلاً من السواقط من بني أبي بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير ابن سلمي أنه له جار فحدث أن كان بين قرين بن سلمي و بين أخي الجار أسباب أدت الى أن قتله قرين، وكان عمير غائباً فأتى الكلابي قبر سلمي أبي عمير وقرين فاستجاربه، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابي أن يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل، فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتل أخاك وسق الى الكلابي جميع ماله، فأبي الكلابي أن يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتي قطع الوادي فربطه الى نخلة وقال للكلابي: أما اذ أبيت الا قتله فأمهل حتى أقطع الوادى وأرتحل عن جواري فلاخير لك فيه فقتله الكلابي: وفي ذلك يقول عمير

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا ... وكان أبونا قد تجير مقابره

وقالت أم عمير

تعد معاذراً لاعذر فيها ... ومن يقتل أخاه فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن نتكلم فيه فانهم كانوا يخلطون

حلفاءهم بأنفسهم ويوفون لهم بأيمانهم التي عقدوها معهم وكان الحليف يعد من أفراد القبيلة التي دخل في حلفها وينال شرفها، وقد كان حلفاء قريش في الجاهلية يتزوجون بناتهم مع أن قريشاً كانوا يضنون ببناتهم عن أي قبيلة أخرى لا يرون أحداً من العرب لهن "كفء" الا من دخل في حلفهم، ومن خلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة وهي قوة في النفس تحمل صاحبها على الاقدام على المكروه، وباب الحماسة في أشعارهم أكبر من باب الكرم لان الشجاعة خلق يظهر في جميع الافراد أما الكرم فانه لا يظهر أثره بجلاء الا عند أرباب الاموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء والمعوزين، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم في شدة البأس وقوة القلب: وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ولكننا لا يمكننا أن نقول إنها كانت أخلاقاً عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم في أبواب الادب يجد من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم أن هذه الامة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش لم تخل من حكماء أودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم :: ولنتكلم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسبما قدمنا من الاصطلاح

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمدحون بها الميسر!! وكانوا يرون انه سبيل من سبل الكرم لانهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه وكانت طريقتهم في لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار الى عشرة أجزاء، ثم يجاء بالقداح - وهي عيدان من نبع قد

نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة، الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد، والثلاثة الاخيرة غفل من العلامات لا نصيب لها إنما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الاول عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهي الى السبعة للمعلي فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح الى رجل أمين يقال له أمين المقامرين فتدفن في الرمل أو توضع في خريطة ويلف على كف الامين قطعة من جلد لئلا يحابي أحداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الامين يده فيخرج قدحا: ولنفرض أن الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب القداح على تسعة الاجزاء الباقية فان خرج التوأم فلصاحبه جزءآن ثم تضرب القداح فان خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه، وإن خرج في أول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة الباقية فأن خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لان فيها مايستحق أكثر من جزء فيشترون جزوراً أخري يقسمونها كالاولى فيكون الباقي ١١ جزءاً يضربون القداح عليها فأن خرج المعلى أخذ سبعة وبقي أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لان منها النافس، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخري فيكون الباقي ١٤ جزءاً فاذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فاذا خرج الحلس أخذ أربعة ثم التوأم وله اثنان: ثم الفذ وله

واحد فالمجموع ١٢ جزءا ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل من ربح في جزور ليس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الاولى يقسم على ١٨ جزءاً، وهي لمن عدا الرقيب والمسبل، وثمن الثانية الى ١٢ جزءاً لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى، وكذلك ثمن الثالثة

والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التي أثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمه الدين الاسلامي وهذه المفسدة هي أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، لان المتامر غافل عن كل شيء

ومن عاداتهم -التي يتمدحون بها- شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبل الكرم ! ومما يسهل السرف على النفس . لذلك تجدها فى الشعر العربي بابا من أبواب المديح والفخر : ومن أحسن ماقيل في شربها من جهة الاسلوب اللغوي قول عنترة

ولقد شربت من بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مفدم
فاذا سكرت فانني مستهلك مالى وعرضي وافر لم يكلم
واذ صحوت فما أقصر عن ندي وكما علمت شمائلى وتكرمي

والشرب -فى وقت عنترة هذا- كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحا ويسمي الصبوح

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر في التحريم، لان المنفعة كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألونك عن الخمر والميسر

قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ) ثم بين هذا الاثم مرة أخرى فقال ( انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ) وهذا إثم يربو على كل منفعة

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم اليها أديانهم سنتكلم عنها في مبحث الدين

لغة العرب

اللغة العربية احدى اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم منذ حلها قحطان رأس قبائل اليمن ويسمون في التاريخ بالعرب العاربة لاصالتهم في العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التي سارت الى مكة واحتلتها قبل أن يردها اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، فلما جاءها اسمعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان اسمعيل رجلا عبرانيا يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية وأمه هاجر امرأة مصرية . أخذ اسمعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب ما يسهل على اللسان العربي وهذا أمر يسهل القول به لان اسمعيل وأمه لا يمكنهما ان ينسيا بالمرة ما في أنفسهما من الكلمات المحفوظة واذا احتاجا الى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة في لسان جرهم يفزعان الى ما معهما وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة . والمؤرخون يسمون اسمعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية وليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربي الحميري وهو لغة

العرب الاصلية والفرع العدناني أو الحجازي وهو لغة بني اسمعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبير بهما لا يختلفان وانما الخلاف في ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس، والمتتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب اليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الالف لسماع تلك الالفاظ ويحس منها بصلابة لا يجدها فيما يرادفها من الالفاظ الحجازية

معلوم أن اللغة انما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فالمفهوم أنها تكون في بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب ما يعن لهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة على ما يقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدل عليها بكلمات تنبئ عنها. لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية في حركة مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب في توسيع مادة اللغة طرق ثلاث

الاول — تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ اليه أحياناً وربما اختلفت مواضعهم فيجيء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر، وقد يكون بعض الاسماء مشتقاً من صفة في المسمى وبهذا يجيء ما يسمونه بالترادف وأكثر ما نجده في أسماء الاشياء التي هي عند عامتهم لا يستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجمل والكلب والهر وماشاكل ذلك

الثاني — التجوز فقد كانوا ينظرون الى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطاً أو تشابهاً فيطلقون لفظ الاول على الثاني ومع تطاول الزمن ينسي أول الشيئين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت فى أصل اللغة وضعاً ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن

الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ماتخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع . وللعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ بالالباب يدركها من عنى بلغتهم ، وكانوا دائماً يكنون عن المعاني التى لا يرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف ، ومتي شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة فى المعنى الخسيس عدلوا عنها الى غيرها من الالفاظ المستعارة ، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بانها استعيرت وقتا ما لمعان خسيسة ثم بقيت لها تلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وارادة مايلزمه حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة في اصطلاح البيانيين بالكنايات

الطريق الثالث — طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخري بعد صقله وتهذيبه وكان لهم فى التعريب الشأو الواسع ، لان العرب اشتغلوا بالتجارات والاسفار وساكنوا الفرس والروم والحبش ، وكانت ترد على حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ما يأخذون عن تلك الامم اسمها بعد أن يتلاعبوا به قليلا حتى يكون على نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت فى اللغة قبل الاسلام بزمن ليس بكثير ؛

وأعظم واسطة كانت لاشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتي يستعملها الجمهور الشعر العربي فان هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الاسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم

وكانت أسواقهم التي اليها يجتمعون لالقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز

فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد فى أول ذي القعدة الى عشرين منه ومجنة بمر الظهران ينتقلون اليها من عكاظ فيقيمون فيه الى غاية ذي القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانيا من ذي الحجة ثم يعرفون في التاسع الي عرفة وهو يوم التروية . وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ماجادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر مايستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا في المعلقات السبع وما يقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب واكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرىء القيس الذي كان أبوه ملكا فى نجد على بني أسد وشعراء الاوس والخزرج الذين كانو بالمدينة وطيىء وكلب المقيمين فى شمالي الجزيرة

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعريبا لقلة الحاجة عندهم ولان معاشرتهم للامم الاخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترى بعض رجال االلغة لا يحتجون بمثل عدي بن زيد العبادي الحيري وأمية بن أبي الصلت الثقفي لانه كان ذا أسفار يخالط العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما كلمات في اللغة لم يسبق الى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك

كل هذه الطرق افادت اللغة العربية فائدة كبري وهي سعتها

وقدرتها على التعبير عما يكنه الصدر من المعاني فكانت وافية بحاجتهم على قدر مااتصلت بهمعلوماتهم وفوق ذلك صارت مستعدة لان تقتبس من غيرها مايرى المتكلمون بها أنفسهم في حاجة اليهحسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة الى اكثر من هذا في استعدادها للحياة الدائمة بعد ان تكون سهلة سلسة على الالسنة والاسماع وهذا مانحس به في هذه اللغة الجميلة

جاء الاسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد العرب فكثر الشعراء النابغون والفصحاء القوالون يتباهون، في مواقفهم المعدودة لهم بما أوتوه من الفصاحة واللسن، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ عظيم اذا هي رزقت شاعراً ينافح عنها في المجامع ربما أولمت الولائم فرحاً بذلك واستبشاراً، وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ماليس لغيرهم، ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق

ومن أراد ان يرى مثالاً واضحاً من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب في جميل المعاني فليطلع على مااختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلي ماجمعه أبو علي القالي في أماليه، وماجمعه أبو العباس المبرد في كامله، وماجمعه صاحب جمهرة أشعار العرب فان مافي هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم الاأشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل جداً في جانب الذهب الوفير

## المحاضرة السادسة

### الكتابة ـ العلوم ـ الدين

### الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الافراد وانما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن في الكتابة المصرية، ومن اليمن انتقل الخط الى الحيرة والانبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لانه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية الى مكة وكان رجلاً سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة في هذه الجهات الثلاث ليست بالشيء المتداول الذائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى انها كانت لترى في ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صناعات المدنية

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في افراد قليلين يسهل ان نعبر عن الامة العربية بأنها أمة أمية أي لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الاسلام فقال (هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير في اعتماد الانسان على قوته الحافظة والقوة متى استعملت نمت. لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقي عليهم القصائد في المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلاً او بعضاً وربما فاتهم الشيء منها اذا اشتبه عليهم الامر فقدموا وأخروا وهذا سبب لما نراه في بعض الاشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والاثبات

ولكون الشعر اكثر استعداداً لان يحفظ كان الباقي لنا منه اكثر مما بقي من نثرهم وخطبهم في المحافل والمجامع

جاء الاسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ بيدهم الى طريق ترقيتها كما يأتي بيانه

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنباً لجنب لان الانسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع مايسد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع . وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات الا ما كان منها مختصاً بما هم في حاجة اليه وكانت الحاجة في حواضر العرب اكثر منها في باديتهم ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة اكثر مما عند البادية . كانت حاجة العربي في باديته تنحصر في الماء الذي يحتاج اليه ويصله من السماء ثم في جمله الذى هو عدته ثم في ملبوسه البسيط الذي يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعري ثم اداة حربه وقلما يحتاج الى اكثر من ذلك

فاما حاجته الى المطر فقد كسبته ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبىء عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الانذار بالجدب وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجريبية قلما تتخلف فيستدلون بالريح وباشكال السحب وبالانواء (١)

---

(١) قسم العرب المنطقة التي تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة الى اثني

ومن استدلالهم بالرياح واشكال السحب مارواه صاحب الاغاني قال خرج اعرابي مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعي غنم لهما فقال الشيخ : اني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري : فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلي ثم قال لها بعد ساعة اني أجد ريح النسيم قد دنا

---

عشر قسما وسموا كل قسم برجا لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة فى جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها فى الشمال وسموا كل برج اسما بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتى فى الشمال هى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والتى فى الجنوب هى الميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت

وتخيلوا من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية اشكالا اخرى وهى التى يتقلب فيها القمر في مدة دورته وقسموها الى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان او ثلاث وهذه هى المنازل — السرطان — البطين — النجم وهو الثريا ـ الدبران ـ الهقعة ـ الهنعة ـ الذراع ـ النثرة ـ الطرف ـ الجبهة ـ الخراتان ـ الصرفة ـ العواء ـ السماك ـ الغفر ـ الزبانى ـ الاكليل ـ القلب ـ الشولة ـ النعائم ـ البلدة ـ سعد الذابح ـ سعد بلع ـ سعد السعود ـ سعد الاخبية ـ فرغ الدلو المقدم ـ فرغ الدلو المؤخر ـ الحوت

وبعد انتهاء الايام الثمانية والعشرين يبتدىء القمر فيعيد التقلب فى هذه المنازل كالمرة الاولى حتى اذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية

وهذه النجوم التى سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية فاذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً وفى كل ثلاثة عشر يوما نوء جديد . وقال بعض علمائهم انه لا يسمى نوءا الا اذا كان معه مطر فان لم يكن مطر فلا نوء واذا نسبوا المطر نسبوه الى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه الى الساقط . وكانت لهم أسجاع محفوظة يضبطون بها ما يتبع النوء من من الحوادث الجوية . مثلا قولهم الصرفة ناب الدهر لانها تفتر عن البرد أو عن الحر فى الحالين . واذا طلعت العواء وجثم الشتاء طاب الصلاء وما ماثل ذلك مما لا حاجة بنا الى الافاضة فيه

فارفعي رأسك فانظري قالت أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها قال ارعي واحذري ثم قال لها بعد ساعة اني لاجد ريح النسيم قد دنا فانظري فقالت أراها كأنها بطن حمار أصحر فقال ارعي واحذري ثم مكث ساعة وقال اني لأجد ريح النسيم فما ترين؟ قالت اراها كما قال الشاعر

دان مسفّ فويق الارض هيدبه ... يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله ... ريط منشرة او ضوء مصباح
فمن بمحفله كمن بنجوته ... والمستكن كمن يمشي بقرواح

قال انجي لا أبالك: فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما

وحاجتهم الى إبلهم كسبتهم بالتجارب قواعد ترجع الى ادواء الابل ومداواتها وإبعاد سليمها من أجربها كيلا يعديه وكان لهم في معرفة ذلك حظ وافر كما أنهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئاً من الطب الانساني ومعرفة امراض الانسان التي تنتابه في الصحراء من أنواع الحمى التي لابد منها لمن يقيم حول مناقع الماء متعرضاً لبرد الليل وحمارّة القيظ. وسموها بأسماء شتى على حسب أنواعها

وكان للكي بالنار في أدويتهم قصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد لامراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الاطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئاً من الطب من حواضر البلاد الاخرى

وحاجتهم الى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اختص بتلك الصناعة نساؤهم فالمرأة ان قالت اني صناع اليد فانما تعني بذلك أنها تغزل

ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والاكسية والخيام الشعرية وكان النسج في حواضرهم واكثر مايكون في بلاد اليمن حتي قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية

وحاجتهم الي ادوات القتال علمتهم صناعة الرماح وافادتهم التجارب معرفة الاشجار اللائق ان تصنع الرماح منها وغير اللائق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط في البحرين ولذلك تنسب اليها فيقال رماح خطية اما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحي العراق والابلة وكانوا يسمون ناحية الابلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الاشتقاق

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون الى حساب إبلهم ومايملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن في البادية حساباً منتظماً بارقام وقواعد تعلم وانما كان حساباً ارقامه الايدي ولهم طرق معروفة في بيان كل عدد

ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهي نوعان الاستدلال بأثر الماشي عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم علي صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكماً في الآثار والانسان كبنى مدلج. وللعرب فى معرفة الاثر اعاجيب لايكاد الانسان يعيرها تصديقاً ولكن الذي يرى مابقي منها بين اعراب السودان لايقف عن التصديق لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك في اظهار الجنايات وفاعليها وقلما يخطئون قال جكسون باشا مدير دنقلا في تقريره لسنة ١٩٠٥

ولمهارة القائفين فائدة كبرى في اكتشاف الجناة والعثور عليهم واليك مثالا من ذلك — في احدى الليالى سرق صندوق سكر من حانوت فى مروى ، وكانت ارض السوق والطرق المجاورة لها مرملة ففحص القائفون المكان في صبيحة اليوم التالى وعثروا على أثر رجلين وحمار فاقتفوه الى أن وصلوا الى اصطبلات الحكومة وهناك عرضوا جميع السواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس اركان الحرب قائلين ان الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمير ايضاً واتضح ان حمار المفتش هو الذي ظهر أثر قدمه فى السوق ، وقد تم تفتيش الاصبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح ان باقي السكر دفن في مكان قريب من الاصطبل ، ولما جيء بالسائسين امام المحكمة اعترفا بجريمتهما وقالا انه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان المفتش

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا ما نسمعه من أعاجيبهم

وكان لهم في النوع الثاني مالا يقل عن الاول يجيئون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا اقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكماً فصلاً قائلا هذه الاقدام من هذه الاقدام ان كان النسب صحيحاً و ينفي هذا النسب ان لم يجد تشابهاً ولا يهمه ان كانا قد اتفقا في اللون او اختلفا فيه

والشريعة الاسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضيه النبي صلى الله عليه وسلم وسر به و بعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم في الانساب اذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله ان العرب كانت أمة تلاحظ ما يرد على حواسها من

الحوادث والاشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها في حياتها ونباهة الأمة أس من آساس رقيها

## دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لاحد أمرين: أما الاول فهو شعور الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه ينزع اليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب

الثاني شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظائم الامور فهو يتخيل ان تلك القوة التي بها تغلب على المصاعب لم تكن الا نتيجة مساعدة مخصوصة من الاله القادر على كل شيء لانه يحبه حباً جماً فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته يرجو بها رضا من خالق العالم الاكبر فان كان حيا فهو الوسيله وان كان ميتا قام قبره مقامه او جعلت له صورة تمثله وقد تكون من حجر أو صفر أو ما شاكل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعطى صاحبها في حياته

وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة او الضارة او لجماد نافع او ضار لأن القوة التي اعطيها وبها ضر ونفع اثر من آثار الخالق الاكبر وقد يصور ذلك الحيوان او يمثل وتجعل صورته او تمثاله مما يقرب من خالق القوي . ويسمون التمثال الذي على صورة انسان من حجر او فضة أو ذهب صنما ، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثناً : الشعور بقوة تتصرف في العالم شيء يكاد يكون طبيعياً في الانسان ولذلك لم يخل منه

بلاد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الانسان وتمثيل القوى المدبرة والاشخاص التي يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع الانسان متدين بالطبع حتي انك لتراه اذا ألحد في دينه وازدراه ينتقل منه حالا إلى عبادة اخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاء الانبياء يدعون الناس الى أفضل الطرق الموصلة الى ارضاء الله ورأسهم ـ بعد حادثة الطوفان ـ هو ابراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس الى توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه مصلحة الناس و يدعي ابراهيم أبا الانبياء لانهم كانوا من ولده

وكانت النبوة في فرعين من ولده : الاول اسحاق ومنه كان جميع انبياء بني اسرائيل وأعظمهم وأبقاهم اثراً موسى وعيسي صلوات الله عليهما وسلامه ودين الاول يسمي باليهودية نسبة الى يهوذا احد أسباط اسرائيل أو السبط الاكبر الذي منه كان جلة الملوك من اسرائيل ودين المسيح: هو النصرانية نسبة الى الناصرة وهي أول قرية علم بها المسيح فقال العرب ناصري ونصراني وكان المسيح عليه السلام يدعي الناصري والفرع الثاني كان منه اسماعيل اخو اسحاق وهو داعية العرب الي دين ابراهيم ، ثم كان منه محمد بن عبد الله صلي الله عليه وسلم وجاء أيضاً مجدداً لشريعة ابراهيم

كان الدينان المنسوبان الى الانبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، فكانت اليهودية في بلاد اليمن واول من دان بها يوسف ذو نواس اتباعاً لدعوة حبرين يقال انهما أتيا مع تبع الحميرى من يثرب وكانت

ايضاً بيثرب وما جاورها من ارض خيبر وتيماء جاءت مع اسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تتوالى على اليهود في الشمال . وكانت النصرانية بنجران في شمالي صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان ، وفي قبائل من طيىء وفي عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين بهذا الدين . الا ان المتدينين من العرب بالدين المسيحي لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقي في نفوسهم لان روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هي السلم والاغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدي ابن حاتم الطائي وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اني على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس في شيء من الدين المسيحي بل ولا اليهودى لان اليهودي يحرق كل ماللوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب

اماسائر العرب فكانت بعد اسمعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوحده الا ان اسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافاً يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار في اجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم او الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها الي المعبود الاعظم ، ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي الى بلاد الشام ورأى مايفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه الى الاقتداء بهم فاخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على

الكعبة التي كان سادنها ودعا العرب تعظيمها فأجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظماء وذوي الأثر الصالح فيهم، أو تمثيل القوى التي يألفونها وهي سبب عظيم في نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا اليها

ومما يؤكد ذلك ماقاله محمد بن هشام بن السائب الكلبي فى وصف (ود) وهو صنم عذرة نقلا عمن شاهده من رجال عذرة: قال كان تمثال رجل كأعظم مايكون من الرجال قد زبر عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل — فهذا يشبه ان يكون تمثال قوة الحرب التي يعظمها العرب —

وكان لهذيل صنم اسمه «سواع» في رهاط من أرض ينبع وكان يعبده من يليه من مضر وله سدنة من بني لحيان — وكان لمذحج وأهل جرش يغوث. واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبده همدان ومن والاها من اليمن — واتخذت حمير نسر، وكان بيد رجل من ذي رعين يقال له معديكرب تعبده حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس وكان لهم أيضا بيت بصنعاء اسمه رئام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً؛

ويظهر ان هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لان نوحاً كان ينهي قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها كما ورد فى الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً)

ومن أوثانهم مناة، وكان منصوبا على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصا الاوس والخزرج

ومنها اللات بالطائف ، وكانت صخرة مربعة فالظاهر انها لم تكن تمثالا وانما كانت أثراً من مكان معظم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزى وكانت بوادمن نخلة الشامية عن يمين المصعد الى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الاصناف عند قريش وكانت سدنه العزي من بنى سليم

ومنها ذو الخلصة ، وكان مروة بيضاء منقوشا عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو الي المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدى خثعم ودوس وبجيلة

وكان على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد ميمني أدركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة

— كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الاحجار لا لاعتقاد أنها آلهة وانما لتقربهم الى الله سبحانه كما قال فى الكتاب (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفي) وكانوا اذا سئلوا عمن خلق العالم وقدر له رزقه يقولون انه الله

٢ — وكانوا يقدمون القرابين وهي الذبائح الى هذه الاوثان والاصنام التي يدعونها النصب والانصاب لانها انصبت للعبادة وقد استعمل الاعشي كلمة النصب مفردا فقال فى كلمته التي يمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه    لعافية والله ربك فاعبدا

ولهم طرق فى توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبنى اسرائيل ما

يشبه هذه الطرق

وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي: فالبحيرة الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها الا ضيف أو يتصدق به أو تهمل لآلهتهم

والسائبة التي ينذر الرجل أن يسيبها اذا برئ من مرضه أو ان اصاب أمراً يطلبه فاذا كان ذلك أساب جملا من أبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بها

والوصيلة التي تلد أمها اثنين في بطن فيجعل صاحبها لآلهته الاناث، منها ولنفسه الذكور، فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون قد وصلت أخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به

والحامي الفحل اذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره فلم يركب ظهره، ولم يجز وبره وخلي فى ابله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك - هذا تفسير ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة في تفسيرها ويظهر أنه لم تكن قبائل العرب متفقة في عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التى نقل عنها الآخر

وقد ورد ذكر هذه القرابين الاربعة في القرآن فقال في سورة المائدة (ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)

وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالازلام: والزلم القِدْح الذي لا ريش عليه، والازلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهي وافعل ولا تفعل، وقد زلمت وسويت ووضعت في الكعبة يقوم بها سدنة البيت

فاذا أراد رجل سفراً او نكاحاً أتى السادن فقال أخرج لي زلماً فيخرجه وينظر اليه فاذاخرج قدح الامر مضي على ماعزم عليه، وان خرج قدح النهي قعد عما اراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابة فاذااراد الاستقسام أخرج احدهما ومعنى الاستقسام بها ان يطلب الانسان ما قسم له من جهتها وكان في الكعبة صنم يمثل ابراهيم وإسمعيل وبايديهما الازلام يستقسمان بها

٥ ومع ما كان للعرب من الاصنام والاوثان فانهم كانوا يعظمون الكعبة ويجلونها فوق اجلالهم لأي معبود آخر لهم يرون انها أثر ابيهم اسماعيل وكانوا يحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بامرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم فكأن الكعبة هي بيت الدين الاكبر وسدنته والقوام بامره هم حفاظ الدين وهذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلي أمراً من الامور الدينية بمكة .

وقد كانت قريش ارادت أن تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلها وشرفهم فقالوا نحن بنو ابرٰهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها فليس لاحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فانكم ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ماعظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يقرون ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ويرون لسائر العرب ان يقفوا عليها وان يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم اياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا

معهم في ذلك وسموا انفسهم ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا لا ينبغي للحمس ان يأتقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلوا ـ ان استظلوا ـ الا فى بيوت من الأدم ما كانوا حرما ثم قالوا لا ينبغي لاهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل الى الحرم اذا جاؤا حجاجاً، او عماراً ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا في ثياب الحمس، فان لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة، فان تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها اذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً: وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقى فحملوا على ذلك العرب فدانت به

وقد نبه القرآن على ذلك بطريق الاشارة ـ فقال عن الاول ( ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ) وقال عن الثانى ( يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ) وقال ( قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق )

﴿ المحاضرة السابعة ﴾

النسيئ ــ الموحدون من العرب ــ المولد النبوي ــ الحال قبل النبوة

كان تحريم الاشهر الحرم يعلن في مكة كما كان يعلن فيها النسيئ:

والنسئ كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أي أخرت وأجلت ورجل ناسئ من قوم نسأة قال في لسان العرب: وذلك ان العرب كانوا اذا صدروا من منى يقوم رجل من كنانة فيقول انا الذي لا اعاب ولا أخاب ولا يرد لي قضاء فيقولون صدقت أنسئنا شهراً: أي اخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر واحل المحرم لانهم كانوا يكرهون ان يتوالى عليهم ثلاثة اشهر حرم

لا يغيرون فيها الان معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم ، فذلك الانساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان

السنا الناسئين على معد؟ شهور الحل نجعلها حراما

وزاد عليه ابو علي القالي في اماليه فسمي الناسئ نعيم بن ثعلبة وقال في آخر عبارته فاذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً — وروى قول الشاعر

وكنا الناسئين على معد شهورهم الحرام الى الحليل

وقال ابن هشام في سيرته: والنسأة الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الاشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من اشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيه انزل الله تعالى ( انما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله ) ومعني ليواطئوا ليوافقوا وكان اول من نسأ الشهور على العرب — فأحلت منها ما احل وحرمت منها ماحرم — القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد الى ان كان آخرهم عوف ابو ثمامة وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فحرم الاشهر الحرم الاربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فاذا اراد ان يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الاربعة الاشهر الحرم فاذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال اللهمّ إني قد أحللت لهم احد الصفرين الصفر الاول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال في ذلك عمير بن قيس جذل الطعان أحد بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنساة على العرب

لقد علمت معد أن قومي كرام الناس ان لهم كراما
فأي الناس فاتونا بوتر وأي الناس لم نعلك لجاما؟
ألسنا الناسئين على معد؟ شهور الحل نجعلها حراما

على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخلص لما كان يجري من النسيء قبل الاسلام الا أن بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفي سنة ٢٧٢ فسروا النسيء عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذي استعمله العبرانيون في سنتهم القمرية فانهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم يعتبر بالهلال، ومعنى كونها شمسية انها بالكبس أو هذا النسيء تكون مطردة مع دورة الشمس بحيث لا يكون الشهر العربي الا في فصل معين لا ينتقل عنه ولا يتغير كما هو الحال في الشهور الرومية والقبطية التى لا ارتباط لها بدورات القمر ، وقد تابعه على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفي صدرهم محمد بن أحمد البيروني المتوفي سنة ٣٣٠ ومنهم المسعودي الذي قال في مروج الذهب: وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله ( إنما النسيء زيادة في الكفر ) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخي العرب اختلاف بين الاجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسيء عند العرب بما فسره به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب، ومنهم من اختار التفسير الثاني: وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة في ذلك العالم الفلكي محمود باشا الشهير بالفلكي في رسالة

له سماها نتائج الافهام في تقويم العرب قبل الاسلام أبان فيها ان العرب قبل الاسلام لم تكن تستعمل في تقويمها الا السنة القمرية المحضة ولم يكن النسيء عندهم الا بالتفسير الاول وأظهر ان الخطأ في ذلك واقع فيه لاول مرة أبو معشر (١) وتبعه البيروني (٢) ثم من بعدهما ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لا تبقي مجالا للريب فليراجعها من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت النسيء في كتابي نور اليقين بما فسره به

ولما تبين لي وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بأنه زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله — والنسيء بالتفسير الاول نتيجة هوى نفسي وتلاعب بما كانوا يسمونه دينا وشريعة فقد كانت أربعة الاشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعتهم حاجتهم التي هي غارات وحروب الى احلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالاشهر المعينة فهم يحلون أحد الاشهر عاما ويحرمونه عاما ليتفق التحريم مع العدد المشروع وهذه الاهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، اما النسيء بالتفسير الآخر فلا يعدو أن يكون نظاما ثابتا انتهجوه في تقويمهم لبقاء الاشهر العربية متفقة مع دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الاحلال عاما والتحريم عاما لمواطأة عدة ما حرم الله وإنما هو نظام ثابت لا يكون مجالا لتلاعب النسأة بدينهم

---

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر البلخي توفي سنة ٢٧٢

(٢) هو أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي المتوفي بعد سنة ٣٣٠

ومن الغريب ان المسعودي نفسه وهو الذى زعم ان العرب كانت تكبس قال في تفسير الربيعين: انما سميا بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ثم قال فان قيل قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت قيل قد يمكن ان يكون هذا الاسم لزمهما في ذلك الوقت فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون - كما قال - لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لان الشهور العربية ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية، فالحق ان النسيء عند العرب كان عملاً يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعاً للاهواء لا لنظام معين

على ذلك كانت أديان العرب في جاهليتهم الا انه كان هناك أفراد منهم لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون ان هناك حقيقة غابت عنهم وان طرقهم التي هم عليها لا توصلهم الى الله ويقولون في أنفسهم ما معني التوصل الى الله بحجارة لاضر فيها ولا نفع ؟!!

وممن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر - ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم: فالقرشيون ورقة بن نوفل الاسدي من أسد بن عبد العزى ابن قصي وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي من عدي بن كعب، وعثمان بن الحويرث الأسدي من أسد بن عبد العزى، والرابع عبيد الله بن جحش الأسدي من أسد ابن خزيمة وأمه أميمة بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لاحد أصنامهم فقالوا: تعلمن والله ما قومكم على شيء!! لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم! ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع يا قوم التمسوا لانفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم

فأما ورقة فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب

وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم وبادى قومه بعيب ما هم عليه وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول يامعشر قريش والذى نفس زيد بيده ما اصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري ثم يقول اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يبعث امة وحده وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده،

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ماهو عليه من الالتباس حتى جاء الاسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته ام حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى مات هناك نصرانياً

وكانت لاتزال كهان العرب وذوو الاسجاع منهم يهتفون بذكر نبي حان مبعثه ولا يبعد ان أخبارهم هذه انما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاؤا من السجع الذي امتازوا به في ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر في ذلك الوقت نبياً يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوئهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج الذين كانوا ظاهرين عليهم

وغالبين على امرهم اذا اشتبكوا في حرب وقد روي ذلك عن بعض الانصار

من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الاسلام في حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب، ولكنها لم تكن حركة منتجة لانها لم تؤد الى شيء ما من التغيير في عبادة الاوثان، ولا الي شيء من اصلاح أحوال العرب العامة ولكنها جعلت في الانفس شيئا من الاستعداد لقبول الاصلاح الاسلامي

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها، وله أولاد أشراف عظماء، منهم أبو طالب وعبد الله وحمزة وعباس وأبو لهب وعبد المطلب ذو السن من بيت عبد مناف الذي هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبد الله آمنة بنت وهب وهي من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش فبنى بها عبد الله في مكة وبعد قليل خرج تاجراً الى الشام فلما وصل المدينة -وبها أخواله من بني النجار- أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم وانما كان بنو النجار أخواله لان منهم أم أبيه عبد المطلب

وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الاول لاول عام من حادثة الفيل -ولاربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان: ويوافق العشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا- ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم بمكة، ولما ولدته أمه ارسلت الى جده عبد المطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار للمولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفا عند العرب ولم يمر على نظرنا فيما قرأناه:

من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم الا اسم واحد لاحد اشراف تميم وهو الاب الخامس للفرزدق التميمي الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون ان اختيار هذه التسمية انما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بحب لهذا المولود من المستقبل المنتظر لما كان يدور اذذاك على الالسنة من قرب بعثة نبي منتظر من العرب ·

وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب ان يلتمسوا المراضع لاولادهم في البادية لامرين (الاول) انهم يبتعدون في البوادي عن امراض الحواضر التى كثيراً ما تصيب الاطفال وهناك تقوى اجسامهم وتشتد اعصابهم لما في هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن (الثاني) انهم يتقنون اللسان العربي في مهدهم عن البدو وهم أجهر صوتاً وأسلس عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبدالله امرأة من بنى سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليمة بنت أبي ذؤيب وزوجها هو الحرث بن عبد العزي المكنى بأبي كبشة من قومها فأقام مسترضعاً فيهم قريبا من أربع سنوات ثم ردته إلى أمه بعد ذلك فأقام معها بمكة

كانت لآمنة عادة مذ توفي زوجها عبدالله بالمدينة ان تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما هي راجعة اذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالابواء بين مكة والمدينة فعاد عبد المطلب بحفيده وكان يحبه حبا جماً : قال ابن هشام كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له فكان رسول

الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام صغير حتي يجلس عليه فيأخذه اعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب - اذا رأي ذلك منهم - دعوا ابني هذا فو الله ان له لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره مايراه يصنع

ولثماني سنوات من عمره توفي بمكة جده عبد المطلب وأوصي به قبل وفاته الى أبي طالب عمه شقيق أبيه فان ابا طالب والزبير وعبد الله أولاد عبد المطلب كانت امهم جميعا فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية

ولتسع سنوات من عمره - حسب رواية ابن هشام - او ثلاث عشرة - خرج ابو طالب الى الشام تاجراً واخرجه معه حتي وصلا بصرى وهي معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان وكان في هذا البلد على ماننقله من كلام مؤرخي العرب راهب اسمه بحيرا في صومعة له فكان له حديث مع ابي طالب حينما رأى معه ابن اخيه وأشار عليه ان يرجع به خوفاً عليه من عدو يترصده وأخبره ان له شأنا فرجع به ابو طالب الى مكة وقد اطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبرى في كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيراً عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذكر اساقفة الشام وبصري والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن امية لمكانته فيهم سنا وشرفاً وكان رئيس بنى عبد المطلب الزبير بن عبد المطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبد الله وكان ينبل على عمومته اي يجهز لهم

النبل للرمي . وحدث بعد ذلك تداعي قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم و بنو المطلب و بنو أسد ابن عبد العزي و بنو زهرة بن كلاب و بنو تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها او من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته وتم ذلك الحلف فى دار عبد الله بن جدعان التيمي وشهده سيدنا محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب ان لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الاسدية من بنى أسد بن عبد العزي وكانت سيدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهورا في قومه بالامانة حتي كانوا يسمونه بالامين فعرضت عليه ان يسافر الى الشام بمالها وارسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتي أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عادا الى مكة ويروي ابن جرير الطبرى عن ابن شهاب الزهري ان هذه الرحلة التي ذهب فيها بتجارة خديجة انما كانت الى سوق حباشة باليمن لا الى الشام والرواية الاولي أشهر

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الامين ان يتزوجها فرضي وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة اقامت معه منها خمسا وعشرين وهي أم أولاده جميعاً ماعدا ابراهيم الذى ولد له بالمدينة فانه من مارية القبطية التى كانت من قرية حفن من كورة انصنا

وكانت خديجة من افضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً ولها في تاريخ الاسلام اجمل ذكر واصدقه وسيتضح بعد

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فانها كانت رضيمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد بن المغيرة المخزومي وتبعه الناس لما رأوا انه لم يصب الوليد شيء ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا الى اساس اسماعيل ثم شرعوا في البناء على قواعده والذي تولى البناء بناء رومي اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن اتمامها على قواعد اسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو آمن ستة اذرع وصعدوا بها في الجو حتي اذا وصلوا الي الي مكان الحجر الاسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم احد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله فطلب رداءاً ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء ان يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم ان يرفعوه حتى اذا حاذى موضعه اخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجباً لرضاهم وابتعاد الشحناء من انفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريباً يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذي فيه الحجر الاسود والمقابل له ١٠،١٠ م والحجر موضوع على ارتفاع ١،٥٠ م من ارضية المضاف والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢م وبابها على ارتفاع مترين من الارض ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء اسفلها متوسط ارتفاعها ٠،٢٥ م ومتوسط عرضها ٠،٣٠ م وتسمى بالشاذروان وهي من اصل البيت ولكن قريشاً تركتها واستظهر محمد ايبب بك

البتانوني فيما كتبه عن الكعبة في رحلته الحجازية التي اقتطفنا منها هذه المعلومات ان هذا الاسم محدث أما في عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج ابن يوسف

وللكعبة اربعة أركان: الشمالي واسمه الركن العراقي والغربي واسمه الشامي والجنوبي واسمه اليماني والشرقي واسمه ركن الحجر لان الحجر فيه وهو حجر صقيل بيضاوي غير منتظم ولونه اسود يميل الى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التي كانت انفصلت منه وقطره نحو ٠،٣٠ م والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة الحائط الشمالي الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتي البيت ويبعدان عنها ٢،٣٥ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه ١،٥٠ م ومسافته ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ٨،٤٤ م وهذا الفضاء يسمونه حجر اسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في بناء ابراهيم ويقال ان اسماعيل وهاجر امه مدفونان في الحجر

السيرة الادبية قبل النبوة

اتفق جميع المؤرخين ان سيدنا محمد بن عبد الله كان في قومه ممتازاً (١) بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والامانة حتى سموه الامين وكانوا يودعون (٢) عنده ودائعهم وأماناتهم . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ✓ ولا يحضر للاوثان عيداً ولا احتفالاً بل كان من أول نشأته نافراً من ✓ هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لان اباه لم يترك له من الثروة الا شيئاً قليلا وكان عمله حين شب التجارة ولما تزوج خديجة

كان يعمل بمالها ويشركها في الذبح وكان يشارك غيرها أحياناً ولم يكن يقرأ ولا يكتب

ولا بد لنا هنا من ذكر مسئلة وضعها الاصوليون من علماء المسلمين في موضع البحث وهي هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الائمة منهم ان هذه مسأله من اختصاص التاريخ لا من اختصاص اصول الفقه

فقال جمهورهم انه لم يكن مكلفاً باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية واستدلوا بانه لو كان مكلفاً بشريعة لقضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة ليأخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لانه لو حصل ذلك لتوفرت الدواعي على نقله ولم ينقل شيء من ذلك

وتوقف في الرأي بعض الائمة كالغزالي وشيخه امام الحرمين والآمدي لانهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم في مثل تلك المسألة ؟؟

وقال بعضهم انه كان متعبداً بشريعة ولكن ماهي تلك الشريعة

اختلفوا في تعيينها فمن قائل انها شريعة آدم أو نوح أو ابراهيم أو موسى أو عيسى صلوات الله عليهم أجمعين وهو اختلاف يدل على ان أصحاب هذا الرأي ليسوا مرتكزين على دليل قوي يعضدهم وانما هي مجرد أفكار

واختار الكمال ابن الهمام من الاصوليين مذهباً مبهماً وهو انه متعبد بما ثبت انه شرع اذ ذاك الا ان تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالاخير فان لم يعلم الاخير فهو متعبد بما يركن اليه منهما واستدل على ذلك بان التكاليف لم ينقطع من بعثة آدم عموماً وخصوصاً ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأهل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به وقال ان هذا الدليل يوجب التعبد في غيره

وتخصيصه بالبحث أمر اتفاقي والذى نراه ان الفيصل فى مثل هذه المسئلة انما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين لان مثل هـذا الرأي يلزمه ان الانسان مطلوب منه ان يتطلب جميع الشرائع الماضية التي سبقت ويعبد الله بما يثبت انه منها ويرجح بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع انه عليه السلام فعله حتى كنا نقول انه أدى ما كلف به والتاريخ يثبت انه قبل نبوته رفض الاوثان وعبادتها والتقرب اليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويلتزم مكارم الاخلاق التي في مقدمتها الصدق والامانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد في غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذي على يسار السالك الى عرفه وعبادته فيه لم تكن الا فكراً في خالق الكون الاعظم وكان يتعبد فيه عبد المطلب وقال المؤرخون انه أول من تعبد فيه

ولم يعلم عنه انه كان يراعي الطرق التفصيلية للعبادات في الشرائع التي سبقته ولم يكن قبل نبوته وصل الى الحقيقة في أمر الخالق جل ذكره والى ذلك الاشارة في الكتاب (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) وقال فى سورة الضحى مما امتن به عليه (ووجدك ضالاً فهدى) والضلال الحيرة والهداية النبوة

## المحاضرة الثامنة

## البعثة ـ الوحي ـ الدعوة السرية ـ الجهر بالدعوة
## ما كان من قريش — هجرة الحبشة

### البعثة

الذين يختارهم الله لاصلاح الامم يلقي اليهم ما يريد ان يبلغوه عنه بالوحي.
والوحي ـ في لغة العرب ـ اعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة ان.
هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبني عليها تلك النتيجة
بل هي اشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال.
وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن، وفي لسان العرب لغير اعلام الله
لانبيائه فقال تعالى (واوحي ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً
ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من الثمرات فاسلكي سبل ربك
ذللا) وقال (واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في
اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) وقال
مخبراً عن يوسف في صغره (واوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم
لا يشعرون) وكل هذا لا يعدو معنى الالهام الذي ربما شعر به كثير من الناس.
اما اعلام الله انبياءه المختارين فان العبارة العلمية تضيق عن تحديد
كنهه وغاية ما يمكن الانسان هو ان يحوم حوله مستعيناً بما قاله الانبياء
انفسهم فيما نزل على السنتهم ليقتطف منها ما يقرب ذلك الى العقل الانساني.
هذا الاعلام له مراتب

الاولى ان يخاطب في النوم وتلك هى الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً في التوراة والقران وكتابات الرسل وتعبر التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب الى ابرام فى الرؤيا قائلاً الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان ابراهيم صلوات الله عليه مخاطباً لابنه الذبيح (يابني اني ارى في المنام اني أذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الانبياء حق ونحن معاشر الانبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا

المرتبة الثانية ان يلقي مايراد القاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك هو المسمي بالالهام والالقاء في الروع ويسمي بعض فلاسفة المسلمين القوة التي تحدث بالخير وتلقيه فى النفس ملكاً على العكس من القوة التي تحدث بالشر وتلقيه فى النفس فانه يسميها شيطاناً ولفلاسفة المسلمين غرائب في كلامهم عن الملائكة والشياطين. وقديستروحون بقوله تعالى في الكتاب (نزل به الروح الأمين على قلبك)

المرتبة الثالثة ان يرسل الله اليه رسولاً يخبره بما يريد اعلامه اياه وهو المسمي بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) ويظهر هذا الملاك للانبياء فى التوراة كثيراً

المرتبة الرابعة ان يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسي عليه السلام حينما سمع الصوت من العليقة المتقدة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسي اذ رأى ناراً فقال لاهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى فلما

اتاها نودى ياموسى اني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي )

هذه هي المراتب التي عرف ان الوحي يبلغ قلوب الانبياء فيها ، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز المعاني في القلب بحيث يعلم المخاطب علماً ضرورياً أن ذلك من الله ، وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيء من جنسها لمن فني فكرهم في أمر أو حادثة فانك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتي لقد تحدثه فلا يسمع ويتصبب من جراء ذلك عرقاً ، ولسنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض وانما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب الى الانفس ما لا نحس به وليس في مكنتها أن تدرك حقيقته : اذا كان الفناء في مسألة أو حادثة يجعل الانسان على نحو ما وصفنا لكم فكيف بالفناء في الاله ؟ انا لا استغرب ما قرأته في بعض الكتب ان صوفيا لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر ، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به ! لأني اعلم ان الجندى يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به و يمضي لشأنه حتي اذا تمت الموقعة و رجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه الى أمر جسمها احست بالالم : كل هذا يفهمنا ما يكون من الانبياء عند الوحي من غيبتهم عمن بحضرتهم من الناس حتي لا يحسون بأحد

سئل رسول الله صلي الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ فقال احياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، واحياناً يتمثل لى رجلا فأعى ما يقول

ومما روي انه كان يكابد من التنزيل شدة حتي انه كان يوحى اليه

في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلاً تكلم فيه على الوحي والرؤى ولكن قلما يظفر الانسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب

كان أول ما بدئ به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح : كما رواه البخاري من حديث عائشة

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته اذ جاءه الوحي وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والاربعين من ميلاده فيكون عمره اذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و ٨ ايام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام : وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ : ولا معنى للاختلاف في تحديد اليوم بالتقويم العربي بعد أن أشار اليه الكتاب اشارة ظاهرة لا تخفى على من له إلمام بالتاريخ فقد قال ( ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقي الجمعان ) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله (١) علماً لاول يوم نزل

---

(١) جرت العادة في التعبير أن يجعل اليوم المعين عدده محلاً لكثير من الوقائع مع انه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه أهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلاً لنزول الفرقان اول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحدا بالشخص وانما هو واحد بكونه ١٧ رمضان . وتدبر الآية يبين انه لا يصح ان يراد منها غير هذا . لان الذي فرق الله به بين الحق والباطل انما هو اختيار الله محمداً لان يبلغ عنه الى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين في موقعة

فيه القرآن . وليلة نزول القرآن هي التي قال فيها الكتاب ( انا أنزلناه في ليلة القدر ) وقال ( انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منزلين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم ) وهذا هو السبب في تخصيص الاسلام شهر رمضان بالصيام لانه هو الشهر الذى كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء و نزل عليه القرآن فيه لاول مرة ( شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان ) وجعلت نهايته عيداً تذكاراً لذلك الأمر العظيم و وجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك اذا تنبه اليه الانسان أبعده عن كثير من التعاليم التي تلقى الى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحي بما اخبر به الرسول عن نفسه قال فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ما أقرأ قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ! ثم أرسلني فقال اقرأ قال قلت ماذا اقرأ ؟ قال فغتني به حتي ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال فقلت ما اقرأ ما أقول ذلك الاَّ افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال ( اقرأ باسم ربك الذي خلق : خلق الانسان من علق : اقرأ و ربك الاكرم : الذي علم بالقلم : علم الانسان مالم يعلم )

قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً فخرجت حتى اذا كنت في الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول

---

مما يرتقى الي تلك الدرجة ومن هنا يعلم ماوقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكي من الخطأ حيث جعل الرسالة فى ربيع الاول الذى يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذي اوقعه في الخطأ ما فى بعض الروايات من انه عليه السلام بعث على رأس الاربعين

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي الى السماء أنظر فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر اليه فما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا اليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً الى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست الى فخذها مصغياً اليها فقالت يا أبا القاسم أين كنت ؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو ان تكون نبي هذه الامة ، ثم قامت فجمعت (١) عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل فاخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقه قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسي وانه لنبي هذه الامة فقولي له فليثبت ، فرجعت خديجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قال ورقة فلما قضى عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذى نفسى بيده إنك لنبي هذه الامة ، ولقد جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسي ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا ادركت ذلك اليوم لانصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدني رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله

---

١) هذه رواية ابن هشام

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كاف به الان أن يحمل أعباءه التي لا يحتملها الا أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه

ومما يزيد هذا العبء ثقلا وشدة أنه ابتدئ تحمله في مكة وهي مركز دين العرب ، وبها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والاصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول الى المقصود من الاصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالامر يحتاج الي عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث

كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة — الى هذا الدين — في بدء أمرها — سرية لئلا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم — ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد — فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه . يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحري الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الاسلامي بالسابقين الاولين ، وفى مقدمتهم خديجة بنت خويلد زوجه ، وزيد ابن حارثة بن شرحبيل الكلبي ، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد ابن محمد وعلى بن أبي طالب وكان يعيش في بيت رسول الله تخفيفاً عن أبي طالب لما كثر ولده وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي ، وكان أبو بكر محبوبا في قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد ايمانه نفراً ، ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموى والزبير بن العوام الاسدى ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان وطلحة بن عبيد الله التيمي ، ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث ابن فهر ، وأبو سلمه عبد الله بن عبد الاسد ، والارقم بن أبي الأرقم المخزوميان

وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلبي وسعيد بن زيد العدوى وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الاولون وهم من جميع بطون قريش، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم الي الدين مستخفياً في دار الارقم بن أبي الارقم المخزومي بمكة - لان الدعوة كانت لاتزال فردية، وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولكنها غير معتني بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي !!!

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه في خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المدة أمر ان يجهر بالدعوة الى الدين بقوله تعالى في سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) فأعلن لقومه الدعوة الى الله وتوحيده، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها اوجعلها بينه وبين الله الى الضلال وجر ذلك الى تضليل آبائهم ، فانهم كانوا يحتجون عليه دائما بانهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم وتلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية الى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة

لم يكن هناك بد من ان تكون له حماية تمنع عنه ما عسى ان يرميهم به اعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم ، وكان عمه ابو طالب سيد بيته وله الحق - بحسب الاصول العربيـة - ان يجير ! فان فعل كان التعدى على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره: وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الاطلاق : فحدب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضي الرسول لشأنه في الدعوة والجهر بما ينزل عليه

من الوحي

لما رأت قريش انه صار في منعة بجوار أبي طالب مشي رجال من أشراف قريش اليه يطلبون منه ان يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم او يخلي بينهم وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلا فانصرفوا عنه . ولما رأوا ان هذه الوفادة لم تفدهم شيئاً تذمروا وحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا إلي أبى طالب مرة ثانية قائلين إنهم لايصبرون على هذه الحال !! وخيروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له ياابن أخي ان قومك جاؤوني وقالوا لي كذا وكذا فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر — حتي يظهره الله أو أهلك دونه — ماتركته ثم استعبر وبكي ، فلما ولي ناداه أبو طالب فقال أقبل ياابن أخي فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل مااحببت فوالله لاأسلمك لشيء أبداً

فلما رأت قريش ان اباطالب قد ابي خذلان ابن أخيه مشوا اليه بعمارة ابن الوليد، وقالوا اله ان هذا الفتى انهد فتي في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك واسلم الينا ابن اخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فانما هو رجل برجل : فقال لهم ابو طالب لبئس ماتسومونني اتعطوني ابنكم اغذوه لكم واعطيكم ابنى

تقتلونه ؟! ولما رأى ابوطالب تألب قريش عليه قام في اهل بيته بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف وقد كان هاشم والمطلب من ام واحدة ، دون اخويهما عبد شمس ونوفل - ودعاهم الى ماهو عليه من منع ابن اخيه والقيام دونه ، فأجابوه الى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربي الا ما كان من اخيه ابي لهب فانه فارقهم وكان مع قريش ، ولا ادري افضل حميته على لدينه على حميته لشرف اخيه ام كانت هناك اسباب أخري أدت الي هذا الانفصال ؟ ولا اظن ان كونه من ام اخرى غير ام ابي طالب يدعوه الى مثل ذلك لان هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير في قلوب العرب بين الاخوة لان العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شيء ، ولا يبعد عندى ان زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه الى مثل هذا ، لان ام جميل كانت من ألد اعداء رسول الله حتى انها كانت تذيع عنه الاكاذيب في مجامع النساء نتشعل بتلك الاكاذيب نار العداوة في قلوبهن : ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لانه هو الذى يؤجج النيران ، ولذلك ذكرت في السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة رأت قريش انه لابد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد حتى لا يكون لدعوته اثر في انفس العرب فاجتمعوا يتداولون في تلك الكلمة لانهم اذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضاً فان ذلك يضعف من قولهم عند سائر العرب : فقال واحدمنهم نقول كاهن ! فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو

ذو السن فيهم ماهو بكاهن لقد رأينا الكهان ! وماهو بزمزمة الكاهن ولا سجعه : فقال آخر نقول مجنون : فقال الوليد ما هو بمجنون ! لقد رأينا الجنون وعرفناه ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته : فقال آخر نقول هو شاعر : فقال ماهو بشاعر ! لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ! فقال آخر نقول ساحر : قال ماهو بساحر ! لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولاعقدهم : قالوا فما تقول أنت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وان فرعه لجناة (١) ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً الاعرف أنه باطل وإن اقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وابيه و بين المرء واخيه و بين المرء وزوجه و بين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لايمر بهم احد الا حذروه اياه وذكروا له امره وصدرت العرب من ذلك الموسم بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها

ولما خشي ابوطالب دهماء العرب ان يركبوه مع قومه قال قصيدته المشهورة التي تعوذ فيها بحرم مكة و بمكانه منها وتودد فيها اشراف اهل بيته من بني عبد شمس ونوفل ، وهو على ذلك يخبرهم انه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشيء ابداً وفيها يقول

كذبتم ـ وبيت الله ـ نترك مكة ... ونظعن الا امركم في بلابل

كذبتم ـ وبيت الله ـ نبزى محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتي نصرع حوله ... ونذهل عن ابنائنا والحلائل

وفيها يقول

فوالله لولا أن أجيء بسبة تجر على أشياخنا في المحافل
لكننا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لامكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا الى الفتنة(١) . فمن جهة الرسول أغروا به سفهاءهم وهم العدة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحاً فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لأمر الله لايستخفي منه مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه اياهم على كفرهم لايبالى بما يصنع سفهاؤهم معه

وأما من جهة من اتبعه فان كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالاسلام أنواعاً من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب . ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه - وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه من سوء العذاب - قال لهم لو خرجتم الى الحبشة فان بها ملكا لايظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ففروا إلى الله بدينهم ، وهذه كانت أول هجرة في الاسلام وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج

(١) يقال فتنت الفضة والذهب اذا اذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد واستعملت فى الابتلاء والامتحان والاختبار - والمراد بها فى لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه

معهم من اولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش

فلما وصلوا الى الحبشة اكرم النجاشي مثواهم واعلنوا هناك عبادتهم لا يخشون شراً ، فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمئنون في منزلهم الجديد!! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا الي النجاشي ويطلبا منه ردهم الي بلادهم وارسلوا معهما هدايا له ولبطارقته وهذان الرجلان هما عبد الله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص فلما وصلا الي بلاد الحبشة واتحفا البطارقة والنجاشي بالهدايا قالا له ايها الملك قد ضوى الي بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاؤا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشيرتهم لتردهم عليهم فهم اعلى بهم عيناً واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر ان هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم في هذه الرسالة فان السيدة ام سلمة احدى المهاجرات وراوية هذا الخبر تقول ولم يكن شيء ابغض الى عبد الله بن ابى ربيعة وعمرو بن العاص من ان يسمع كلامهما النجاشى ؛ فلما اديا الرسالة قال النجاشي لاها اذاً لا اسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادى واختاروني على سواى — حتى ادعوهم فاسألهم عما يقول هذان في امرهم ؟ فان كان كما يقولان اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهم واحسنت جوارهم ما جاوروني ، ثم ارسل الى جماعة المهاجرين فجاؤا فقال لهم ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا في دين احد من هذه الملل فكلمه جعفر بن ابى طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة

الاسلامية وما امر به الرسول من ترك عبادة الاوثان والرجوع الى الله وما وصاهم به من مكارم الاخلاق : ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ له صدراً من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشى هذا والذى جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا : فلا والله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون : : فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم ! فقال له عبدالله لا تفعل ! فان لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا قال والله لأخبرنه انهم يزعمون أن عيسي بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشي فقال أيها الملك انهم يقولون فى عيسي بن مريم قولا عظيما فسلهم عنه فطلبهم النجاشي ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو ؟ فقال جعفر نقول فيه الذى جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول فضرب النجاشي بيده إلى الارض فأخذ منها عوداً ثم قال والله ما عدا عيسي بن مريم مما قلت هذا العود، فأغضب هذا القول منه بطارقته ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فأنتم شيوم — ومعني هذه الكلمة بالحبشية آمنون ، وردعلى الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة — قبل الهجرة إلي المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة وسيذكر خبرهم بعد

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران

بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي كان قبل أن يسلم من أعظم المعارضين للاسلام والمنتقمين ممن أسلم

ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ماروته أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت : والله انا لنترحل الى أرض الحبشة اذ أقبل عمر بن الخطاب حتي وقف علىّ وهو على شركه قالت وكنا نلقي منه البلاء أذي لنا وشدة علينا قالت فقال انه الانطلاق يا أم عبد الله قالت فقلت : نعم والله لنخرجنّ فى أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً قالت فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم اكن أراها ثم انصرف وقد احزنه — فيما أرى — خروجنا قالت فجاء عامر ( تعني زوجها ) فقلت له يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت فى اسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال فلا يسلم الذي رأيت حتي يسلم حمار الخطاب ، قالت يأسا منه لما كان يري من غلظته وقسوته على الاسلام ،

## المحاضرة التاسعة

فى مقاطعة قريش لبنى هاشم والمطلب — هجرة الطائف — العرض على قبائل العرب واجابة الأنصار — البيعة — الهجرة

رأت قريش ان حيلهم قد نفدت فرسول الله منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب - مسلمهم وكافرهم - والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا الى حيلة اخري وهي مقاطعة بنى هاشم والمطلب: فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توكيداً على انفسهم

بذلك ، فانحازت بنوا هاشم والمطلب الى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه فاجتمعوا اليه وخرج منهم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم.

أقام أبو طالب فى الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون اشد الجهد من مقاطعه قريش لهم ، والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعوهم ليلا ونهاراً سراً واعلاناً منادياً بأمر الله لايتقى فيه أحداً من الناس

كان في رجالات قريش من تأثر لحال بني هاشم وبنى المطلب وأعظمهم فى ذلك أثرا كان هشام بن عمرو ، من بنى عامر بن لؤي وكان ابن أخى نضله بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف في قومه فمشي الي زهير بن أبي أمية من بنى مخزوم ، وقال له يازهير : أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم! أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل مادعاك اليه منهم ماأجابك اليه أبداً !! قال ويحك ياهشام انما انا رجل واحد والله لو كان معي آخر لقمت في نقض الصحيفة حتي انقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟ قال انا قال زهير ابغنا رجلاً ثالثاً فذهب الى مطعم بن عدي وهو سيد بيت نوفل بن عبد مناف فقال له مطعم أقد رضيت ان يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه اما والله لئن امكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سراعا قال ويحك ماذا أصنع فانما انا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانياً قال من هو ، قال انا قال ابغنا ثالثاً قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبى امية قال ابغنا رابعاً فذهب

الي ابى البخترى بن هشام فقال له نحواً مما قال لمطعم واعلمه بما اتفقوا عليه : فقال ابغنا خامساً فذهب الى زمعة بن الاسود من بنى اسد ابن عبد العزى فكلمه وذكر له قرابة بنى هاشم والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الامر الذي تدعوني اليه من أحد ! قال نعم : وسمى له القوم فاتعدوا حطم الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير أنا أبدؤكم : فلما أصبحوا اغدوا الى أنديتهم وغدا زهير بن أبي أمية وعليه حلة نطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب و بنوهاشم والمطلب هلكي لايباعون ولا يبتاع منهم؟!! والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة ، فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لاتشق ، فقال زمعة أنت أكذب مارضينا كتابتها حيث كتبت ، قال أبو البختري صدق زمعة لانرضى ماكتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير ذلك ! نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، وقال هشام ابن عمرو نحواً من ذلك : فقال أبو جهل هذا أمر قضى بليل تشورتم فيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الارضة قد أكلتها الا باسمك اللهم

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم فى ازدياد من قريش ومن غيرهم ، ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب الرسول بمصيبة عظيمة وهي وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد في يومين متقاربين فى شهر شوال ،

وكانت خديجة له وزير صدق على الاسلام يشكو اليها وكان عمه عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصراً على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول مالم تكن تطمع فيه في حياة ابى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا

رأى الرسول أنه لابد له من عضد يوازره ويدفع عنه أذي قومه حتى يؤدى رسالة ربه فذهب الى الطائف ـ وبها بطون ثقيف ـ وعمد الى أشرافهم وذوى الرئاسة منهم وهم اخوة ثلاثة عنديا ليل ومسعود وحبيب ابناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس اليهم ودعاهم الى الله وكلمهم بما جاء له من نصرة الاسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثتهم رداً قبيحاً ، فيئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه الى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ولما قدم مكة أرسل الى المطعم بن عدى يخبره انه يدخل مكة في جواره فأجابه الى ذلك ثم تسلح المطعم واهل بيته حتى اتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله ان ادخل فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف الى منزله ففي ذلك يقول حسان بن ثابت في رثاء المطعم لما توفى

اجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك مالبي مهل واحرما

كان الرسول يقوم في مواسم الحج داعياً من اقبل الى مكة من سائر العرب ويقرا عليه القرآن ويطلب منهم ان يقوموا دونه حتى يؤدى رسالة ربه فكانوا لايجيبونه الى ذلك ، ومنهم من يرد عليه رداً قبيحاً :

عرض ذلك على بني عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الامر من بعدك قال الامر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا اظهرك الله كان الامر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ! وعرض ذلك على بنى حنيفة من ربيعة فلم يكن احد اقبح رداً منهم

في ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين الاوس والخزرج ، وكانت الخزرج اكثر عدداً ففكر الأوس انهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بنى عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفداً فيهم ابو الحيسر أنس بن رافع واياس بن معاذ فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس اليهم وقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا وماذاك ، قال أنا رسول الله بعثنى إلى العباد ادعوهم الى ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وانزل على الكتاب ثم ذكر لهم الاسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال إياس بن معاذ — وكان غلاما حدثاً اي قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ ابو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها في وجه اياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا الي المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل فى يثرب حرب شديدة بين الاوس والخزرج ، ويسمي يومها فى التاريخ يوم بعاث : وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الاوس نصراً مؤزراً بعد أن انهزمت أول مرة

فى الموسم الذى كان بعد هذه الحرب أقبل الى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم إلى الاسلام كما كانت عادته وكان فى أنفسهم

شيء مما كانوا يسمعونه ، وهم في المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم اليه فأجابوه إلى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرضه عليهم من الاسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم وعسي ان يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم لامرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلي الله عليه وسلم ودعوهم الى الاسلام حتي فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر — وافى الموسم من أهل المدينة اثناعشر رجلا ، فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الاسلام بيعة تسمى فى التاريخ ببيعة النساء ، وانما سميت بذلك لانها كانت على الامور التى ورد ذكرها فى سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية (ياأيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)

وبعد ان تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بنى عبد الدار بن قصي وامره ان يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين ،

فكان يسمي المقريء وكان يؤمهم فى المدينة لان الاوس والخزرج كره بعضهم ان يؤمه بعض وكان اسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سبباً كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب فى الاسلام فأسلم أسيد ابن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس في يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بنى عبد الاشهل من الأوس ولما أسلم ذهب إلى قومه فى ناديهم ، فقال يا بني الاشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة ، قال فان كلام نسائكم ورجالكم عليّ حرام حتي تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا فوالله ما أمسي في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة الا مسلماً أو مسلمة

وكان لأسعد بن زرارة الذى نزل عليه مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل المدينة إلى الاسلام حتي لم تبق فيها دار الا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس اخرها عن الاسلام صيفي بن الاسلت المكني بأبي قيس ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه : فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق : فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتي اجتمعوا فى الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين - هما نسيبة بنت كعب من بنى مازن بن النجار الخزرجية وأسماء بنت عمرو إحدى نساء بنى سلمة من الخزرج ، واستمروا

منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه ، وهو يومئذ على دين قومه الا أنه احب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال: يامعشر الخزرج ان محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبي الاّ الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه ـ بعد الخروج به اليكم ـ فمن الآن فدعوه فانه في عزّ ومنعة من قومه و بلده ، فقال المتكلم من الخزرج قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله و رغب فيه ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ازرنا فبايعنا يارسول الله فانا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر فقال ابو الهيثم بن التيهان يارسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالاً وانا قاطعوها ( يعني يهود المدينة ) فهل عسيت : ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ـ ان ترجع الى قومك وتدعنا . قال فتبسم الرسول ثم قال : الدّم الدم والهدم الهدم : يعنى انا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم : ثم قال لهم أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، فقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسي ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي وهاهي أسماء النقباء

(١) أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج

(٢) سعد بن الربيع من بنى مالك بن امرىء القيس من الخزرج

(٣) عبد الله بن رواحة « عمرو بن امرىء القيس

(٤) رافع بن مالك « زريق بن عامر من الخزرج

(٥) البراء بن معرور « سلمة بن سعد

(٦) عبد الله بن عمرو من بنى سلمة بن سعد من الخزرج

(٧) عبادة بن الصامت « غنم بن سالم «

(٨) سعد بن عبادة « ساعدة «

(٩) المنذر بن عمرو « «

(١٠) أسعد بن حضير « عبد الاشهل من الأوس

(١١) سعد بن خيثمة « كعب بن حارثة «

(١٢) أبو الهيثم بن التيهان « عبد الاشهل «

وكان اول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعاً البراء بن معرور وبنو النجار يزعمون ان أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبنو عبد الاشهل يقولون إنه أبو الهيثم بن التيهان : والقول الاول أثبت لان البراء بن معرور كان كبير القوم : بعد أن انتهت المبايعة امرهم رسول الله أن يعودا الى رحالهم فذهبوا الى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشاً فجاء رأساؤهم الى منازل الانصار ، وقالوا يامعشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين اظهرنا وتبايعونه على حربنا وانه والله مامن حي من العرب أبغض الينا ان تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث

من هناك من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هـذا شيء وما علمناه وهم في يمينهم صادقون لانهم لم يعلموه وقال لهم عبد الله بن أبي بن سلول — وهو سـيد من سادتهم لم يسلم فقال لهم ان هذا الامر جسيم ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا وما علمته فانصرفوا عنه

نفر الناس من منى ، وتجسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لـكن بعد ان فاتهم الانصار

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج الى المدينة والهجرة اليها واللحوق بأخوانهـم من الانصار ، وقال لهم ان الله عز وجل قد جعل لـكم اخوانا وداراً تأمنون بها فخرجوا ارسالاً رجالاً ونساء الا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين

لمـا رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورات خروج أصحابه من المهاجرين اليهم وعرفوا انه قد اجمـع لحربهم فلم يبق الا أخذ الحيطة لذلك

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في امره وكان بهـا اشراف قريش وذووا السن فيهم فقال قائل منهم الرأي أن نحبسـه في الحديد ونغلق عليـه باباً ثم نتربص به ما اصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما اصابهم فقال شيـخ فيهم ماهـذا لـكم برأى لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه الى اصحابه فيوشك ان يثبوا عليـكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتي يغلبونـكم على أمركم : فقال آخر منهم نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فاذا خرج عنا فوالله لا نبالى أين ذهب ولا حيث

وقع اذا غاب عنا أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت : فقال ذلك الشيخ ماهذا لكم برأي!! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتي يتابعوه عليه ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد : فقال أبو جهل بن هشام إن لي لرأياً فيه ما أراكم وقعتم عليه ، هو أن نختار من كل قبيلة شاباً فتى جلداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم ، فكان رأيه هذا مقبولاً عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ما أرادوا

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه الى صديقه أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه اليها ثم هيأ مايلزم لهذا السفر راحلتين ودليلاً خريتاً يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدا أن يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قريش على الفتك به في صبحها ، وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ويتسجي ببرده لئلا يرتاب أحد في وجوده ببيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى يؤدي عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده

في الليلة التي تجمهر فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج الى بيت أبي بكر ، وخرجا معاً من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا الى غار بجبل ثور

وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبدالله بن أبي بكر يتسمع لهما الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعي غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما اذا أمسى في الغار ليعفى أثر عبدالله بن أبي بكر وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام اذا أمست بما يصلحهما

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبدالله ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حياً أو ميتاً مئة ناقة فذهبت تلك الرسل يميناً وشمالاً ولكنها عادت بالخيبة

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتي علما ان قد سكن الطلب فجاءهم الدليل — حسبما اتفقا معه — بالراحلتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمها في الطريق والدليل اسمه عبدالله بن اريقط فسلك بهما الى الساحل حتي عارض الطريق اسفل من عسفان ثم سلك بهما على اسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد ان اجاز قديداً ثم اجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدلجة لقف ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج ثم تبطن بهما مرجح ذى العصوين ثم بطن ذي كشد ثم اخذ بهما علي الجداجد ثم على الاجرد ثم ذاسلم من بطن اعداء مدلجة تعهن ثم علي العبابيد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وهي من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية العائر عن يمين ركوبة حتي هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء علي بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الاول لثلاث

وخمسين سنة مضت من مولده وهو يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام

والى هنا انتهي القسم الاول من حياته عليه السلام فنتبعه بفصلين: أولهما في التشريعات المكية والثاني في آثار هذه المدة

## المحاضرة العاشرة

### التشريع المكي —

مكث الرسول في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر و ٢١ يوماً اذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه في أثنائها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي — وهو اثنتان وعشرون سورة — نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهي (٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الانفال (٩) التوبة (٢٤) النور ﴿٣٣﴾ الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح ﴿٤٩﴾ الحجرات ﴿٥٧﴾ الحديد ﴿٥٨﴾ المجادلة ﴿٥٩﴾ الحشر (٦٠) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١٠٠) النصر وما عدا ذلك فهو مكي

وقد اشتمل التشريع المكي علي أهم ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لاجله و بين روحه قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ثم قال ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لاعدل بينكم ، الله ربنا

وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾

امتاز التشريع المكي بما يعبر عنه أبو اسحاق الشاطبي في الموافقات بالتشريع الكلي ، وإنما سماه كذلك لانه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع ، وكله — من الشرائع الابدية التي لا يخالف فيها دين دينا ومن مصلحة العالم أجمع — فيما مضى وفيما هو آت — ان يكون متبعا لها منقادا لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته في القرآن في سورة الحج ﴿ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ وأعلن أنه إنما جاء مصدقا لمن سبقه من الانبياء وقال له الله عنهم — في سورة الانعام — بعد أن نص عليه اسماءهم — أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ إلى غير ذلك

وأهم ما جاءت به الآيات المكية هو

(١) التوحيد ورفض الاوثان والاصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة

معلوم ان العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية الا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للاوثان والاصنام ، وكل ما هو منها بسبيل ، ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه الادلة وتناقش المعارضين وتذم الشرك والاوثان والاصنام وتنعي على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحا وتلميحا : ضربت الامثال بالامم السابقة وما اصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للانبياء والرسل ، وكررت ذلك تكرارا مؤثرا بأساليب مختلفة : لان اشد ما يفعل في النفوس لاثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الاساليب . واكثر الانبياء ذكرا في آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من

سؤال وجواب لاثبات الوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم إلي الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبوداً ثم ما كان من تحذيره اياهم عن الوقوع في هذا الشرك ، وايعادهم بالشر اذ هم عادوا اليه : وقلما نرى سورة من السور المكية الكبري خلت من اسمه . ذكرهم بما كان عليه أبوهم ابراهيم من كراهة الأوثان وتكسيرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأي كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لاأحب الآفلين فلما رأي القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأي الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر! فلما أفلت قال ياقوم إني برىء مما تشركون إنى وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين ) : ضرب لهم الأمثال بالامم الخالية من عرب وغيرهم ، كل ذلك للتأثير في هذه الانفس التى أشربت حب هذه المعبودات الباطلة

وجر ذلك - بالضرورة - الى تحريم كل ما ذبح على النصب أو جعل فيه شيء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغيرها، وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة ما لم يذكر عليه اسم الله ليكون الانسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون ، فانهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمروا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماماً ما كانوا عليه ، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن

جميع الافعال التي يشرع فيها الانسان لا بد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لان الامر كما علمتم — يحتاج الى مقاومة شديدة فان النفس المتشبعة بالشيء الذي نهيت عنه لا يؤمن أن تعود اليه متي ظهر أمامها فأنها اذ ذاك تحن اليه : وللحركة النفسية مداخل غريبة ، ولذلك قال علماء الاخلاق اذا أهمك أن تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخذه عنها فان رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الاوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما قسرت عليه النفس من اتباع الاوامر : : مثلوا أمام نظاركم حالة شارب الدخان اذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سجارة بيد غيره يدخن بها لاشك أنه يحس بحركة في نفسه تذكره بذلك الالف القديم فيحتاج عند ذلك الي عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين، ولا ينسى الأمر بتاتاً الا بعد مرور زمن طويل والامثلة على ذلك كثيرة فحماية لهذا الضعف الانسانى كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع : ولذلك لما رأي عمر بن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول الله صلي الله عليه وسلم أصحابه في الحديبية أمر للحال بقطعها واعفاء أثرها

(٢) اثبات يوم آخر يجازى فيه كل امريء بعمله ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً، وقد نصت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة في خيره وكررته تكراراً عظيما يقرب مما كان في أمر التوحيد والاوثان ونصت على أن العدل سيجرى مجراه بعد أن توزن أعمال

الانسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب اذ لا يمكن أن يعقل في الوجود الانساني من هو خير محض أو من هو شر محض والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت نتيجتها في الناس

وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافاً ترغب وتخيف وكرر ذلك في مواطن كثيرة منه

لم يجعل اليأس يتسرب الى النفس الانسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال الكاذبة تستولى عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنواناً على ما يناله صاحبه مهادق (ولا يظلم ربك أحداً) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) أخاف صحاب الشر وفتح امامهم باب الرجوع الى فعل الخير واخبرهم أن الحسنة اذا تلت السيئة محتها: والذي يفهم من القرآن أن الحسنات المؤثرة في محو السيئات انما هي العملية

(٣) بين لهم الخصال التي تقرب الى الله والتي تبعد منه ومعظمها يرجع الى الاخلاق والملكات في معامله الناس بعضهم مع بعض: يقول في سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ثم يقول (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس و يبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور)

و يقول في سورة الاعراف (خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين) و يقول فى الشورى (وأمرت لاعدل بينكم) و يقول فيها (قل

لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور (وقال في سورة فصلت (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم) جمع لهم فى سورة الاسراء وصايا جميلة بأبدع أسلوب وأشده تأثيراً فيرونه يتلي كل وصية بفائدتها إقرؤا — إن شئتم — من قول الكتاب وقضي ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، الى قوله ذلك مما أوحي اليك ربك من الحكمة : وصف عباد الرحمن فى سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن لا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ، الى آخر السورة ، واستقصاء ذلك يستدعي وقتاً طويلا وإنما نحن نشير الى ذلك ونطلب منكم مراجعته ، ولا تجعلوا بينكم و بينه سداً من الاوهام حتي تعلموا بم كان يوصيهم و كيف كانوا يجيبونه ؟؟ فانه لاشيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذي أنزله الله عليه

(٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير : والبدني منها هو الصلاة فقد ورد الامر بأدائها في كثير من الآيات المكية وقد علمه الوحي كيف يؤديها — كما ورد في الأخبار الصحيحة — والصلاة وحدها هي التى فصلت تمام التفصيل بمكة ، وتفصيلها إنما كان عملياً لان آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وانما أخذ منها بطريق الاشارة وقد نقلت نقلا عملياً ، وقد وصف القرآن تلك الصلاة التى أمر بها بأنها تنهي عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة الماعون ممن يستحقون الويل

( الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين يراؤون ) وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذى فرضت فيه الصلاة : فقال بعضهم إنها فرضت ليلة الاسراء حينما عرج برسول الله الي الملأ الاعلى وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الاسراء والمعراج ثم نتبعها بما يظهر لنا

الاسراء مصدر أسري يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلا ، ويراد به — في لسان المحدثين — تلك السياحة الليلية التى وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى ليريه الله من آياته والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعني السلم المعدله ويراد به صعود رسول الله الى الملا الاعلى

الاسراء ورد ذكره فى الكتاب فى أول سورة سميت باسمه قال تعالي ( سبحان الذي أسري بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصي الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لان السورة مكية ولكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وان رسول الله أخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت مثاراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المومنون وفي مقدمتهم أبو بكر الذي سمي فى ذلك اليوم بالصديق ـ وكذب بها المشركون و بعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتي أن بعضاً منهم ارتد

واختلف المتكلمون في أمر الاسراء : فروي عن معاوية بن أبي سفيان أن الاسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم : و روى عن عائشة أن الاسراء إنما كان بروحه لان جسمه لم يزل من مكانه

ونري أن نتيجة القولين واحدة — لان الاسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قد مات اذ لم يقل بهذا القول احد لا عائشة ولا غيرها ، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله في حالة النوم علي شيء من الآيات التى هي فى جهات بعيدة عن موطنها ، والرؤيا – كما قدمنا – نوع من الوحي للانبياء ويستدل أصحاب هذا الرأى بقوله تعالى في السورة نفسها ( وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ) وقد قال الحسن البصري راوى حديث الاسراء فأنزل في ذلك قوله تعالى وماجعلنا الرؤيا الخ

ويقول وجمهور المسلمين على أن الاسراء كان بجسمه و يستدلون على رأيهم بأن الاسراء لو كان رؤيا ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لانه ما الذى يستبعد من اطلاع إنسان على اقصي ما في الارض في رؤيا يراها

بعض المورخين يميلون الى رأى عائشة ومعاوية ، لا لأنهم يحيلون أن يقع للانبياء أمر خارق للعادة ، بل لانهم لا يتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواته عياناً وصرحوا بمشاهدته في رواياتهم ووصل اليهم من طرق مأمونة الخطأ أوصرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأن الاسراء كان رؤيا صادقة يدل على أن هذا القول لم يكن بدعا في زمنهما لانه لم ينقل الينا التاريخ أن أحداً قام في وجههما رادا عليهما رأيهما ، بل بالعكس رأينا ابن اسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولهما القول الحسن فأنزل الله في ذلك (وما جعلنا الرؤيا الخ . وعائشة زوج الرسول ( وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة ) وادرى الناس بما كان من حوداثه التى أكرمه الله بها فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه ، والمعروف عنها

أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأي يتفق على خلافة جمهور أمته خصوصاً في مثل هذه الحادثة الكبري ثم لا يقوم في وجهه الصحابة معارضين على حين أنهم كانوا يردون عليه القول رداً شديداً في ايسر الأمور فكيف بهذا الامر الجلل لمارجع هؤلاء المؤرخون الى الكتاب فى أمر هذه الحادثة وجدوه يقول (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا) والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم واطلاع الله نبيه في نومه على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن اطلاعه إياه في يقظته لان رؤيا الانبياء حق - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الأسراء الى عبده، والروح اذا جلى لها المسجد الاقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلاً

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون ظهار رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفي - لأن يجدوا فرصة لذلك - أن يسمعوا منه عليه السلام أسري بي الليلة الى بيت المقدس ، وعند ذلك يكبرون في أنفس الناس قوله، وقد كان يقول بعضهم لبعض - كما جاء في الكتاب - (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

قال ابن اسحاق بعد أن ذكر القولين والله اعلم أي ذلك كان قد جاءه وعاين فيه ما عاين - من أمر الله على أي حاليه - نائماً او يقظان - كل ذلك حق وصدق اه

أما المعراج فلم يرد ذكره في القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الاخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق فى

شرح حوادثه لذلك قال بعض المحدثين انه حصل جملة مرات منها المرة التي كانت ليلة الاسراء وأصحاب الاسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الاسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني في كتابه المسمي بالمواهب اللدينة فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع، ودافع محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن رأي من يقول بالاسراء الجسمي

لما كان كثير من المحدثين يرون ان الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون فى أوائل البعثة وقد اغرب بعض الرواة فجعله قبل ان يوحى اليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحاق بعد فشو الاسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبى طالب . ويلزم من ذلك ان الرسول وأصحابه لم يكونوا في أول الامر يصلون الصلوات الخمس، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى - وبذلك قال جمع من المحدثين

وخلاصة القول ان الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماماً فرضت الصلوات الخمس فعلمه الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل الذى تفعل به : مما فرض بمكة الزكاة فانا قلما نجد من الاوامر المكية ذكر الصلاة الا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة مايخرج من الارض في سورة الانعام (وآتوا حقه يوم حصاده) الا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولاً لما في النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس

مما يلفت النظر إلى الآيات المكية أن قارئها يحس فيها بأمر

مدهش ذلك أن الرسول صلي عليه الله وسلم كان بمكة مضطهداً في حاجة إلى من يدفع عنه اذى اعدائه الذين وقفوا في سبيل دعوته في ذلك الحين كانت الآيات المكية تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تمالؤا عليه ومرة يرد أقبح رد من العرب الذين يردون الموسم ، وها نحن أولاء نمثل امامكم تلك الشدة بما نتلوه عليكم من الآيات (١) ولتعلمن نبأه بعد حين (٢) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد (٣) سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق (٤) أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ؟! أم يقولون نحن جميع منتصر ؟! سيهزم الجمع ويولون الدبر (٥) ولو ترى إذ فزعوا فلافوت وأخذوا من مكان قريب (٦) قل ربّ إما ترينى ما يوعدون ربّ فلا تجعلنى في القوم الظالمين (٧) فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن (٨) قل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها (٩) فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (١٠) ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون (١١) فأعرض عنهم وانتظر إنا منتظرون (١٢) فارتقب إنهم مرتقبون الى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع وظهر نبؤها بعد حين

---

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر
(٥) سبأ (٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم
(١٠) السجدة (١١) السجدة (١٢) الدخان

كان يفعل الامر يرغب به استمالة عظمائهم لما كان عليه من الرأفة بهم وارادة الخير لهم ويكون من نتائجه أن صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحي مشتداً ومنبهاً كما حصل في حادثة عبدالله بن أم مكتوم الاعمى فقد حدث أن الرسول قابل جمعاً من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم اليه ، فجاءه ابن أم مكتوم وقال يارسول الله علمني مما علمك الله فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعاً في أولئك العظماء ، فجاءه الوحي بقول الله (عبس وتولى أن جاءه الاعمي وما يدريك لعله يزكي أو يذكر فتنفعه الذكرى ! أما من استغنى فأنت له تصدى ! وماعليك أن لا يزكي ؟ وأما من جاءك يسعي وهو يخشى فأنت عنه تلهى) وهذه شدة أدبه الله بها كما قال : أدبني ربى فأحسن تأديبي

## (٥) مما شرع فى آخر أيامه بمكة الاذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعي عناية كبري في بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ماشرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه بحجز بعض حتى لا يتجزأ فتضيع الفائدة : و بحثنا قاصر على الجهة التاريخية ، ولذلك نقتصر على ماجاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترك للفقهاء ما امتازوا به من دقة الاستنباط لان ذلك ليس من عملنا

## المحاضرة الحادية عشرة

أسباب شرعية القتال — المواثيق والعهود — أسرى الحرب — الاسترقاق

لم شرع القتال ـ ؟

بين الكتاب فى مواضع منه السبب الذي من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين (الاول) الدفاع عن النفس عند التعدى ، الثانى : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن أى باختباره بأنواع التعذيب حتي يرجع عما اختاره لنفسه ديناً أو بصد من أراد الدخول فى الاسلام عنه أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته وهذه هى المواضع التى جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الاول — جاء فِي سورة الحج ، وهو أول ما أنزل فى أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ! ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق — الا قولهم ربنا الله يعنى أنهم لم يظلموا من أهل مكة الا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير

لآية الشوري ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق — ثم بينت أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف اشكالها ونسبها فلا يكون لله فى الارض ذكر : ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هى في الحقيقة تنبيه لهم إلى مايجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلموهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

الموضع الثانى — قوله فى سورة البقرة المدنية (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم — والفتنة أشد من القتل — ولاتقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتي لاتكون فتنة ويكون الدين لله — فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين — الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدي عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين )

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من الاذي والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لاتكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الانسان حراً فى دينه لايدين به إلا لله لاخوفاً ولا طمعا وقد بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لانها اعتداء على العقيدة

والوجدان وذلك شر ما يكون من بني الانسان : نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين ، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر ، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء ـ لا ينبغي أن يتجاوز به ما فعله البادىء بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم واتقوا الله)

الموضع الثالث ـ قوله في سورة النساء المدنية « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا » بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما « أولاً » سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسعى اليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص ، فهؤلاء لا بد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع ـ قال عن قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانبا (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقياً لا ذبذبة عندهم فان كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا)

بينت هذه الآيات ان لا سبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة

وترك القتال وألقى إليهم السلام

الموضع الخامس ـ قال في سورة الانفال ( وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير ) وهذه تؤدي ما أدته آية البقرة

الموضع السادس ـ قال في السورة السابقة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله إنه هو السميع العليم وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لان الغرض هو تأمين الدعوة وأن لا تكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع

الموضع السابع ـ قال في سورة التوبة المدنية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين )

بينت هذه الآية سببا لا يخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود الى الطعن في الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال اول مرة فهم المعتدون أولا والناكثون عهدهم آخراً وأنتم قد ابيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم

كان اليهود قد مالئوا قريشا والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين في غزوة الاحزاب حتي زلزلوا زلزالا شديداً بعد أن كانت بينهم و بين النبي صلي الله عليه وسلم عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقتضى به تلك العهود فأمر المسلمين بقتالهم كما

جاء في سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

كان امر القتال اولا قاصراً على قريش ومن مالأهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فالعلة في هذا الامر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة

هذا ماورد فى الكتاب خاصاً بأمر القتال ، وكله يعلن أن القتال لم يشرع الادفاعاً عن انفسهم ، وتأميناً للدعوة من ان تقف الفتنة في طريقها واعلن أنه لم يجيء معتديا بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح الى سلم من سالمه

ومما يويد تلك الروح السلمية ويوضحها ماجاء فى سورة الممتحنة (لا ينها كم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

## العهود والمواثيق

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الاخلال بها ، وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام : قول الكتاب في أول سورة المائدة «ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود» وقوله في سورة الاسراء ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾ وقوله فى سورة النحل ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله

عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾

وأما الخاصة

فمنها قوله تعالى في سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ) وقال في السورة نفسها بعد ذلك ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم ، أو ظهرت عليهم دلائل الخيانة لان أول السورة ﴿ براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكرهم وهذا تنفيذ لما ورد في سورة الانفال ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ والخوف انما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لان من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص

ومنها أنه لما حضهم في سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سراً ضدهم قال ( إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق ) وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوى الميثاق وأنها تحمى الواصل اليها

ومنها أنه جعل في سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال ( وإن كان — المقتول خطأ — من

قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ) وهذا بعينه هو الذى أوجبه في قتل مسلم خطأ ( ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا) وجعل الدية الواجبة فى قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال ( فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة )

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فجعل حق الميثاق فوق كل حق

لم يجعل للسلم أمداً بل ذكره مطلقاً في قوله (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)

أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله فى سورة القتال ( حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فامامنا بعد وإما فداءاً حتى تضع الحرب أوزارها) فجعل ماخير فيه أولياء الامور المن وهو العفو والارسال من غير شيء الفداء وهو أخذ العوض ولم نر في الكتاب غيرهما

وأنا ملزم الآن أن أقول كلمة عما جاء في القرآن في أمر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بأيدى العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم ، فقد قال في سورة المؤمنين المكية (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين) وقال مثل ذلك

في سورة المعارج المكية أيضاً أي قبل أن يحصل من المسلمين أى حرب أو قتال وقال في سورة النساء المدنية (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أوما ملكت أيمانكم) ثم رغبهم ترغيباً شديداً في تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق ثلاث

الاولى — أنه جعله في سورة البلد المكية من أول الواجبات على الانسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه فقال ممتنا على الانسان (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة) فجعل فك الرقبة فى مقدمة الخصال التى بها يقوم الانسان بشكر نعم الله المتتالية

الثانية — أنه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهما من ثمانية يعني أن الامام الذى يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها فى فك الرقاب

الثالثة — أنه جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة عن جرائم تجترم فقال في كفارة القتل الخطأ (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) الآية وقال فى كفارة الظهار (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) وقال فى كفارة اليمين (فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير من صاحب الشريعة في تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان في أيديهم منها

هذا ما أحببنا أن نورده على أسماعكم من المبادئ التي سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذي امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله لان لذلك علماءهم أدري به منا ومركزاً غير مركزنا التاريخي الذي يقضي علينا أن نقف عند حد لا يسمح للمؤرخ بتجاوزه

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع الاول ( ٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢ ) أسس فيها مسجد قباء وفي ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الانصار وصلي الجمعة بمسجد في بطن وادى رانوناء في منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلما مرّ على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها هلم إلينا يا رسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فانها مأمورة (لناقته) حتي اذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد ، ثم عادت إلى مبركها الاول فبركت فيه و وضعت جرانها فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا المنزل إن شاء الله فأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه في بيته ثم سأل عن المربد الذى بركت الناقة فيه؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه (١) فاتخذه مسجداً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى

---

( ١ ) روى من طريق آخر أنه قال يا بني النجار ثامنوني بحائطكم فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه الا الى الله . و يروى أنه أبى الا بالثمن والذي اخترناه هو رواية ابن اسحاق وهى توافق رواية مسلم و بعض روايات صحيح البخارى

مسجداً ونزل على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، فانتقل من بيت أبي أيوب اليها

ثم تلاحق المهاجرون فلم يبق بمكة منهم أحد الاّ مفتون أو محبوس أما المدينة فعم أهلها الاسلام الاّ قليلاً منهم

ومن أول الاعمال التي عملها عليه السلام أن كتب كتاباً بين المهاجرين والانصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه «وإن من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم» وفيه وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين — ماداموا محاربين — وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته : وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه وانه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب واذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه

ثم آخى بين المهاجرين والانصار فكان يأخذ بيدى المهاجرى والانصارى

ويقول تآخوا في الله أخوين

وبعد أن تم ذلك بدأت الأعمال العظيمة والتي كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشويش في التاريخ قسمنا أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة — الاعمال الحربية — التشريع — الاخلاق التي ساس بها أمته

المحاضرة الثانية عشرة

ودان — بواط — العشيرة — بدر الكبري — بنى قينقاع

الاعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الأفاعيل واستولى مشركو مكة على ما تركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين فكان ذلك داعياً إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها إلى الشام والتي يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثنى عشر شهراً خرج فى صفر من السنة الثانية إلي ودان(١)

وكان يريد قريشاً وبني ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة ثم رجع ولم يلق كيداً: أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الاول. وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة بن الحارث، في ستين راكباً من المهاجرين حتي وصل

---

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية وودان من ناحية الفرع بينها وبين الابواء ثمانية اميال قرية من الجحفة التي هى على أربع مراحل من مكة وست من المدينة

ماء بالحجاز بأسفل ثنية (١) المسرة فلقي بها جمعاً من قريش ، فلم يكن بين الفريقين قتال : ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية . وبعث في هذه المدة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص (٢) في ثلاثين راكباً فلقي أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل في ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهني وكان موادعاً للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض

## بواط (٣)

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الاول يريد قريشاً حتي بلغ بواط من ناحية رضوي ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الاولي،

## العشيرة (٤)

في جمادي الاولي خرج حتي نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادي الأولى وليالي من جمادي الثانية و وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من

---

(١) ثنية في شمال قديد من بادية مكة (٢) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها الي الشام (٣) موضع قرب جبل رضوي : ورضوي على مسيرة يوم من ينبع . ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق تختصره العرب الى الشام (٤) وادقريب من ينبع

بنى ضمرة ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً : وفى مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار (١) من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً

## سفوان

أقام عليه السلام بالمدينه قليلاً بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرز ابن جابر الفهري أغار على سرح المدينة فخرج فى طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفوان (٢) من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفي مقامه هذا أرسل عبد الله بن جحش ـ ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ـ بامر غير مفتوح ـ وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه (اذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فمضى وسلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي حليف لقريش فأتمر بها عبد الله هو ومن معه (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصمموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو ابن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والاسيرين وقدموا بهما إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم! وقال ما أمرتكم بقتال فى الاشهر الحرم ووقف العير والاسيرين فقط في أيدى القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا ! وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الاموال وأسروا الرجال

(١) واد بالقرب من مكة قريبا من قديد (٢) واد من ناحية بدر

ولما كثر الكلام في ذلك جاءه الوحي بقول الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال !؟ فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) يعني إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع . صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس في دينهم والفتنة أكبر من القتل ! ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام في زلة قد ارتكب هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والاسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما

بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول، فندب إليها أصحابه، وقال هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقى حرباً وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلاً ٨٣ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترساً أمامه العيون فاخبر ـ وهو يسير ـ أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلاً

يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير فى أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادي — يامعشر قريش: اللطيمة اللطيمة، يامعشر قريش أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لاأرى أن تدركوها الغوث الغوث — فتجهز الناس سراعاً وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً فكانت عدتهم بين التسعمائة والالف ولم يزالوا في سيرهم حتى نزلوا بالعدوة للقصوي من وادى بدر

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصري ٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى اذا كان قريباً من الصفراء بعث العيون الي بدر لاستطلاع أخبار العير، حتى إذا قارب بدراً جاءته الاخبار عن قريش بانهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا، وقال له المقداد بن عمرو امض يارسول الله لما أمرك الله فنحن معك! والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه حتي تبلغه، فقال له الرسول خيراً ثم قال أشيروا عليّ أيها الناس وانما كان يريد الانصار، لان العدد فيهم ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونه مادام في ديارهم فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته الا على من دهمه فى المدينة من عدوه، وليس عليهم أن يسير بهم الى عدو خارج

(١) موضع أقصى أراضي هجر

ديارهم ، فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله، قال أجل فقال له سعد قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك مناما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله فسرّ عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال سيروا وأبشروا فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريباً من بدر بلغه أن أباسفيان قد نجا بالعير وأن قريشاً وراء وادى بدر — وكان أبو سفيان قد ساحل بالعيرفنجا ، وأرسل الى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير فأبى ذلك أبو جهل وقال والله لا نرجع حتى نرد بدراً (وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا : ولما رأى الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة تشدد أبى جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بنى زهرة أن يرجعوا ، فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدراً فى صفوف المشركين زهري ، وكذلك لم يشهد من بنى عدي أحد : مضت قريش حتي نزلت بعدوة الوادى الدنيا ، ونزل المسلمون علي أول ماء من بدر فجاء

الحباب بن المنذر إلى رسول الله وقال له يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة : قال يارسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدني ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له لقد أشرت بالرأي وفعل كما قال

ثم إن سعداً قال للرسول يارسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يانبي الله مانحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه الرسول ودعاله بخير وأمر ببناء العريش فبني له

تراءي الجيشان : فلم يكن بد من الحرب في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة حسب القواعد العربية ـ فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الانصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بني عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلي بن أبى طالب فكان عبيدة بازاء عتبة وحمزة بازاء شيبة وعلي بازاء الوليد فأما حمزة وعلى فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما ـ وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما

أثبت من صاحبه فحمل علي وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب في ذلك النهار ، فان الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام رأس هذه الفتن كلها وأسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون: ولما انتهت الموقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين ، وكانت هذه عادته في حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما ـ وهو عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية والآخر ـ زيد بن حارثة ـ إلى أهل السافلة

ثم عاد عليه السلام إلى المدينة وفي عودته قتل رجلين من الاسرى أحدهما النضر بن الحارث لانه كان غالياً في عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثاني عقبة بن أبي معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما

ولما أقبل بالأسرى فرقهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزيز بن عمير: كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر فكانوا إذا قدم غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز الا نفحنى بها ! قال فأستحى فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر

ثم استقر رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه على قبول الفداء من قريش فى الاسرى ، وكان بعض الصحابة ـ ومنهم عمر وسعد بن معاذ ـ يريدون قتلهم ، وكان رأي أبي بكر وأكثر الصحابة لا يريدون

ذلك، ويريدون قبول الفداء ( وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال ) فرضي عليه السلام رأي أبى بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً أنه لم يسبق لنبي أن أكل شيئاً من الغنائم، فان موسى عليه السلام كان يحرقها ولا يبقى شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانه بقوله ( ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم ) وقد كان من رأي سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الاسرى فقال له ( يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الاسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم )

علمت قريش بما كان فأرسلت فى فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل ومنهم من منّ عليه بغير فداء ومنهم أبو عزة الجمحي الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسري الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة

نزل في هذه الغزوة من القرآن سورة الأنفال بأسرها وهي السورة الثامنة ، وقد بدئت بأمر الانفال وأنها صارت لله والرسول يقضى فيها الله بما شاء ، ثم قضي فيها بأن الخمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقى وهو أربعة أخماسها للغانمين: وقد خص عليه السلام سهم ذى القربى ببنى هاشم والمطلب ابني عبد مناف ولم يعط منه بني نوفل وعبد شمس ، ثم قص في السورة خروج المسلمين الى هذه الحرب وأنه ثبتهم

فيها وأيدهم بالملائكة بشري لهم ولتطمئن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا . وتكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الاذى والفتنة والصد عن سبيل الله : وتكلم فيها عن السلم والجنوح اليها متي جنح لها أعداء المسلمين وعن أمر الأسرى الى غير ذلك من الاحكام

وأمر هذه الغزوة مما يلفت النظر الى حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطمأنينة فان عددهم كان ٣١٤ رجلا ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقبونها، وقريش كانت بين التسعمئة والالف وعندهم من العدة ماليس مع المسلمين ، وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة علي دينهم والحفيظة علي شرفهم ما لايخفي مكانه ، ومع كل هذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم مايستغرب فان الحرب لم تستمر أكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين ، وانهزمت بقيتهم لاتلوى على شيء فلا بد لذلك من سبب آخر غير أمر العدد والعدد ، ذلك أن المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر ، لما أخبرهم به عليه السلام من أن الله وعده إحدى الطائفتين ، وقوله : والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وزادهم الله تثبيتاً حين الموقعة بما أيدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون أنفسهم في موقف يدافعون فيه عن أعز شيء فى الوجود وهو رسول الله الذي بين أظهرهم فلا يهم الواحد منهم أن تحين منيته لانه واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة إحدى الحسنيين وكل هذا للمحارب بمثابة إمدادات قوية يراها متوالية الورود

وقد قيل في هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق ماقيل منه ماقالته قتيلة بنت الحارث أخت النضر ابن الحارث

| | |
|---|---|
| يارا كبا إن الأثيل مظنة | من صبح خامسة وأنت موفق |
| أبلغ بها ميتاً بان تحية | ما إن تزال بها النجائب تخفق |
| مني اليك وعبرة مسفوحة | جادت بوا كفها وأخري تخفق |
| هل يسمعني النضر إن ناديته | أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟ |
| أمحمد ولدتك خير نجيبة | فى قومها والفحل فحل معرق |
| ما كان ضرك لو مننت وربما | منّ الفتى وهو المغيظ المحنق ؟ |
| أو كنت قابل فدية فلينفقن | بأعز ما يغلو به ما ينفق |
| فالنضر أقرب من أسرت قرابة | وأحقهم ـ ان كان عتق يعتق |
| ظلت سيوف بني أبيه تنوشه | لله أرحام هناك تشقق |
| صبراً يقاد إلى المنية متعباً | رسف المقيد وهو عان موثق |

فيقال والله أعلم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما بلغه هذا الشعر ـ لو بلغنى هذا قبل قتله مننت عليه

وكان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان

## الكدر

لم يقم بالمدينة الاسبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وفى مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

## السويق

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذر ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج في مئتى راكب من قريش ليبر بيمينه حتي كان من المدينة على نحو بريد ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حيي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم سيد بني النضار المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج في عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه فبعث رجالا منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الأنصار فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليه السلام في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان ، وسميت بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون من أزوادهم التى أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال ابو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم

| | |
|---|---|
| وإني تخيرت المدينة واحداً | لحلف فلم أندم ولم أتلوم |
| سقاني فرواني كميتاً مدامة | على عجل مني سلام بن مشكم |
| ولما تولى الجيش قلت ولم أكن | لأفرحه أبشر بغزو ومغنم |
| تأمر فان القوم سر وإنهم | صريح لؤي لا شماطيط جرهم |
| وما كان إلا بعض ليلة راكب | أتى ساعياً من غير خلة معدم |

## ذى أمر

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة

أوقريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فاقام بنجد صفراً كله أو قريباً من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع إلى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الاول كله أو الاً قليلاً منه

الفرع

خرج عليه السلام في أواخر ربيع الاول يريد قريشاً حتى بلغ بحران — وهو معدن بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر، ثم رجع ولم يلق كيداً

أمر بني قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم — كما قاله ابن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة .. وظهر منهم بعد بدرما كان خافياً من عدائهم إذ أنهم قالوا له يامحمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم و بين المسلمين ظاهراً بحادثة وقعت في سوق بني قينقاع، سببها تعدى رجلٌ من اليهود على امرأة من العرب تعدياً معيباً فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلى اليهودي فقتله، وقامت اليهود على المسلم فقتلوه، وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج إليهم رسول الله وحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها الى أذرعات بالشام وأقاموا فيها

كان من نتيجة بدر أن قريشاً حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج أبوسفيان ومعه تجار واستاجروا رجلا من بكر بن

وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل إليهم زيد بن حارثة فلقيهم على القردة ـ ماء من مياه نجد ـ فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

## أمر كعب بن الاشرف

كان كعب بن الاشرف يهودياً من طيء ثم من بني نبهان وأمه من بني النضير، فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبدالله ابن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش، قال كعب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتي قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الاشعار و يبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال

| | |
|---|---|
| طحنت رحا بدر لمهلك أهله | ولمثل بدر تستهل وتدمع |
| قتلت سراة الناس حول حياضهم | لا تبعدوا إن الملوك تصرع |
| كم قد أصيب به من أبيض ماجد | ذى بهجة تأوى إليه الضيع |
| طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت | حمال أثقال يسود ويربع |
| و يقول أقوام أسر بسخطهم | إن ابن الاشرف ظل كعبا يجزع |
| صدقوا: فليت الارض ساعة قتلوا | ظلت تسوخ بأهلها وتصدع |
| صار الذى أثر الحديث بطعنة | أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمع |
| نبئت أن بنى المغيرة كلهم | خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا |
| وابنا ربيعة عنده ومنبه | ما نال مثل المهلكين وتبع |

نبئت أن الحارث بن هشامهم في الناس يبني الصالحات و يجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما يحمى على الحسب الكريم الاروع

ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتي آذاهم فأرسل له عليه السلام نفراً من الانصار فقتلوه جزاء خيانته لعهده

## المحاضرة الثالثة عشرة

### أحد

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب و رجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشي عبد الله بن أبي ربيعه وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أباسفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكان أبو عزة الجمحي الذى منّ عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن أمية أن يخرج معهم فقال له إن محمداً قد من علىّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال فأعنا بنفسك فلك الله على إن رجعت أن أغنيك وإن أصبت ان أجعل بناتك مع بناتى يصيبهنّ ما أصابهن من عسر و يسر ، يخرج أبو عزة يسير في تهامه و يدعو كنانة ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطيء بها فقال له اخرج مع

الناس فان قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة فأنت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم و بنزولهم استشار وأصحابه أيخرج إليهم أم يقيم في المدينة ؟ ؟ فقال له عبد الله بن أبي بن سلول — وكان رأساً في الانصار الا انه كان يضمر نفاقاً - نري أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأي رسول الله لكن كان رأى جمهورهم أن يخرج إلى العدو فدخل عليه السلام إلي بيته فلبس لامته وذلك يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شوال (١) حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله صلي الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك يارسول الله ولم يكن ذلك لنا فان شئت فاقعد فقال عليه السلام ماينبغي لنبي اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام في ألف من أصحابه حتي إذا كان بالشوط انخذل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس ، وقال أطاعهم وعصاني ماندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من قومه وهم أهل نفاق وريب ومضي رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادى إلى جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال لا يقاتلن أحد منكم حتي نأمره

---

(١) حسب تقويم مختار باشا المصري كان أول شوال الاحد فالجمعة ١٣ منه (١٩ مارس سنة ٦٢٥)

بالقتال . ثم تعبى عليه السلام للقتال وهو في ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك ، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير . وتعبت قريش وهم ثلاث آلاف رجل ومعهم مئتا فرس قد جنبوها ، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل ، وقال أبو سفيان لاصحاب اللواء من بني عبد الدار يابني عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتي الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا فاما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه ، وقالوا نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً اذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان

التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلومون من المسلمين منهم حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة سماك بن خرشة الساعدى وعلي بن أبي طالب وغيرهم فأبلي المسلمون بلاء حسناً فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسوا عدوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها — الا أن الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا مالوا إلى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتي جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاختلت صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتي دهشوا ، ومما زاد في دهشتهم وأضعف عزائمهم أن رجلا قتل مصعب بن عمير وأذاع

عند قتله أن محمداً قد قتل فكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص حتي خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتي رمي بالحجارة ووقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ علي بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة ابن عبيد الله حتي استوي قائماً ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الأنصار يردون عنه العدو ، ثم فاءت فئة من المسلمين فاجهضوهم عنه وقاتلت في ذلك اليوم أم نسيبة بنت كعب وهي ممن بايع بيعة العقبة وكانت في أول النهار تسقي الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه بالسيف وترمي عن القوس وجرحت في ذلك اليوم جرحا شديداً ، وقد امتاز جماعة من الانصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلي الله عليه وسلم منهم أبو دجانة وكان النبل يقع في ظهره وهو منحن على رسول الله حتي كثر فيه النبل ومنهم سعد بن ابي وقاص وكان رامياً ومنهم عبد الرحمن بن عوف

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب ابن مالك أحد الانصار فنادى بأعلى صوته يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار إليه عليه السلام أن أنصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا إليه ونهض معهم نحو الشعب معه كبار أصحابه وذوو الاثر الصالح في هذه الموقعة فلما أسند ظهره الى الشعب أقبل أبي

ابن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً وخدش في عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سبباً لموته وهو عائد الى مكة وهو الرجل الوحيد الذى قتل بيده عليه السلام

ولما انتهى إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس فجاء به إلى الرسول ليشرب منه فوجد له ريحاً فعافه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه . وبينا هو بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه يمنعونه إذ علت عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه

يظهر أن قريشاً رأت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجد من دار بدر فاكتفت به وعولت على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته — بحيث يسمعه من في الشعب — وقال أنعمت فعال : إن الحرب سجال يوم بيوم بدر، أعل هبل، فقال عليه السلام قم يا عمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل لا سواء : قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له هلم إليّ يا عمر ، فقال له الرسول ائته فانظر ما شأنه فجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن، قال أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر ثم نادي أبو سفيان إنه كان في قتلاكم مثل والله ما رضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت، ثم نادى إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد

وكان الذى يهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى موقفه أن يعلم ذات نفس قريش ، أيريدون المدينة أم ينصرفون إلى مكة فارسل علي بن أبي طالب فقال اخرج في أثر القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ، فان كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدن مكة وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها الاسيرنّ إليهم فيها ثم لاناجزنهم فخرج على في أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الابل ووجهوا إلى مكة

فرغ المسلمون الى قتلاهم فدفنوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشي ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبي سفيان

ثم انصرف عليه السلام راجعاً الي المدينة فلقيته في الطريق حمنة بنت جحش فنعي اليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام إن زوج المرأة منها لبمكان لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها . ومر بامرأة من بني دينار من الانصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعوا لها قالت فمافعل رسول الله ؟ قالوا خيراً ياأم فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت أرونيه حتى أنظر اليه ؟ فأشير لها إليه حتي إذا رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة

في غد ذلك اليوم وهو يوم الاحد ١٦ شوال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول الله بطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لايخرج معنا إلا من حضر يومنا

بالامس ، وإنما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم فخرجوا بما هم عليه من التعب والجراح حتي بلغوا حمراء الاسد - وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء وقد مرّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معه لايخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك ، فقال يامحمد : والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الاسد وسار حتي لقي أبا سفيان وأصحابه بالروحاء ، وقد جمعوا الرجعة فانهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرنّ على بقيتهم فلنفرغنّ منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له ماوراءك يامعبد ؟ قال محمد قد خرج فى أصحابه بطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ماضيعوا فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط قال ويحك ماتقول قال والله ماأرى أن ترتحل حتي تري نواصي الخيل فثني ذلك أباسفيان ومن معه

والذي اعترض به القرشيون علي أنفسهم يرد بخاطر كل إنسان حينما يمر بتلك الموقعة فقد كان لهم النصر فى نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين ، وانهزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم ، ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا عن أحد لم يعرجوا على

المدينة ليقال إن النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتي إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع

والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لانهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الأنصار تخلف عنه بالمدينة فخافوا أن يعلم المتخلفون ان إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجدتهم فيكون ما تكره قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التي رأوها سائلة فى وادى أحد وكانت القتلى تقرب من قتلاهم في يوم بدر فاشتفت أنفسهم، وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك أن أباسفيان كان يريد أن يعرج علي المدينة عقب انصرافه من أُحد فقال له صفوان بن أُمية بن خلف لا تفعلوا فان القوم قد حربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا فرجعوا

وعند انصراف الرسول من حمراء الاسد ظفر بأبي عزة الجمحى الذي منّ عليه بعد بدر، فقال له أقلني يا محمد فقال عليه السلام والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمداً مرتين: لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين ثم أمر بضرب عنقه

والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلاً أربعة من المهاجرين وباقيهم من الأنصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلا

أنزل الله في هذا اليوم من القرآن ستين آية من القرآن فى سورة آل عمران وهي السورة الثالثة من اول قوله تعالى «وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم» إلى قوله فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم

وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجمل تعزية لهم على ما أصابهم

يوم أحد (٢) إن صفة الصبر وعلو النفس لايتبين أثرهما إلا عند النكبات (٣) توبيخ لهم ـ بألطف إشارة ـ على ما كان من ضعفهم حينما اشيع أن محمداً قتل (٤) بيان الاسباب الحقيقية لما كان يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون) وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام والروح التي بها يستحق الظفر وهي الفشل والتنازع والعصيان (٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصبر (٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غمز المسلمين والشماتة بهم (٧) اعلان العفو عن المنهزمين (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) (٨) الثناء على شهداء الموقعة والاخبار أنهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وأخيراً أشار الى ما كان من خروجهم ثانى يوم أحد بعد أن أصابهم القرح ووعد الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيما

وقد قيل في هذه الوقعة كثير من الشعر العربي قالته قريش والمسلمون نقله ابن هشام فى سيرته

## يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يارسول الله إن فينا إسلاماً فلو

أرسلت ممنا نفراً من أصحابك يفقهونا في ديننا ويقرءونا القرآن ويعلمونا الاسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى اذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم في رحالهم الا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل إنا لا نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم بالطريق والآخران ابيعا بمكة فقتلا هناك وقال أبو سفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة - حين قدم ليضرب عنقه - أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك يضرب عنقه وأنك فى أهلك قال والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه واني جالس في أهلى فيقول أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً

حديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الاسنة العامرى فعرض الرسول عليه الاسلام فلم يسلم ولم يبعد، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال عليه السلام إني أخشي عليهم أهل نجد فقال: أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو

الساعدى فخرجوا حتي نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بنى سليم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله الى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتلة ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم عصية ورعل وذكوان فاجابوه الى ذلك فخرج بهم حتي غشوا القوم في رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتي قتلوا عن آخرهم ماعدا رجلين: عمرو بن أمية الضمري لانه كان في الرحال وكعب بن زيد فانه ترك بالمعركة جريحاً قد ظن موته فارتث من بين القتلي وقد كان عمرو أسر لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد الى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بنى عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأديهما

## المحاضرة الرابعة عشرة

### اجلاء بنى النضير — ذات الرقاع — بدر الآخرة — الخندق وقريظة — بنى المصطلق

#### اجلاء بنى النضير

خرج عليه السلام الي بني النضير يستعينهم فى أمر ذينك القتيلتين اللذين قتلهما عمرو بن أمية وكان بين بني النضير وبين بنى عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم ياأبا القاسم نعينك على ماأحببت مما استعنت

بناءعليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم) فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقي الصخرة كما قال ورسول في نفر من أصحابه فجاءه الوحي بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا منه فى الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافقي أهل المدينة الى بى النضير أن أثبتوا وتمنعوا فانا لن نسلمكم ان قوتلتم قاتلنا معكم وأن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دمائهم علي أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة فرضي الرسول بما طلبوه فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار الى الشام

ونزل في أمر بني النضير من القرآن سورة الحشر وهي السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بني النضير ثم بين حكم الاموال التى تركوها وسماها فيئاً وجعل أمرها الرسول الله يضعها حيث أمره الله (لله وللرسول ولذي القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) ثم عذر المسلمين علي ما فعلوه من قطع بعض نخيلهم بأنه لم يكن المقصود منه الفساد، وإنما كان باذن الله ليضعف به أمر العدو

ثم أمر المسلمين بالتقوي وأن تنتظر النفس ماقامت لغد

ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة فى جمادى الاولى من سنة ٤ يريد بنى محارب وثعلبة من غطفان حتي إذا نزل نخلاً لقي بها جمعاً عظيماً من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضاً حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهي موعد أبي سفيان فخرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدراً وأقام ينتظر أباسفيان أما هذا فانه خرج بقريش حتي بلغ مجنة أو عسفان ثم بدا له فقال أيها الناس إنه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وان عامكم هذا عام جدب واني راجع فارجعوا فرجع الناس، وكان ذلك مما أخذه الناس على أبي سفيان لعدم وفائه ولكنها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على مايكرهون

الخندق

خرج نفر من اليهود ثم من بنى النضير الذين أجلاهم رسول الله إلى خيبر ومعهم جماعة من بني وائل حتي قدموا امكة على قريش فدعوهم الى حرب رسول الله وقالوا انا سنكون معكم عليه حتي نستأصله فقالت لهم قريش يامعشر يهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فدر

ذلك قريشاً ونشطوا لما دعوهم اليه فاجتمعوا لذلك واتعدوا له. ثم خرج أولئك النفر حتي أتوا غطفان فدعوهم الي مثل مادعوا اليه قريشاً وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشاً قد تابعوهم علي ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن فى بني فزارة والحرث بن عوف فى بنى مرة ومسعر بن رخيلة في بنى أشجع ابن ريث

لما سمع الرسول بما أجمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخندق علي المدينة باشارة سلمان الفارسي وقاسى المسلمون في حفره متاعب شديدة ومازالوا حتى أحكموه

ثم جاءت قريش ومن معها حتي نزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف وجاءت غطفان حتي نزلوا بذنب نقمي الى جانب أحد وخرج رسول الله والمسلمون حتي جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الآطام

خرج حي بن أخطب النضيري حتي أتي كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده علي أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حى الباب فأغلقه دونه فمازال يكلمه حتي فتح له بابه ثم قال له — إني قد جئتك ياكعب بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتي انزلتهم بذنب نقمى وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لايبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه فقال

له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك ياحيي فاني لم أر من محمد الا صدقاً ووفاءً فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتي نقض كعب بن أسد عهده وبريء مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهي الخبر الى الرسول والى المسلمين بعث سعد ابن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليعلما له خبر بني قريظة وكان أمرهم يهمه أكثر مما يهمه أمر قريش وغطفان لأن هؤلاء في بلده والخيانة منهم تؤثر كثيراً في مركز جيشه فلما انتهى السعدان الى بنى قريظة وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد؟! فشاتمهم سعد بن معاذ وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد ابن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم جاء السعدان الى رسول الله وأعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين.

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب الا المراماة بالنبل والحصار . ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الاحزاب فبعث الى عيينة بن حصن الفزاري والحرث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنه قبل أن يبرم الامر أرسل الى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما رأي فقالا يارسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا قال بل

شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم
على الشرك وعبادة الاوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا
منها ثمرة الا قرى أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه
نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله مانعطيهم إلا السيف
حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيسا
غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش
فاقتحموا الخندق بأفراسهم فمنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برزله
شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال يارسول الله إني أسلمت
ولم يعلم قومي باسلامي فمرني بما شئت فقال له عليه السلام انما أنت رجل
واحد فخذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتي بني
قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال يابني قريظة قد علمتم ودي إياكم
وخاصة مابيني وبينكم وان قريشاليسوا مثلكم البلد بلدكم فيه أموالكم
وأبناؤكم ونساؤكم لاتقدروا أن تتحولوا منه الى غيره وان قريشاً وغطفان
قد جاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأهلهم
ونساؤهم بغيره فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم
وخلوا بينكم وبين الرجل ولاطاقة لكم به ان خلا بكم فلاتقاتلوا مع القوم
حتي تأخذوا رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم! قالوا لقد أشرت بالرأي
ثم خرج حتى أتي قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ـ ومن معه من رجال
قريش ـ قد عرفتم ودي لكم وفراقي لمحمد وانه قد بلغني أمر قد رأيت

علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم . إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا
فيما بينهم و بين محمد وقد ارسلوا اليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك
ان نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيهم لك
فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتي نستأصلهم؟ فأرسل
اليهم أن نعم فان طلبت منكم يهود أحداً من اشرافكم فلا تدفعوا اليهم منكم
رجلا واحداً ، ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان الي
بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين فقالوا لهم انا لسنا بدار
مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتي نناجز محمداً فقالوا لهم ان
غداً السبت، وهو يوم لا نفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً
معكم حتي تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة
ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود
وأرسلوا الى بني قريظة إنا والله لا ندفع اليكم أحداً من رجالنا فان كنتم
تريدون القتال فاخرجوا فتأكدت قريظة حينئذ مما قال لهم نعيم وامتنعو
من القتال حتي يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودب حينئذ الى القلوب الفشل
والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح في ليلة
شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم

لما علم عليه السلام بما حصل بين الاحزاب من الخلاف أرسل حذيفة
ابن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم في ذلك الليل فاذا ابو سفيان
يقول لهم لينظر امرؤ من جليسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذى كان

الي جنبي فقلت له من انت؟ قال أنا فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان يامعشر قريش إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فانى مرتحل ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ما أطلق عقاله الا وهو قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين الى بلادهم

وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علمتهم كيف يخندقون على ديارهم اذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكأن يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة في ملاقاة الاعداء واضطروا - بحكم ماهم فيه من الشدائد - أن يستعينوا بالخدع التى تفرق بين الاعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عاقدوهم من بنى قريظة لا عهد لهم ولا رادع عما استكن في أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديداً يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليه السلام - بعد انصراف الاحزاب - أن يتوجه المسلمون الى بنى قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون اليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف فى قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكما يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلتهم فنفذ الحكم فيهم وكان الاوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبد الله ابن أبى في مواليه من قينقاع باجلائهم فلم يرض

ومن الغريب أن إخوانهم بالشام في هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المرة من يد هرقل بعد غلبته كسرى من جراء ما فعلوه بنصارى

الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا في الجهتين أعداء للطرفين

ذكر الله قصة الاحزاب فى سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطفان ، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الاحزاب ( ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم الا إيماناً وتسليما ) ثم ذكر أمر بني قريظة الذين ظاهروا الاحزاب فى عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم ( وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا )

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن معاذ أصابه سهم في ذراعه فقطع أكحله وقدمات بعد حكمه على بنى قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر

وبعد الانصراف من الاحزاب انضم الى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومى وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فانه لم تحصل مواقف مهمة بين الفريين بعد ذلك

## بنى حيان

أقام عليه السلام بالمدينة ـ بعد الخندق ـ الى جمادى الاولى سنة ٦ وفيه خرج الى بني لحيان يطالب بأصحاب الرجيع فسار حتي نزل بغران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو لحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا فى رءوس الجبال فعاد الى المدينة

## ذي قرد

لم يقم بالمدينة الا ليالى قلائل حتي أغار عيينة بن حصن ـ في خيل من غطفان ـ على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلمة بن عمرو بن الاكوع الاسلمى فاشرف فى ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد في أثر القوم وكان رامياً مجيداً فصار يرميهم بالنبل و يقول خذها وأنا ابن الاكوع فاذا انعطفت عليه الخيل انطلق هاربا ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة . بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الاكوع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع فترامت اليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد بن زيد وقال له اخرج في أثر القوم حتى ألحقك فخرجوا يشتدون في أثر القوم حتي أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذى قرد يوما وليلة ثم عادوا قافلين الى المدينة وقتل منهم رجل واحد

بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة الى شعبان وفيه خرج يريد بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له، وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج اليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال لهم المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون أموالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبي في المسلمين وفيه جويرية بنت الحرث رئيس القوم

ويظهر أنه عليه السلام كان يميل للمن على السبي وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر الى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحرث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم

قالت عائشة فلقد اعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها

الحديبية

أقام عليه السلام بالمدينة الى ذى القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمراً لا يريد حرباً وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له وكان قد أراه الله في منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين : فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه فأجابهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت معظماً له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك عنا العرب !! ثم بعثوا اليه رسولاً آخر من بني عامر فأخبره عليه السلام بمثل ما أخبر به بديلا ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة الكناني سيد الاحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاماً لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا إجلس فانما أنت أعرابي لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش ما على هذا حالفنا كم أيصد عن البيت من جاء معظماً له؟! والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لا نفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به . ثم بعثوا له عروة ابن مسعود الثقفي وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه، وقال له يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لا يحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ثم كلمه عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً وقد هال عروة ما رآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله

صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع الى قريش وقال لهم يا معشر قريش قد جئت
كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإنى والله ما رأيت
ملكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه! ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشىء أبداً
فروا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك - عمر بن الخطاب ليرسله الى
قريش حتى يبلغهم عنه ما جاء من أجله فقال عمر يا رسول الله إنى أخاف قريشاً
على نفسى وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتي لها
وغلظتي عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان فدعا عليه السلام
عثمان فبعثه الى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وانما جاء
زائراً لهذا البيت ومعظماً له فخرج عثمان الى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص
ابن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له
إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول
الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان
قتل، فلما بلغت تلك الاشاعة رسول الله قال لا نبرح حتى نناجز القوم ثم دعا
أصحابه الى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان - تحت الشجرة - على أن لا يفروا ثم
تبين بعد ذلك بطلان تلك الاشاعة

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامرى وقالوا له إئت محمداً
فصالحه ولا يكن فى صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث
العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً: فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه عليه
السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع

الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه .

(١) إن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض

(٣) من أتي محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه

(٤) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل أكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر في عهد قريش

وبينا الكتاب يكتب اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمر و يرسف في قيوده قد انفلت الى المسلمين فلما رأي سهيل ابنه قام اليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادي يا معشر المسلمين أأرد إلي المشركين يفتنونني في ديني

ولم تكن هناك حيلة الا أن يرد أبو جندل ـ عملا بوثيقه الصلح ـ عملا بالآية الكريمة (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم و بينهم ميثاق)

كانت حال بعض المسلمين عند ماانتهى الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت ، وقد كانوا لا يشكون فى ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التى رضيها عليه السلام وظن بعضهم أنها لاتليق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يارسول الله ألست برسول الله قال بلى ؟ قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى فعلام نعطى الدنية في ديننا قال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى

لم يبق بعد ذلك الا أن يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدي وحلق الرءوس أو تقصيرها فنحر عليه السلام وحلق فتواثبوا الى هديهم ينحرون ثم حلقوا رءوسهم : أنزل الله فى هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها

وقد سمت فى أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فان الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التى ما كانت كل هذه الحروب الا لتأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله و يؤو بون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذى ضحي فى نيل ذلك إنما هو شيء قليل جداً ولكن الناس لا يصبرون — ثم ذكر فى السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد الناكث ، ثم تكلم عن أمر الاعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج الى الحديبية وأبان ما سيعتذرون به و وبخهم على مافعلوا لانه لم يقبل اعتذارهم

ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الاسباب التى من أجلها امتنع الرسول عن الحرب — ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال ( لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة أمن المسلمون شر قريش وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاءوا الا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لا ينسون ماحل بهم و باخوانهم فصمم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم

فخرج فى محرم السنة السابعة حتى حل بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصناً حصناً حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف مايخرج من أرضهم واذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم عاد الى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين ، وفى مقدمتهم جعفر بن أبى طالب وكان قدومهم على أثر بعث الرسول الى النجاشى عمر بن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشي على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقي من نسائهم وأولادهم و بقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين

صدوا فى العام الماضى ليقضوا تلك العمرة التى فاتتهم حسب عهدة الحديبية فوصل اليها في ذي القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون ، وكانت قريش تتحدث أن أصحاب محمد فى جهد وشدة ووقفوا أمام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الاسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثا ثم انصرف الى المدينة فى ذى الحجة

## مؤتة

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الازدي، وكان رسولا الى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة ، وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبى طالب ، فان أصيب فرئيسكم عبدالله بن رواحة، فخرجوا فى جمادى الاولى سنة ٨ حتي نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل (١)

(١) فى تاريخ هرقل أنه قدم اورشليم سنة ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ماقيضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التى كان الفرس قد استلبوها وطرد اليهود من اورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار اليهم أو انفذ لهم بعض قواده ليردوهم

قد نزل مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم وانضم اليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين في معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو، وهم فى العدد القليل، فساروا حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقي الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر ابن أبي طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فاخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد، وفى ذلك الوقت أظهر مهارته فى تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمي بهم فى الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش الى المدينة . وعندنا أن تلك الأعداد التي يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لان غاية ماراه المسلمون أنهم رأوا عدداً كثيراً أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جداً فى جانب مئتي ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون اذا عدوا من قتل فى هذه الموقعة لا يزيدون عن اثني عشر رجلا ومن المحاول أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته اليه ضئيلة ثم لا يقتل فى الميدان الا اثنا عشر نفراً

## فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم - كما قدمنا - وبكر دخلت فى عهد قريش وكان بين الحيين فى الجاهلية
دماء، فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الديل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا
من خزاعة ثأرهم فخرجوا قائدهم نوفل بن معاوية الديلي ورفدتهم قريش
بالسلاح، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا الى صفوف بنى
بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا فيهم فخرج
من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف
عليه وهو جالس فى المسجد فانشده شعراً يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم
ومظاهرتهم لبنى بكر على خزاعة، ويطلب منه النصر وفاء بالعهد، ثم خرج
بديل بن ورقاء الخزاعي فى نفر من خزاعة حتي أتوا رسول الله فأخبروه
بما نقضت قريش من العهد، ثم انصرفوا راجعين الى المدينة. أحست قريش
بما فعلت وعلمت أن الخبر لابد أن يصل الى المسلمين فرأى أبو سفيان
أن يسير الى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فلم ينجح، وكان مجيئه على
هذه الصورة - مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا
الى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب
حاطب بن أبى بلتعة كتاباً الى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله
مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فأرسل اليها من جاء بالكتاب منها وسأل
حاطباً عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من
خرج فى هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر
رمضان سنة ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بمر الظهران قريباً من مكة
كانت قريش محسة بأنه لا بد من شئ بعد أن فعلت مافعلت

ولكن عميت عليهم الاخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين إليهم . و بينما المسلمون بمر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الاخبار فظفرت بهم جنود المسلمين . وكان أول من لقى أبا سفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيراً حثيثاً ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع اليه من يبغضه فيهلكه فلما وصل العباس وأبو سفيان الى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبي سفيان فقال العباس يارسول الله قد أمنته فقال للعباس إذهب به الى رحلك فاذا أصبحت فأتني به فذهب به حتى اذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبي سفيان ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله الا الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأوصلك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فان في النفس منها حتى الآن شيئاً ، و بعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب الى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد ، ثم سار عليه السلام بجنوده حتى دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش الا مناوشات لا تستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار الى البيت فطاف به

سبعاً على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة اليشبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء : الناس من آدم وآدم من تراب ثم قال يامعشر قريش ماتظنون أني فاعل بكم قالوا ! خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال

اذهبوا فأنتم الطلقاء

ثم رد مفتاح الكعبة الى سادنها فهى فى أعقابه إلى اليوم . ثم دخل البيت فأزال ما به من الصور والتماثيل المختلفة

وأمر حين دخوله مكة بقتل أفراد ذوي جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل فى الاسلام هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم الا القليل ثم أسلموا بعد : يعتبر فتح مكة حداً فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده فان قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب في ذلك لهم تبع فخضوع قريش يعتبر القضاء الاخير على الدين الوثنى في جزيرة العرب

أمر حنين

الا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزاً وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت الى مالك بن عوف النصرى ودخل معها في ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير

الى حرب المسلمين، فلما سمع بهم رسول الله خرج اليهم ومعه اثنا عشر ألفاً وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادى حنين وشرعوا ينحدرون فيه كانت هوزان وثقيف قد كمنوا فى شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل أن يهيء هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا الي أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ولم يبق معه فى موقفه الا عدد قليل! فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت أصرخ يامعشر الانصار يامعشر أصحاب السمرة فأجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى اذا اجتمع اليه منهم مئة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن الا ساعات قلائل حتى هزموا العدو وهزموه هزيمة منكرة وقتل من ثقيف ـ وحدهم ـ نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن

ولقد أنزل الله فى هذه الموقعة فى سورة التوبة «لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين»

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فحاصرهم مدة، ثم عاد عنهم بدون أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه

هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يا رسول الله انا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك فمن علينا من الله عليك وقال له رجل من هوازن انما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث، بن أبى شمر الغساني أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد الينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا فقال لهم أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم واذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله الى المسلمين و بالمسلمين الى رسول الله فى ابنائنا و نسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ماقال لهم فقال لهم عليه السلام أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والانصار ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك رد عليه السلام الى هوازن أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مئة من الأبل فحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً الى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه الى المدينة لست ليالٍ بقيت من ذى القعدة

## تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة الى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن

يتجهزوا لغزوم الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه في مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأن التأهب لها كان في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة ( بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر ) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب اليه وأسره وجاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع الى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلا الى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله في سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محارباً

## التشريع في المدينة

بينا فيما سبق أن الذي نزل بالمدينة من القرآن احدى وعشرون

سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن

ويمتاز المدنى من القرآن عن المكي منه بأمرين (الاول) مافيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثانى) ماتناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعني بالدينية ماشرعه لاصلاح النفوس وتهذيبها وهى التى يطلق عليها المسلمون اسم العبادات والاجتماعية ماشرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب فى تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة فى اليوم الذي اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة فى سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف فى حال تقابل الصفوف وقد بينها فى سورة النساء : ثم زاد المسلمين حثاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع فى المدينة في السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذى نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك في سورة البقرة

(٣) الحج شرع فى المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج فى موضعين من سورة البقرة (الاول) فى قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم) (الثانى) فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) إلى قوله (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه

لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وذكره في سورة آل عمران من قوله (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) الى قوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً

وقد بين فى سورة الحج المكية شىء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الانعام) الآيات.

ولم يحج عليه السلام الا في السنة العاشرة من الهجرة وتسمي حجته بحجة الوداع لأنه ودع فيها الناس وقال لهم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا و بين لهم تفاصيل الحج عملاً

(٤) الزكاة لم يرد في تفصيلها فى الكتاب شيء جديد وإنما بينتها السنة و بين القرآن مصارفها فى سورة التوبة

الشرائع الاجتماعية

كنا نحب أن نجعل فى مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من العبادات لم نستجز أن نخالفهم والافواضح أنهما من الشرائع الاجتماعية لان الغرض من الزكاة إعانة الاغنياء للفقراء فهي أمر مالى محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاماً يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله.

ماورد فى الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع

الاول — مايتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذى يسميه الناس الآن أحوالا شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الافرنجي

ولكننا لانستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالامر الشخصي الذي ترجع أوامره ونواهيه الي الشخص وحده وانما هوأمور اجتماعية عامة وهي أليق المشروعات باسم الاحوال الاجتماعية العائلية ان رضي لنا أهل اللغة باسم العائلة والاّ سميناها الاحوال البيتية لأنها ترجع الى تكوين البيت ونظامه

الثاني — مايتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث — مايتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمي عقدته (ميثاقاً غليظاً) وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودة ورحمة) وجعل كلاً من الزجين لباساً للآخر (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) ومعني هذا أنكم تسكنون اليهنّ ويسكن اليكم كما قال جعل لكم الليل لباساً أي تسكنون فيه

(٢) حرم التزوج بنساء بينهن فنهي في البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى في سورة النساء عن تزويج نساء بينهنّ من أول قوله تعالى ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الآيات

وأجاز فى سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب

أباح التزوج بأكثر من واحدة الى أربع ولكنه اشترط لذلك أن لايكون المتزوج خائفاً من عدم العدل فهو إذاً مأمور بالاقتصار على الواحدة والاسلوب الذي جاءت به آية إباحة التعدد مما يلفت نظر الانسان الي التنبه

جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما نهي عنه الشارع فانهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامي كانوا يخافون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لهم إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامي فكذلك خافوا أن لا تعدلوا في النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع) يعنى إن أمنتم أن تعدلوا فانه قال بعد (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ومما يلفت النظر أنه قال في السورة نفسها (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

(٣) أمر باعطاء النساء مهراً عند التزوج (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدئ به ولا ينتهى اليه

(٤) العشرة : كثر في القرآن وصاية الرجل بالمعروف في معاشرة امرأته (فامساك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فأمسكوهن بمعروف) البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة في البيت (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وهذه الرياسة لا تجعل له امتيازاً في الحقوق فان الكتاب يقول (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدي لها من الحقوق مثل الذى يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك في جملة وجيزة هي أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين

اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتي لا تحل بسبب ما يحصل بين الزوجين من النفور فأول الامر شكك الزوج فى وجدانه اذا أحس من

نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج ( وعاشروهنّ بالمعروف فان كرهتموهنّ فعسي أن تكرهوا شيئاً و يجعل الله فيه خيراً كثيراً ) وأي زوج لا يتأثر مما اذ كره الله بشكل توقع فانه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل . ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين أنهم ان خافوا شقاقاً بين الرجل و زوجه أن يبعثوا حكماً من أهلها وحكماً من أهله للسعي في التوفيق حتي لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين اذا كان الحكمان يريدان اصلاحاً فقال ( وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما )

واذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق امراً لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً لهما ( وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ) وشرع في الكتاب نظاماً للطلاق لو اتبع كما جاء لافاد المسلمين وأزال عنهم وصمات شائنة هي لاصقة بهم ماداموا على حالهم

بين ذلك النظام في سورتين من الكتاب إحداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الانسان بعدهما بين الامساك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لان ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتنتظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيته و رضيها وينظر الزوج امرأة غيرها فربما رضيته و رضيها فان حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثاني وظنت هي وزوجها الاول أن في امكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح

عليهما إذا تراجعا ( فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله )

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها ان لم يبد للزوج أن يعود الى عشرة زوجته باحسان ( وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ) وحتم أن هذه المدة تقيمها المرأة في بيتها الذي كانت تعيش فيه معززة وجها لاتخرج ولاتخرج الا أن كانت بذيئة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة اقرؤا ان شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله فى حكمة بقائها فى بيتها ( لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ) ثم قال ( فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله )

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر للمرأة اذا طلقت بمتعة عوضاً عما يكون قد نالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال ( ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ) وقال ( وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ) وقال ( فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا ) وقال ( وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً واثماً مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا؟ )

فلا نرى الكتاب اهتم بامر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام

( ٥ ) فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضاً بعد أن كانت العرب لاتورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله ( للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما

قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ) ثم بين تلك الأنصباء بيانا تاما في سورة النساء

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إنما يأكلون في بطونهم ناراً وبين الوقت الذي يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين في أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا التصرف فى أموالهم

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلي قوى فالذين يقولون ليس في الاسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جداً عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب

---

## المحاضرة السادسة عشرة

## المعاملات — الحدود — الدعوة ونتائجها

### المعاملات

جمع الكتاب آساس المعاملات فى مواضع من كتابه

(١) أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الانسان للانسان

(٢) نهي عن أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة ( إلاّ أن تكون تجارة عن تراض منكم )

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهي ومثل آكليه أشنع تمثيل كما ترونه فى سورة البقرة

( ٤ ) بين شكل التعامل في أطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر فيها امراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها ( ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها ) ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة ان لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم الى أنفسهم وذممهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من اؤتمن أن يؤدي أمانته

هذه هي الأصول العامة التي اعتني الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها :

( ١ ) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة النور في موضعين ( الاول ) ( يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتي يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكي لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ) الثاني في آخر السورة حيث يقول ( يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ) الى آخر الآيتين

( ٢ ) نهى النساء عن أن يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وهو ما كان علي الأعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح ابداء الزينة بحضر أقارب لهن سماهم في سورة النور وأمرهن في الاحزاب بأدناء الجلباب ليكون شعاراً للحرائر حتي لا يتعرض لهن احد

فى طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة

(٣) أمر فى التحية أن يحيا الانسان بأحسن من تحيته أو بمثلها الى غير ذلك من الآداب الخلقية التي بها يتم تعاطفهم و إلفهم

## الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص ، وأثبت في سورة الاسراء أن من قتل مظلوماً فقد جعل الدين لوليه السلطان ونهاه أن يسرف في القتل وكان ولى الدم عند العرب أقرب عاصب للانسان (و يتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذى صار له الحق أن يقيم دعوى القصاص وغيرها لأن العصبية العربية لم يعد لها أثر) و بين فى البقرة أن كتب القصاص في القتلى وأن القصاص لا ينبغي ان يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك الى ساداته والأنثي بالانثي ولا ينبغي ان يتجاوز ذلك الى رجالها او عصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق في القصاص وهو الولى وذكر الكتاب أن من الشرائع التي كتبها على قوم موسى القصاص قال (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص)

أما الحدود فقد ذكر منها ثلاثة (الاول) حد الزاني وقد جعله الكتاب مائة جلدة (الثاني) حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدان فى سورة النور (الثالث) حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد (الرابع) حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله

ويسعون فى الارض فساداً أن يقتلهم الامام أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الارض ، وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات على شكل التخيير ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل حال فان الكتاب قال فان تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم وهذان الحدان فى المائدة

هذه جملة صغيرة من النظام الذى شرعه الله فى هذا الدين ليكون أساساً لاعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتتوسعوا فيما أشرنا اليه

الدعوة ونتائجها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا فى دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالانصار وكاد الاسلام يعمهم لو لا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الاسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه الا أنهم كانوا فى الظاهر مشاركين المسلمين فى الاسلام وأضمروا خلاف ما أظهروا فسماهم المؤمنون باسم المنافقين ، ويظهر لى أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فانى لم أر العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الاسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى أنه لما مات عبد الله ابن أبى بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه فى قميص له ونزل في قبره مع أنه كان سبباً عظيماً فى مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف

قلوب القوم ويود لو يكون باطنهم كظاهرهم لأن في هذا قوة كبرى

ودخل فى الاسلام قليل من يهود المدينة كعبد الله بن سلام ومن سار على رأيه : كان عليه السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل اليهم الرسل ويكتب اليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل أن ينتهى الحال مع قريش ، ومما يزيد التردد عندهم أن الحرب كانت بين الفريقين سجالا فان انتصر المسلمون ببدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في الخندق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجهاً لوجه كل ذلك، كان مما يجعل الدعوة فى سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن في الدين الاسلامي فكان ذلك سبباً مهماً من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم باسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك ما يعارض هذا الاثر . حتي اذا فتحت مكة ودخلت قريش في الاسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فان الظفر ببيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال الا بمعونة من الله القادر الذي يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الاباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجاً قد دانو بالاسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود

فممن وفد عليه ثقيف . بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلي الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الاسلام عم من بجانبهم فأرسلوا عنهم وفداً يبايع الرسول على الاسلام وفى مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا

عليه ضرب لهم قبة فى ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الاسلام وطلبوا منه أشياء أباها عليهم وأشياء أعطاهم إياها طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لاخير في دين لاصلاة فيه وطلبوا منه أن لايكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص منهم وكان أحدثهم سناً لانه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله ياعثمان تجاوز في الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فان فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاما

وممن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطارد بن حاجب بن زرارة والاقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد الى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج الينا يامحمد وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنوه لخطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه على خطبته قيس ابن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى فى خطبته على المهاجرين والانصار ثناءً دينياً . ثم قام شاعرهم فالقي كلمة يفتخر وأولها

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ماقال حسان وأولها

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضي بهم كل من كانت سريرته ... تقوي الآله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم · أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة · ان الخلائق فاعلم شرها البدع

ولما فرغ حسان قال الاقرع بن حابس وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولاصواتهم أحلي من أصواتنا ولما فرغ القوم أسلموا وأجازهم عليه السلام

وممن وفد من قيس: بنو عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنو عامر قالوا لابن الطفيل ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم قال والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتي من قريش؟! ثم سار اليها مضمراً غدراً فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد

وقدم عليه وفد بنى سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلا جلداً أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبد المطلب فقال عليه السلام أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم قال يا ابن عبد المطلب اني سائلك ومغلظ عليك في المسئلة فلا تجدنّ عليّ في نفسك قال لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك الينا رسولا؟ قال اللهمّ نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الانداد التى كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال اللهمّ نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال اللهم نعم ثم جعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع

الاسلام كلها حتي إذا فرغ قال فانى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض واجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم خرج حتى أتي قومه فما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا امرأة الا مسلما بعد أن علمهم الاسلام وشرائعه

وممن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلي وكان نصرانيا فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكا بالاسلام

وممن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة، ومنهم مسيلمة بن حنيفة الذى لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم فأسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا إلي بلادهم ارتد مسيلمة وادعي النبوة وصار يسجع لهم أسجاعا يحاكى بها القرآن

وممن وفد عليه من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن إسلامهم وقال عليه السلام في زيد ماذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءني الا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل فانه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه زيد الخير وأقطعه فيداً وأرضين معه، ثم وفد عليه من طيء عدى بن حاتم الطائي فأسلم وحسن إسلامه والسبب في وفادته أخته

ثم أقبل عليه وفود من مراد وزبيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حمير باسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان وبعث اليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي باسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب اليهم الرسول عليه السلام كتابا بين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلا من أصحابه يفقهون الناس فى الدين

وممن كتب إليه باسلامه فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي ومقامي

ثم قدم عليه وفد بني الحرث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألهم عليه السلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا له كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامي وافداً عن قومه وقدم وفد همدان يتقدمهم ذو المشعار المكني بأبي ثور

وهكذا دخل الناس في الدين أفواجاً حتي كان رسول الله في حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة أكثر من مئة ألف كلهم دانوا بهذا الدين في حياته صلى الله عليه وسلم والذين لم يكونوا معه في هذه الحجة أكثر منهم أضعافاً مضاعفة الا أنه لا يمكننا القول ان الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لانه كان في وسطهم كثير من الاعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لساداتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعدما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ولم تكن تعاليم الاسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة ( الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ) ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ) وقد أثنى على آخرين منهم فقال ( ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها

قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم)

أما الحاضرون منهم فى المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الاسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم يقتصر في دعوته على الجزيرة العربية بل أرسل كتبه ودعاته الي الملوك ورؤساء الامم الى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف في سبيل دعوته ومعلوم بالبداهة أن الدعوة في تلك الازمنة وتلك الحكومات لابد أن تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لانهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حريته اذا كانوا مخالفين له

اختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة وأرسلهم الى الملوك فاختار دحية بن خليفة الكلبي رسولا الى ملك الروم وكتب له كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فان إثم الاكارين عليك)

وننقل هنا ما رواه ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب قال كنا قوما تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتي أنهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن أن لا نجد أمنا فخرجت في نفر من قريش تجاراً إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة نقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الاعظم وكانوا قد استلبوه إياه فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله خرج منها يمشي على

قدميه متشكراً لله حين رد عليه ما رد ليصلي في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقي عليه الرياحين فلما انتهى الى إيليا وقضي فيها صلاته ومعه بطارقته وأشراف الروم اصبح ذات غداة مهموماً يقلب طرفه الى السماء فقال له بطارقته والله لقد أصبحت أيها الملك الغداة مهموماً قال أجل رأيت في هذه الليلة ان ملك الختان ظاهر قالوا له ايها الملك مانعلم أمة تختتن الا اليهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث الى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم فوالله انهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه اذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الاخبار بينها فقال أيها الملك ان هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والابل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب فسله عنه

فلما انتهى به الى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلاده فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جردوه فاذا هو مختون فقال هرقل هذا والله الذى رأيت لا ما تقولون أعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال أبو سفيان فوالله انا لبغزة اذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا الى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا اليه قال أنتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمس به رحماً قال أبو سفيان أنا فقال أدنه فاقعدني بين

يديه وأقعد أصحابي خلفي ثم قال إني سأسأله فان كذب فردوا عليه فوالله
لو كذبت ما ردوا على ولكني كنت امرأ سيداً أتكرم عن الكذب
وعرفت أن أيسر ما في ذلك ان أنا كذبته أن يحفظوا عليَّ ذلك ثم
يحدّثوا به عني فلم أكذبه فقال أخبرني عن هذا الرجل الذى خرج بين
أظهركم يدعي مايدعي قال فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره واقول له أيها الملك
ما يهمك من أمره انشأنه دون مايبلغك فجعل لا يلتفت الى ذلك ثم قال أنبئني عما
أسألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أوسطنا نسباً قال هل كان أحد من
أهل بيته يقول مثل مايقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك
فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لا قال فاخبرني عن أتباعه
منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما
ذووالاسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد قال فاخبرنى عمن تبعه
أيحبه و يلزمه أم يقليه و يفارقه قلت ما تبعه رجل ففارقه قال فاخبرنى كيف
الحرب بينكم و بينه قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال هل يغدر فلم
أجد شيئاً مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها قلت لا ونحن منه فى هدنة ولا
نأمن غدره فوالله ما التفت اليها مني ثم كر على الحديث قال سألتك كيف
نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبي اذا
أخذه لا يأخذه الا من أوسط قومه نسبا وسألتك هل كان أحد من
أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا وسألتك هل كان له فيكم
ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا
وسألتك عن اتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والاحداث والنساء

وكذلك اتباع الأنبياء فى كل زمان وسألتك عمن يتبعه أيحبه و يلزمه أم يقليه و يفارقه فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلباً فتخرج منه وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا فلئن كنت صدقتنى ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه انطلق لشأنك قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى على الاخرى وأقول أى عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أصبح ملوك بنى الاصفر يهابونه فى سلطانهم بالشأم . وقدم عليه إذ ذاك دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ترجمه لقيصر جمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فاظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال إنما قلت ما قلت لاختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب فى احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حيثما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الامر قبل استفحاله

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة إلى المنذر ابن الحارث بن أبى شمر الغساني صاحب دمشق وكتب اليه (سلام على من اتبع الهدى وآمن بى إني أدعوك الي أن تؤمن بالله وحده لاشريك له يبقى لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكي منى أنا سائر اليه ولم يسلم

وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي بكتاب يدعوه فيه إلى الاسلام و يطلب منه أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجرى الحبشة ففعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفراً وأجاب إلى الاسلام كما أعلن

بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ومعه كتاب فيه ( بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسري عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله و رسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حياً أسلم تسلم فان أبيت فانما عليك إثم المجوس ) فمزق كسري كتابه ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم قال مزق الله ملكه ثم كتب كسري الي باذان عامله على اليمن ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فاختار باذان رجلين ممن عنده بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معه الى كسرى فلما قدما المدينة وقابلا النبي صلي الله عليه وسلم قال له أحدهما إن شاهنشاه ملك الملوك كسري قد كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني اليك لتنطلق معي وقالا قولا تهديديا . فى ذلك الوقت كان شيرويه بن كسري قد قام علي أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحى فأخبرهما بذلك فقالا هل تدري ما تقول إنا قد نقمنا عليك ماهو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى و ينتهى الى منتهي الخف والحافر وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء فخرجا من عنده حتي قدما على باذان فاخبراه الخبر و بعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه وقال له شيرويه في كتابه انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي اليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى وكان ذلك سبباً فى

سلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الابناء

وبعث حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذى بعث إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم بمارية القبطية أم ابرهيم فكان بذلك الرحم التى بين العرب وأهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفي وبعث العلاء ابن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلي جيفر وأخيه عباد الأزديين

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدعوته و يطلب منهم اتباعه وكان هذا الاعلان سبباً فى إجابة بعض وشاغلا لفكرة الآخرين فلم يلحق بربه الا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه و فى غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات

## المحاضرة السابعة عشرة

## صفة الرسول وأخلاقه وبيته — ختام القرآن — الوفاة

### صفته وأخلاقه و بيته

ومما كان سبباً كبيراً في نجاح الدعوة الاسلامية على يدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه وقد كان بعض المدعوين لايحتاج الى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة -حينما أخبرها بأمره أول مرة- ما كان الله ليخزيك أبداً انك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . الاخلاق

الفاضلة في الداعي ملاك أمره كله ألا ترى الله سبحانه يقول ( ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ) وهذا واضح فانه يستحيل أن ينال بالشدة قلب لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الاخلاق والعادات حسبما اتصل الينا

النظافة الظاهرة — مما يروي عنه عليه السلام بني الدين على النظافة وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى أنه لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد الا عرف أنه سلكه من طيبه وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها

العقل والذكاء — لا مرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلا عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة ساس تلك الامة الجافية حتي كان أحب الى أفرادها من آبائهم وأبنائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج بعد معونة الله وتوفيقه إلى أكمل عقل وأرجحه

فصاحة اللسان و بلاغة القول — كان عليه السلام من ذلك بالمحل الافضل والموضع الذي لايجهل سلاسة طبع و نصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها و يحاورها بلغتها ليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني

وطهفة النهدي وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين في المأثور من كلامه الجامع ومنه مالا يوازي فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله (لاخير في صحبة من لا يري لك ما تري له — الناس معادن — ما هلك امرؤ عرف قدره — المستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم — رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم ـ ان أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ـ ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عندالله ـ اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ـ الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا قليل من كثير . قال له أصحابه يوما ما رأينا الذى هو أفصح منك فقال وما يمنعني وانما أنزل القرآن بلساني لسان عربى مبين وقال مرة أخرى أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بنى سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها الى التأييد الالهي الذى مدده الوحي الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال له ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) وقد بين له الوحي معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له ( واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الامور ) وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ) وقال ( ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور ) ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله . كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الاذى الا صبراً وعلي اسراف الجاهل الا حلما قالت عائشة ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين

قط الا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فان كان إثماً كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ولما حصل له بأحد ما حصل قيل له لو دعوت عليهم فقال اني لم أبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له الرجل اعدل فان هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده في جوابه أن بين له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل ان لم أعدل خبت وخسرت ان لم أعدل ونهي من أراد من أصحابه قتله. لم يؤاخذ عبد الله بن أبي وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم فى جهته قولا وفعلا بل قال لمن أشار بقتل بعضهم (لا لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتي عليه وحسبك صبره علي قسوة قريش وأذي الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما أظفره الله عليهم وحكمه فيهم ما زاد على أن قال اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا

الجود والكرم - كان عليه السلام في هذا الخلق لا يبارى بهذا وصفه كل من عرفه قال جابر ماسئل عليه السلام عن شيء فقال لا وقال ابن عباس كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع الى بلده وقال أسلموا فان محمداً يعطي عطاء من

لا يخشي فاقة وأعطي غير واحد مئة من الابل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل اليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام اليها يقسمها فمارد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء ولكن ابتع على فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي ذلك فقال رجل من الانصار يارسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا فتبسم صلي الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة ـ كان عليه السلام منهما بالمكان الذى لا يجهل حضر المواقف الصعبة وفر عنه الكماة والابطال غير مرة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع الا وقد احصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرون عنه وهو يقول أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب: فماروئى أحد يومئذ كان أشد منه وكان اذا غضب ولا يغضب الا لله لم يقم لغضبه شيء وقال عليّ كنا اذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعا قد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف في عنقه وهو يقول لن تراعوا

الحياء والاغضاء ـ كان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء قال ابو سعيد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء في خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه في وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة كان النبي

صلي الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد مايكرهه لم يقل مابال فلان يقول كذا ولكن مابال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهي عنه ولا يسمي فاعله وروى أنه كان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد وأنه كان يكنى عما اضطره الكلام اليه مما يكره

حسن العشرة والادب وبسط الخلق مع أصناف الخلق — قال علىّ في وصفه كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادة زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد ياقيس إصحب رسول الله قال قيس فقال له عليه السلام اركب فابيت فقال اما ان تركب وأما ان تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لايحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتي يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده فى الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لايشتهى ولا يؤيس منه وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافئ عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلي الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أُفّ قط ! وما قال لشيءٍ صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم

ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضي في أقصي المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام ويروى أنه كان لا يجلس اليه أحد وهو يصلي الا خفف صلاته وسأله عن حاجته فاذا فرغ عاد الى صلاته وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة ـ وصفه الكتاب بذلك (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم). روي أن اعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت اليك يااعرابي قال الاعرابى لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل الى الاعرابي وزاده شيئاً ثم قال أحسنت اليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنك قلت ماقلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فان أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدي حتي يذهب ما في صدورهم عليك فلما كان العشى جاء فقال عليه السلام ان هذا الاعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذلك قال الاعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فاني أرفق بها منكم وأعلم

فتوجه لها بين يديها فاخذ لها من قمام الارض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها واني لو تركتكم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار وروى عنه عليه السلام أنه قال لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر . كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم — قال عبد الله بن أبي الحمساء بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو في مكانه فقال يافتي لقد شققت على انا ههنا منذ ثلاث انتظرك . وقال انس كان عليه السلام اذا أتي بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة انها كانت تحب خديجة . دخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال انها كانت تأتينا أيام خديجة وكان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال ان آل أبي فلان ليسوا لى بأولياء غير ان لهم رحماً ماسة سأبلها ببلالها ولما قدم وفد النجاشى قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال انهم كانوا لاصحابنا مكرمين واني أحب أن أكافئهم . وكان يبعث الى ثويبة مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة فلما ماتت سأل هل بقي من قرابتها أحد فقيل لا أحد

التواضع — كان عليه السلام أشد الناس تواضعاً وأقلهم كبراً . عن أبي أمامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عصاً فقمنا له فقال لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضا وكان يعود

المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهي به المجالس جلس وكان يدعي الى خبز الشعير والاهالة السنخة فيجيب وحج على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم فقال اللهم جعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة هذا وقد أهدى في حجه ذلك مئة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأعلى رحله رأسه حتي كاد تمس قادمته تواضعا لله تعالى . ومن تواضعه قوله لا تفضلوني على يونس ابن متى ولا تفضلوا بين الانبياء ولا تخيروني على موسي . ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له هون عليك فاني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة ـ كان عليه السلام آمن الناس وأعدلهم وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوره وأعداؤه وكان يسمي قبل نبوته الامين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم الى رسول الله صلي الله عليه وسلم فى الجاهلية قبل الاسلام وروى عن على أن أبا جهل قال له أنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به وفي ذلك قال الكتاب (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وسأل هرقل أبا سفيان فقال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتي إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر !! لا والله ما هو بساحر . وفي حديث على في وصفه أصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ

أحداً بقرف أحد ولا يصدق أحداً على أحد أي لا يسمع وشاية الواشين وقال خارجة بن يزيد كان النبي صلي الله عليه وسلم أوقر الناس فى الله عليه وسلم أوقر الناس فى مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسماً وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانه لا ترفع فيه الاصوات ولا تؤبن فيه الحرم اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير

وعلى الجملة فقد كان عليه السلام محلى بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أثني عليه الكتاب فقال مخاطباً له ( وإنك لعلى خلق عظيم ) وكانت هذه الخلال مما قرب اليه النفوس وحببه الى القلوب وألان من شكيمة قومه بعد الاباء وجعلهم يدخلون فى دين الله أفواجاً مناصرين موازين ولو لم يكن له الا ذلك مما يثبته التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه فضلاً عما أيده الله به من المعجزات وقد أفاض القول فيها كتاب السير

## البيت النبوي

كان البيت النبوى في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الاسدية من قريش وهي أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها فى حياتها . وقد كان له منها أبناء و بنات فأما الابناء فلم يعش منهم أحد فانهم توفوا بمكة وهم القاسم الذى كان يكنى به عليه السلام وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر . وأما البنات فكن أربعة

زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة — فاما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزي بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هي بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالا فلما رأى الرسول القلادة رق لها رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضى بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام عهداً على أبى العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص الى مكة سرح زينب حتى اذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً الى الشام وكان رجلا مأمونا بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد الى مكة بعد خطب طويل ورد المال إلى أهله ثم عاد إلى المدينة مسلماً فرد النبى صلى الله عليه وسلم اليه زوجه زينب ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجا جديداً وإنما ذلك بالعقد الأول . وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الاخرى وأما فاطمة فقد تزوجها على بن أبى طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب وبعد موت خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لاغراض كثيره سنبينها بعد أن نذكرهن

كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة منهن تسع مات عنهن واثنتان توفيتا فى حياته احداهما خديجة واثنتان لم يدخل بهما وها هي أسماؤهن

(١) سودة بنت زمعـة بن الاسود من بنى عامر بن لؤى من قريش وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو

(٢) عائشة بنت أبى بكر الصديق وكانت بكراً و يقال إنها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبنى عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان أوتسع وفي النفس شيء من تقدير هذه السن

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب و كانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي

(٤) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بنى مخزوم وكانت قبله عند ابن عمها أبي سلمة بن عبد الاسد

٥) أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب من بني أمية وكانت قبله عند عيد الله بن جحش

وهؤ لاء الخمس كلهن من قريش تضاف اليهن خديجة فتكون القرشيات ستاً من هذه البطون — عبد مناف ـ أسد بن عبدالعزى ـ مخزوم بن يقظة تيم بن مرة ـ عدى بن كعب ـ عامر بن لؤى

(٦) زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة ومن حلفـاء بنى أميـة وهي بنت عمته وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذى كان معتبراً ابناً للنبي صلى الله علية وسلم وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبنى فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعـلم النـاس أنه لم يعـد للتبـني حرمـة وكان عليه السلام يخشي اعتراض أعدائه عليـه لأن عمـله هـذا يخالف ما أطبقت عليـه عامة العرب فأخـفي في نفسه ما أمر به من هـذا الزواج ولذلك كان هناك في الخطاب نوع شـدة (وإذ تقول للذي أنعم الله عليـه

وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضي زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ) فيبنت الآية أنه كان يقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتد بينهما فأحب ان يفارقها — وتخفي في نفسك ما الله مبديه وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد وهذا هو الذي أبدته الآية — وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه — تخشي الناس أن يعيروك فيقولون تزوج زوج ابنه — ثم أبدى ما أمر به وهو قوله فلما قضي زيد منها وطراً زوجناكها وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد ولقد هدم قاعدة التبني قولاً كما هدمها فعلاً فقال أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله وقال ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة وهى التي عتق بسبب زواجها هذا من كان أسر أوسبي من قومها وأسلم أبوها

(٨) ميمونة بنت الحارث من بني هلال بن عامر بن صعصعة وكانت قبله عند أبى رهم بن عبد العزى من بنى عامر بن لؤى

(٩) صفيه بنت حيي بن أخطب من بنى أسرائيل، وكانت قبله عند كنانة ابن أبى الحقيق وهؤلاء التسع هن اللائي توفي عنهن

(١٠) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت تسمي أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن المطلب ابن عبد مناف وهذه توفيت في حياته

هؤلاء احدى عشرة سيدة تزوجهن الرسول و بنى بهن منهن ست من قريش وخمس من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يبن بهن . وتسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس فأولدها ابنه ابراهيم الذى توفي صغيراً بالمدينة في حياة أبيه وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين سماهن بذلك الكتاب فقال ( وأزواجه أمهاتهم )

يظهر لنا أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم رأي في ان يجمع في بيته نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فان الصهر كان عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة اكبر مساعدله ومبعداً عنه أذى كثيراً من أعدائه فلما كان بالمدينة صاهر اكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب و بني إسرائيل وقد كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما في جويرية وزينب وصفية

وكان لامهات المؤمنين فضل كبير فى نقل احواله المنزلية للناس خصوصاً من طالت حياته منهن كعائشة فانها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله وتجدون فى سورة الاحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً )

ختام القرآن

أعلن القرآن ان نزوله قد انتهي فى يوم الحج الاكبر من السنة

العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة الا أنها لم تجمع فى مصحف واحد فى حياته وقد تم ذلك في خلافة ابى بكر (راجع خطابنا الذى ألقيناه بنادى دار العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادى فى تلك السنة)

الوفاة

فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة ابتدأ عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحمى فاستأذن نساءه أن يتمرض فى بيت عائشة فاذن له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال (يامعشر المهاجرين استوصوا بالانصار خيراً فان الناس يزيدون وأن الانصار على هيئتها لاتزيد وأنهم كانوا عيبتي التي أويت اليها فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) وأمر أبا بكر أن يصلى بالناس فصلى بهم مدة مرضه

ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ (٨ يونيه سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاته أبو بكر حيث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

وحينذاك خرج أصحابه الى سقيفة بنى ساعدة يأتمرون فيمن يخلفه حتى بويع أبو بكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل فى قميصه وكفن فى ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً أفراداً دخل الرجال أولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الاربعاء وكان قد صنع له لحد فى الموضع الذى مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التى كانت فى الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها

وكانت سنه عليه السلام ثلاثا وستين سنة قمرية

## المحاضرة الثامنة عشرة

### — الخلافة —

#### الخلافة

قد كان للرسول صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لامته (الاولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التى اختير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماماً للمسلمين تجتمع اليه كلمتهم يوجهم الى الخير ويبعدهم عن الشر واليه القضاء فى مشكلاتهم بحسب مايوحى اليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الاحكام

والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد الا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية ان ساغ لنا أن نسميها

كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها

والوظيفة الثانية هي التي اختصصنا بها محاضرتنا هذه

لم ير المسلمون بداً من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافه المسلمين . ولم يوجد بين هذه الأمة شيء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين (الاول) البيت الذى يكون منه الخليفة (الثانى) الشكل الذى به ينتخب الخليفة

بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أى اشارة الى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قريش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وأن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة

لم يدفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرتان (الاولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الاولى) تخصيصها بالبيت القرشى على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلي الله عليه وسلم وكان أقرب الناس اليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بنى عمه علي وعقيل إبنا أبى طالب ويمتاز علي من بينهم بسبقه الى الاسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بانه العاصب الوحيد له ان كان هناك إرث.

رأي عدم التخصيص كان للانصار فانهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والايواء والمساعدات العظيمة التى قاموا بها وان لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء فى أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطرى بن الفجاءة وليس من قريش وانما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من امامة المسلمين انما هو توجيههم الى الصلاح وابعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين فى ذلك الى بيت أو قبيلة بل الى ما فى الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون فى رأيهم الى قاعدة وضعها القرآن وهى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأي التخصيص بقريش كان فى ذلك الوقت رأياً للجمهور لما رواه أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفاً عن علة هذا التخصيص بقوله ان هذا الامر ان تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب الاً لهذا الحي من قريش ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون استنتاجه أن السر فى تخصيص قريش بالخلافة انما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فاذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيماً وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هي العصبية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه كان

من الممكن أن تكون الخلافة فى غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة

ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلي بن أبي طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك فى حديث له مع أبى بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذي رآه لنفسه أذعن لرأى الجمهور

مكث الرأي الأوسط سائداً والأخير خامداً لا يجدله محركاً حتي كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الاسلامية دعاة له ينبهون الناس اليه ويقبحون من خالفه اذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الأمة شديد الاحساس فسرعان ما تنبه وقد كان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب فى سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الامر للخليفة الرابع علي بن أبى طالب لانه قام فى وجهه نصف الامة قادماً اليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التى قصدمنها إقرار الامر فى نصابه من بيت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة واحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بنى أمية وليس من بني هاشم

عادت فكرة الشيعة الى الخمود ولكن السيوف وان تكن تغلبت في الظاهر عليها فقد استكنت في النفوس تهيج وقتاً اذا لاح لها بارق الأمل وتكمن حيناً انتظاراً للمستقبل

مازال أبناء علي يرون هذا الحق لهم ارثاً لا ينازعهم فيه الا ظالم

وتتمنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هـذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد علي الخروج فيخرجون ثم تـكون العاقبة قتلاً وتمثيلاً الا أن هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججاً والقلوب تأثراً لانه كان يعطى الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون بها العيون فما كان أكثر مايقولونه من الشعر المأثور فى تمثيل الحسين معفراً بدمائه بكر بلاء بعد أن أذيق من العطش الـكروب وأهل بيته يساقون سبايا الى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بنى أمية حتى ينقاد الناس إلى من يدعوهم للقيام إلى رد الحق لأهله

لم يكن أحد من الناس يفاضـل بين بنى على وبنى العباس فى استحقاق الخلافة بل كان بنو علي يرون الحق لهم خالصاً لما لأبيهم من الامتيازات الـكثيرة ولـكن بنى العباس وجدت عندهم فـكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبى هاشم بن محمد بن على عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالأمر إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس مع اضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علي لأن الأول عم والثانى ابن عم فاشتغلوا فى الأمر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس اليهم سراً فى دولة بنى أمية واتصـل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو مسلم الخراساني فتم لهم الامر ورد اليهم الخـلافة بعد أن أسقط بنى أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس الى الرضا من أهـل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الأمة كان توجهها الى علي وأهـل بيته أكثر من توجهها الي بني العباس فلما تم له الامر أعلن اسم عبـد الله السفاح ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوي والعباسي ، فكان نصيب آل على في خلافة بني هاشم أشد وأقسى مما لاقوه في عهد خصومهم من بني أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد ، وخصوصاً في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل إلى واحد من بني على كافياً لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلاً لبعض الوزراء وغيرهم

الا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق على وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون على بني العباس كما كانوا يخرجون على بني أمية والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لا تنالها قوة العباسيين ومن بقي منهم بالشرق سكت على ما في نفسه

ذهب الفارون إلى أفريقية بعد أن سبقهم دعاتهم فأسسوا بها دولا علوية لها كبير ذكر في التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرهما ممن سيأتي ذكرهم بعد والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل اليهم في السر حتي كان شيء من ذلك فيما يقال سبباً من أسباب سقوط الدولة العباسية فان ابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء التتر الى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان ـ اذ ذاك في الممالك الاسلامية ـ لمصر وملوكها فساعدوا على اعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد اليهم حتى يكون سلطانهم مقبولاً لا يتكلم الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف في البيت الذي يكون منه خليفة المسلمين

## شكل الانتخاب

لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهمّ الا تلك الأوامر العامة التي تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى ( وأمرشورى بينهمَ ) وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة الا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا الامر للمسلمين حتي يحلوه بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما. ولننظر ماسار عليه المسلمون في ذلك وهاهي طرائقهم

(١) الطريقة الأولى طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت في انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة وتشاوروا في الأمر ثم انتخبوا أبابكر - بعد حوار وجدال - ولكن انتخاب أبي بكر كان أمراً يحتاج الى السرعة في البتّ حذر الاختلاف والفشل. ويظهر أن المجتمعين في السقيفة لم يكن فيهم أحد من قريش يتطلع للخلافة دون أبي بكر أول رجل سبق إلي الاسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فضلاً عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلي بالناس نيابةً عنهُ في وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب أوأبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهي الامر بسرعة فمد يده إلى أبي بكر

فبايعه فتابعه الناس وقد أثر عن عمر أنه قال ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها قال ذلك لما علم أن بعض الناس قال لو أن أمير المؤمنين مات لبايعت فلاناً : مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس الهيئة التى لها الحق فى انتخاب الخليفة إلا أنها سنت الانتخاب من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية: أن يعهد الخليفة الموجود الى شخص آخر بعده الخلافة وهى الطريقة التى كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال للناس هل رضيتم من أخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية فى انتخاب ولي عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة: طريقة الاختيار الشوري من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان فان عمر لما ضرب وأحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاختار ستة من كبار الصحابة وممن يرى أنه لا يتطلع لامر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاماً ينتخبون به الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته فى حجرة عائشة ويختاروا الخليفة فى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للاغلبية الرأي المقبول فيجب على الاقل الرضوخ لحكمها والا اعتبر خارجاً يستحق القتل واذا تساوت الاصوات كان القسم الذى فيه عبد الرحمن بن عوف مرجحا

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتاً حسناً ولكننا لم نر فى مستقبل الامة من تناولها فضلا عن أن يحسن فيها : لا ينكر أنها

طريقة شورية ناقصة لانه لم يكن القصد منها أخذ رأي الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وانما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لاحدهم حتي لايجد محبو الخلافة مجالا للخلاف ويظهر لنا أن عمر كان محسابأن كلا منهم يتطلع لان يكون خليفة وخاف على الامة الشقاق من بعده فعهداليهم عهده ونظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر فى ذلك من قبل بعدأن سمع عبارة الرجل التى سبق ذكرها

لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الاطراف لان الطريقة الاولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترماً أهم الامة بأسرها أم هم أفراد مخصصون؟؟ وان كانوا مخصوصين فمن هم ؟ وغاية ماأمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد، ولكن من هم أهل الحل والعقد؟ أهم ولاة الامصار أم قواد الجيش أم أعيان الامة ؟؟؟ كل ذلك لم يبين فالمتطلع للخلافة يجد مجالا واسعا للتأويل كما حصل عند استخلاف على . والطريقة الثانية وهي طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً علي حماية مصالحها وان يكن من الممكن فى بعض الاحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل فى انتخاب عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز والطريقة الثالثة ـ فى حقيقة الامر ـ كالثانية اذا اقتصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لانها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الامام لذلك لما جاء دور علي قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأي غيرهم من المسلمين

في الحواضر الاسلامية كان أهل المدينة - وحدهم - هم الذين ينتهي اليهم
أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معهم رأى ولو كانوا من أهل الحل والعقد
في الامة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبري : كان ممن يترقب الخلافة
ويري نفسه لها أهلا معاوية بن أبي سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنه مخالف لان
بيعة على ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين الطرفين في سهل صفين فلما
عضتهم الحرب بنابها عمدوا الى شيء سموه تحكيما ومعنى ذلك أنهم انتخبوا
رجلين من كل فريق أحدهما له هوي في صاحبه وأريد منهما أن يحكما في
أهم مشكلة تهم الامة الاسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكمين
لم تكن محدودة لانهما لم يقتصرا في البحث على الحكم بين الشخصين
المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث في خلعهما معا وتولية شخص آخر
وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس
ولا حدود ولكنه أوجد للمتنازعين خصما ثالثا قوي الشكيمة وهم الخوارج
الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقا من الدين منادين بشعار اتخذوه
لهم وهو لا حكم الا لله وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل
الله فلا ينبغي له أن يكون في شك من أمره ولما كان على هو الخليفة وحكم
الناس في أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح في نظرهم للخلافة
وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك
كونوا لهم جماعة أعطوها الحق في أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب
ورأوا أن جميع مخالفيهم كفار فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يضعوا
لامرهم حدوداً مقررة ولذلك تطرق اليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردهم

الخلفاء بما عندهم من القوة حتي لم يكن منهم فائدة لا لانفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة : انتهى أمر علي واستقر الامر لمعاوية بفضل قوته وسياسته و يسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفي نظرنا أن خلافته و بيعته لم تنقص في الشكل عن بيعة على بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لان معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضروري أن يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة فى الشريعة يقال ان أحدهما تعداها الا ان سرنا على رأي من يقول أن عليا معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر لم يتأكد الصحابة من صحته

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه في ولاية العهد علي أن الخليفة هو الذى يعينه كما هي طريقة أبى بكر فى عهده لعمر الا أن بينهما فرقا وهو أن أبا بكر اختار رجلا ليس من ذوي قرابته بل من بطن آخر و بنوا أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا في الغالب أولادهم حتي تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد الى ولده يزيد ولكنه امتاز في عهده بأن طلب من ولاة الامصار أن يوفدوا اليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولى عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاة إلا من لهم هوى في بقاء الامر في عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الامر، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لانفسهم فرشحوا ابنه يزيد للامر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم علي ذلك

غيرهم وبهذا أخذ إعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية العهد الا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد من كبار الصحابة من قريش ولهم فوقها شرف الصحبة فلم يخضعوا لارادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التى حصلت فى عهد يزيد من خروج الحسين بن على وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد الى ابنه معاوية الا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك العبء فى وسط هذه الظلمات الحالكة فاعتزل وترك حبل الامة على غاربها وفي تلك الظروف كانت الفتن تموج موجاً حتى استقر الامر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذى عهد بالخلافة من بعده لاثنين من أولاده يتلو احدهما الآخر وهما عبد الملك وعبد العزيز وهى أول مرة ولى العهد فيها أثنان (١)

---

(١) ومن الغريب انه مامن مرة ولى فيها اثنان الا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فان اولهما كان يميل الى نزع ثانيهما اما لانه يتوهم انه يجتهد أن يتعجل الامور لنفسه ولا يكون ذلك الا بهلاك الاول واما لان الاول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذى جعل ولى عهد له فيجتهد فى نزعه واقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولي ابنه الوليد . وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم اخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جداً من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا ان عوجل لاخرجها عنه بل عن بنى أمية جميعا وولي يزيد اخاه هشاما ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصا على الوليد حتي ساءت اخلاقه وولى السفاح عهده اخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسي ابن موسي فلم يزل المنصور بعيسي حتى أخره وقدم المهدي . وولي المهدى ابنيه الهادى ثم الرشيد فحاول الهادى ان يخلع الرشيد لولا انه عوجل وولي الرشيد ابنيه الامين ثم المامون فكان بينهما من الحروب ماادى الى قتل الامين ومن الغريب أن اللاحق لايتعلم مما اصاب السابق

ولم تزل طريقة العهد سائدة فى بنى أمية حتى انقرضت دولتهم وجاءت خلافة بنى العباس فسارت على هذا النمط الا أنه فى عهد الضعف الذى استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لأنه كان يجر من السرير الى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم للخلافة لآل أمرها إلى الفناء سريعاً بعد أن جاءها سيل المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم فى مصر والشام الا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بنى العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد على اثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين الى آل عباس ليتسمي باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه

جاء البيت العثمانى وأخضع لسلطانه كثيراً من الأمم الاسلامية التى كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره فى عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها في شكل الاختيار وهى أن تكون الخلافة للاكبر فالاكبر من البيت ومع هذا لم يخل الامر من طموح غير الاكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فان نظامهم حفظ الملك فى بيتهم أكثر مما حفظه فى أي بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوي فانه كان منظوراً فيه إلى الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقها

الفرقة الاثناعشرية فى بنى الحسين بن على وسموا علياً ومن يليه الأئمة وكانوا اثنى عشر آخرهم المهدي المنتظر الذى اختفى و ينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى في سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التي جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فنال شكل الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا فى ذلك فرقاً

لم يكن يحل الخلاف فى زمن من الأزمان الا بالقوة فهي التى تجعل صاحبها صاحب الحق ظافراً ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسعى فى جمع الكلمة على قانون يتبع فى انتخاب الخلفاء وهي نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية و يخيل الينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فان الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر اليه المتكلمين وصار أمرها موضوعاً جدلياً كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور

(١) وجوب نصب الامام أهو واجب على الامة من طريق السمع كما هو رأي الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأي المعتزله والزيدية ؟ أو من طريقهما معاً كما هو رأى بعض المعتزلة ؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الامامية ؟ أو على الله ليكون معرفاً لله وصفاته كما هو رأى الاسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأي الخوارج او يجب عند الأمن أو عند الفتنة كما هو رأي هشام الغوطي وأتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الامن كما هو رأي الاصم ومن شايعه من المعتزلة ؟

(٢) شروط الامام وقد عدوا منها شروطاً لا خلاف فيها ومنها

شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة

(٣) ماتثبت به الامامة وهو النص من رسول الله أو من الامام الموجود و بيعة أهل الحل والعقد خلافاً للشيعة ثم قالوا لايحتاج الامر الى اجماع أهل الحل والعقد بل يكفى الواحد والاثنان وقال بعضهم لابد أن يكون ذلك أمام بينة عادلة وهل يجوز تعدد الائمة أو لايجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولاي شيء يكون ذلك

( ٤ ) من هو الامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو أبو بكر أم على؟؟

( ٥ ) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ٦ ) ماحكم أمامة المفضول مع وجود الفاضل؟

وكانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة فى بعض الاحيان عديمة الجدوي من الوجهة العملية لان هؤلاء يتجادلون بأسنة الاقلام فى مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأولئك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون بالاً لتلك المناقشات كان شأنها الا يهمهم

والخلاصة: أن مسألة الخلافة الاسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن في طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ماهى عليه من غير حل محدد ترضاه الامة وتدفع عنه سبباً لاكثر الحوادث التى أضنت المسلمين وأوجدت ماسيرد عليكم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التى قلما يخلو منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين

# المحاضرة التاسعة عشرة

## انتخاب أبى بكر — أول خطاب له — ترجمته — أخلاق أبى بكر — أخبار الردة

### انتخاب أبى بكر

كانت الأنصار منقسمة إلى شعبتين الاوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الاوس والرياسة والتقدم لسعد بن عبادة من بنى ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة وهى ظلة كانت بالقرب من داره. فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الانصار فى تلك السقيفة أوسهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجهاً إلى اختيار سعد بن عبادة فان سعداً خطب فيهم مبيناً ما للانصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لا ينبغى أن ينازعهم فى هذا الامر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فان أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا، فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن.

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا اليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه

ليقوله في هذا الموقف فقال له أبو بكر على رسلك ! وكان أبو بكر رجلاً وقوراً فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين ومالهم من فضل السبق وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ثم كر على ذكر الانصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر إلا ذكره ، ثم روى لهم ما أثر عن الرسول عليه السلام من قوله ( الائمة من قريش ) ثم قال فنحن الامراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور ، فلما أتم خطابه قام اليه الحباب بن المنذر وهو من بنى جشم بن الخزرج فقال يامعشر الانصار املكوا عليكم أمركم فان الناس فى فيئكم وظلكم ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ولن يصدر الناس الاعن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء الاماسمعتم فمنا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال يامعشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقاله هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر ثم قال أنا جذيلها (١) المحكك وعذيقها المرجب أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار ثم قال أبو عبيدة يامعشر الانصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير فقام بشير ابن سعد وهو من بنى زيد بن مالك من الخزرج فقال يامعشر الانصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة وجهاد وسابقة فى هذا الدين ما أردنا به إلا رضا

---

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربي لتحتك به والعذيق تصغير العذق وهو النخلة وترجيبها أن يبنى تحتها دكان تعتمد اليه

ربنا وطاعة نبينا والكدح لا نفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغي به من الدنيا عرضاً فان الله ولي المنة علينا بذلك إلا أن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الامر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال أبو بكر هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا لا والله لا نتولى هذا الامر عليك فانك أفضل المهاجرين وثاني اثنين اذهما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك أبسط يدك لنبايعك فمد عمر يده اليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير ابن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عققت! أنفست على ابن عمك الامارة؟ قال لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم

ولما رأت الاوس ماصنع بشير وماتدعو اليه قريش وماتطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا اليه فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤن سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا على بن أبى طالب ومن معه لانهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين فى جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم

بهذا تمت بيعة أبى بكر لان جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة

كلهم إذ ذاك فى المدينة ، ولم يزل على بن أبى طالب ممتنعاً عن مبايعة أبى بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجه وكانت لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكر وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فأرسل الى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبى بكر والله لا تدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بى؟ والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد علي ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله اليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقرابة رسول الله أحب الي أن أصل من قرابتى وبعد أن أتم كلامه قال على لأبى بكر موعدك العشية للبيعة فلما صلي أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر به ثم استغفر على وتشهد فعظم شأن أبى بكر وأنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكاراً للذى فضله الله به ولكنا كنا نرى لنا في الامر نصيباً فاستبد به فوجدنا فى أنفسنا فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا إلى علي قريباً حينما راجع الأمر بالمعروف

## أول خطاب لأبى بكر

بعد أن تمت بيعته قام فى الناس خطيباً (١) فقال أيها الناس قد وليت

---

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبى بكر يظهرون بها مالا نفسهم من الخطة التى سيتبعونها فى سياسة أمتهم اجمالا

عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان صدفت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لايدع أحد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله وهذه الكلمة هي مجمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه اذا صدف عن الحق وفي هذا ضمان لحريتهم في القول أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه — حثهم على الجهاد الذي كان لابد منه — أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فاذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم

## ترجمة أبى بكر

هو أبو بكر بن أبى قحافة من بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد لسنتين من عام الفيل وشب على الاخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل و يكسب المعدوم وكان محبباً الى قريش يعرف من أنسابهم مالا يعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحداً إلى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبى بكر وكان له فى الدعوة إلى الاسلام اليد الطولى وقد أراد أن يهاجر

إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لا يستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بداً من أن يتخلص من هذا الشرط ردّ على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه ما يصيب إخوانه : لما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثاني اثنين إذ هما فى الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الاسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية فى غزوة تبوك وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على الحج في السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه فى الصلاة

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤي فولدت له عبد الله وأسماء التى تزوجها الزبير بن العوام - وتزوج في الجاهلية أيضا أم رومان بنت عامر من بنى غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التى تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتزوج فى الاسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبى طالب فولدت له محمداً - وتزوج فى الاسلام أيضاً حبيبة بنت خارجة ابن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم . فذكور أولاده ثلاثة وإناثهم ثلاث

## أخلاق أبى بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها فى أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبى بكر فانا نجد ظاهر أخلاقه

## ﴿صدق العزيمة : الرقة﴾

وصدق العزيمة أن يبحث الانسان فى الامر على قدر مايتهيأ له من طرق البحث و يستعين بآراء غيره إن كان شوريا فاذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيه شيء عما عليه حتي إذا رأي الجبال أمامه تريد صده حاول أن يفتح له منها طريقاً هكذا كان أبو بكر .

والرقة أن يكون الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التى تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر فى سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الانسان متردداً فى أموره حسب المؤثرات التى تنال نفسه فاذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

أول ماظهر من صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم هيأ بعثاً ليرسله الى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه في مؤته وكان في هذا البعث أبو بكر وعمرو وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتي كانت الوفاة و بويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الاعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فكلم فى تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبي شديد الاباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد فى الامر أو أخر البعث لكان قد شرع للناس لاول مرة مخالفة ماأمر به الرسول أمراً حتما وكان يدور على لسانه وقت مرضه

التأكيد بانفاذ بعث أسامة . ثم كلم فى أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضباً شديداً وقال يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر ؟!! واشتد في الكلام مع عمر الذى كان يكلمه في ذلك عن بعض الانصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلي الله عليه وسلم وتامرني أن أنزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضروري وجوده بالمدينة ليعين أبا بكر لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بابقائه بل قال لاسامة إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له وهذا مقام كبير فى احترام ذى السلطان فى سلطانه وفى الحقيقة ذلك راجع الي احترام الامر النبوى حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تماماً واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغى له أن يفتات عليه . ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهى

لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً اندفعوا باسم الله (١)

---

(١) في لسان العرب . وفى الحديث انه اوصي امراء جيش مؤتة ـ وستجدون آخرين للشيطان فى رءوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف اى ان الشيطان قد استوطن

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يوما ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لولم يكن للقوم قوة ماأرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية؟؟

ومما يظهر صدق عزيمة أبي بكر ماكان منه في أخبار الردة

أخبار الردة

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الاسلام ولم تزك أنفسهم الزكاء المطلوب وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) فهذه كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الإسلامية خصوصاً ماكان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيهم دعاة يدعون إلى أنفسهم مدعين أنهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) فريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله : فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين

---

رؤسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لان من كلامهم اذا وصفوا انسانا بشدة الغي والانهماك في الشر قالوا قد فرخ الشيطان في رأسه وعشش وفي حديث ابي بكر وستجد قوما فحصوا عن اوساط رءوسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف وفي الصحاح كأنهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهي مجاثمها

خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع مايعلمه من هذا الانتقاض الذى كاد يكون فى عامة الأعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شيء

فلما جاءته الأخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها فلما قدم بعث أسامة أستخلف أبو بكر أسامة على المدينة وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون ننشدك الله ياخليفة رسول الله أن تعرض نفسك فانك أن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فان أصيب بعثت آخر فقال لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى فخرج فى تعبيته حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فاقتتل جنده مع بنى عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعي سائر الربذة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذى القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الالوية عقد فى ذلك اليوم أحد عشر لواءا لاحد عشر أميراً وهم

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الاسدى ببزاخة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح

(٢) عكرمة بن أبى جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة

(٣) ووجه في أثره شرحبيل بن حسنة

( ٤ ) المهاجر بن أبى أمية ووجهه الى جنود الاسود العنسي بصنعاء ومعاونة الابناء

( ٥ ) حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان

( ٦ ) عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه فى عمله

( ٧ ) سويد بن مقرن الى تهامة اليمن

( ٨ ) العلاء بن الحضرمي ووجهه الى البحرين

( ٩ ) طريفة بن حاجز ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن

( ١٠ ) عمرو بن العاص ووجهه الي قضاعة

( ١١ ) خالد بن سعيد ووجهه الى مشارف الشام

وبعد أن عين الجنود والامراء كتب للمرتدين من العرب كتاباً واحداً ( منشوراً ) أرسله اليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال ( وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بامره وأجابة للشيطان قال الله تعالى ( وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ) وقال ( ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ) وإنى قد بعثت اليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا

قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار و يقتلهم كل قتلة وان يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الاسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولى أن يقرأ كتابي فى كل مجمع لكم والداعية الاذان فاذا أذن المسلمون فاذنوا كف عنهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغي )

فنفذت الرسل الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا .

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم لفلان . حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع فى أمره كله سره وعلانيته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام إلي أماني الشيطان بعد أن يعذر اليهم . فيدعوهم بداعية إلا سلام فان أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته . عليهم حتي يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذي لهم فيأخذ ماعليهم ويعطيهم . الذى لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وإعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل . من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله فاذا أجاب الى الدعوة لم . يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الاسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله .

فان أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ماأفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهم لا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول

بنو أسد وطليحة ومالك بن نويرة

كان طليحة رجلا من بنى أسد بن خزيمة علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعى للناس النبوة ليكون له من الشأن مارأى لنبي قريش فدعا إلى ذلك قومه من بنى أسد فشايعوه والتفت عليه طيء لما كان بينها و بين أسد من الحلف ودخلت فى غمارهم غطفان الا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده ببزاخة وهو ماء لطيىء بارض نجد . وكان بالمدينة عدي بن حاتم الطائى وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبي بكر أن يذهب الى قومه فأذن له فقدم عليهم فصار يفتلهم في الذروة والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفه عنا حتى نستخرج من لحق ببزاخة منا فانا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم فاستقبل عدي خالداً وقال له أمسك عنى ثلاثا يجتمع لك ٥٠٠ مقاتل تضرب بهم عدوك ففعل خالد ثم عاد عدي الى قومه وقد أرسلوا إلى إخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم ثم راجعوا الاسلام فعاد إلى خالد وأخبره ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار حتى أتي بزاخة واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما أحس

عيينة بن حصن الفزاري بالضعف جاء إلى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له ألا
ترى ما يصنع بنا فهل جاءك ذو النون بشيء قال نعم قد جاءني وقال ان لك يوماً ستلقاه
ليس لك أوله ولكن لك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة أرى
والله أن لك حديثاً لا تنساه يا بني فزارة هذا كذاب وولى عن عسكره فانهزم
الناس وهرب طليحة وانفضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلماً فقال له عمر أنت
الكاذب على الله حين زعمت أنه أنزل عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم
فاذكروا الله قياماً فان الرغوة فوق الصريح فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن
الكفر الذي هدمه الاسلام كله فلا تعنيف علي ببعضه فأسكت عمر

## بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن
عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ومنهم من
منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الامر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل
بعضهم ببعض وبيناهم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت
الحارث وكانت هي وأبوها في بني تغلب وأصلها من بني يربوع من تميم ادعت النبوة
فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبي بكر فلما قربت
من ديار بني تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بني يربوع ودعته إلى
الموادعة فوادعها وثناها عن غزو أبي بكر وحملها أن تغزو بعض الأحياء من

تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت الى وكيع بن مالك سيد بني مالك ابن حنظلة تدعوه إلى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأي تميم يبدؤن فسجعت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوب فى بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بن أظهرهم فتركت بنى تميم وعولت على المسير إلى اليمامة بجموعها وكان بها مسيلمة الحنفي فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها وبينما هم على ذلك اذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد في جيوشه فتفرقت جموعها وعادت إلى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على مافعل وتحير في أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندماً ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بنى يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك في نفر من بني يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفاً لأمر الخليفة ومما أكبر التهمة أن خالداً تزوج زوجة مالك بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر ان فى سيف خالد رهقاً فان يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال هبه ياعمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودى مالكا وبخذلان بني يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها الى أبي بكر كما كانت تدفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بنو حنيفة ومسيلمة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول في حياته وأسلمت وكان فيهم مسيلمة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلمة ودعا الناس إلى اتباعه وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقريش ولبني حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قريشاً قوم لا يعدلون . فلما وجه أبو بكر الجيوش إلى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بني حنيفة باليمامة ووجه في أثره شرحبيل وأمرهما أن يجتمعا فتعجل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجهاً آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من مالك ابن نويرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلمة كبيرة جداً تبلغ أربعين ألفاً لأن أكثرها أتبعه عصبية حتى كان بعضهم يقول أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول تذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالاً شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوي الحمية والغيرة صرخوا في الناس فتبعتهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلمة اشترك في قتله وحشي قاتل حمزة ورجل من الانصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحه عنهم مجاعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفى بأخذ ماعندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربع السبي فاتفقا على ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلى خالد أن يقتل

مقاتلتهم فجاءه الكتاب بعد أن كتبت شروط الصلح فوفى لهم خالد بما عاهدهم عليه ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والاقرار بالاسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى أبي بكر فقال لهم حينما قدموا عليه ويحكم ما هذا الذى استزل منكم مااستزل قالوا ياخليفة رسول الله : قد كان الذى بلغك مما أصابنا كان أمرا لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم ان هذا الكلام ماخرج من إلّ ولا برّ فأين يذهب بكم : وقد أقام خالد بعد فراغ الامر في واد من أودية اليمامة يقال له الوبر

اليمن والاسود العنسي

لما أسلم أهل اليمن ولى عليهم رسول الله صلي الله عليه وسلم باذان الذي كان عاملا لكسري فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً والياً على صنعاء وعين ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلما يتنقل في هذه الولايات قبل وفاة الرسول قام رجل من عنس إحدي قبائل قحطان اسمه الاسود فتنبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجه ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها شهراً واستولى عليها وهزم الابناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أهل اليمن فى أمره قسمين فقسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه : فارسل عليه السلام كتاباً على يد

وبر بن يحنس إلى من بصنعاء من الابناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض
إلى الحرب والعمل فى أمر الاسود أما غيلة وإما مصادمة وان يبلغوا عنه
من رأو أن عنده نجدة ودينا : وقد صادف ذلك ان تغير الاسود على رئيس
جنده قيس بن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً ففاتحة الابناء
في أمر اغتيال الاسود فأجابهم إلى ذلك وصاروا يمهدون لذلك الامر
واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التي اغتصبها الاسود بعد قتل زوجها
وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الابناء من قتله غيلة داخل منزله
ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا علي القصر بشعار المسلمين وهو الاذان
وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن
يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلى بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر
فوصل الرسول المدينة صبيحة اليوم الذى توفى فيه عليه السلام وكان
بين خروج الاسود ومقتله نحواًمن أربعة أشهر

لما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا الى ما
كانوا عليه من الخلاف وقادهم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث
أبو بكر إلى من بقي علي اسلامه من رءوس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال
المرتدين حتى تصلهم النجدات ومازالوا كذلك حتي وصلتهم الجنود يقودها
المهاجر بن أبى أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد
يغوث وعمرو بن معدى كرب ثم ذهبت الي كندة بحضرموت وكانت
قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبى جهل
فحاربوا كندة حتي غلبوهم وأسروا الاشعث بن قيس سيد كندة و بعثوا

الى أبي بكر يبشرونه بالفتح

البحرين والحطم

كان عليه السلام قد ولى على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فمات المنذر فى الشهر الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فانها فاءت إلى الدين من غير قتال تبعوا نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يامعشر عبد القيس انى سائلكم عن أمر فاخبرونى أن علمتم ولا تجيبونى ان لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فان محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على اسلامهم أما بكر فانها تمت على ردتها يقودها إلى ذلك الحطم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك حتى قدم عليه العلاء بن الحضرمى أميراً على الجند الذي سيره أبو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق به ثمامة بن أثال فى مسلمة بنى حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطم فغلبهم المسلمون وقتل الحطم وضرب الاسلام بجرانه فى البحرين وكتب العلاء إلى أبى بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة إلى الاسلام

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات فى جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر فى أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الابطال الذين لا تزعزعهم الكوارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وماظنك بهذه النار التى

هاجت في جميع أنحاء الجزيرة حينما شعرت بفقد الرسول صلى الله عليه وسلم فأطفأها وليد عجاجتها قبل أن تنقضي السنة التي لحق فيها الرسول بربه وأن الانسان ليحار بادئ بدء في تعليل هذا الامر ولكن اذا رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام في تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند واليهم في مواعيد قليلة لا يلبث أن تقر نفسه ويعترف لأبي بكر بأن له نفساً هي أكبر نفس عرفت عن خليفة

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة وممن لهم الشرف العريض في جند خالد بن الوليد فلما نقم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب إلى أبي بكر يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منه غضباً شديداً ولم يكن هناك هوادة في رجوعه إلى خالد ثانية ونهيه عن أن يترك الجند لاي سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه العظيم وطول صحبته وحاول عمر أن يوقع أبو بكر بخالد مع جسامة ذنبه فلم يفعل لانه خاف الوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ

إنا نقول في ذلك قولاً صريحاً لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأييده ما كان التاريخ يسير بالمسلمين مسيره الذي عرف حصل ذلك في وقت استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقواهم شكيمة وأشدهم قلباً

## المحاضرة العشرون

### ظهور الامة العربية — حال الفرس والروم لاول عهد أبي بكر — غزو الفرس — غزو الروم

### ظهور الأمة العربية

مكثت الأمة العربية تلك الازمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قواهم متفانية في حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد والامم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم في أخصب بقاعهم وان كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الاسلام فكوّن منهم تلك الامة العظيمة التي سلبت أقوى الامم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود سيداً

كان يجاور الامة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والغلب من قديم الاعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية

### دولة الفرس

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الاكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهى مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرقي والغربي جنوبي بغداد في منتصف المسافة بينها وبين واسط ودولة الاكاسرة هذه تكوّنت منذ وجد أردشير بن بابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالامر دونهم ووحد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت من عهد اسكندر المقدونى وكان ظهور أردشير سنة ٢٣٠ م وأدخل في ملكه العراق وما

يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أي ملك الملوك وأمراء الأقاليم يسمي واحدهم شاهاً وما زال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتي كان كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو الذي ولد لعهده رسول الله صلي الله عليه وسلم وكان ملكاً عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسري أبرويز وهو الذي أرسل اليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام فرأي ذلك أمراً عظيماً أن يدعوه عبد من عبيده زعم ليكون خاضعاً لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل اليه ذلك الراعي ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلاً بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيراً الى أهل بيته فولى من بعده ابنه أردشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان في ذلك الوقت من كبار القواد شهر بزار مرابطاً بجنده بثغور الروم فلما رأى أن ولي أردشير من غير استشارته أقبل بجموعه الى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل أردشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك إلا أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لاربعين يوماً من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز اخت شيرويه ولها ذكر حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله صلي الله عليه وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشنسده من بني عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهي التى جاءها رستم وقتلها

لقتلها أباه فرخهرمز أصبهبد خراسان وعظيم فارس وولي بدلها رجلا من عقب أردشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشنس ولكن لم يبق ملكه الا أياماً وما زال حالهم فى اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم

الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمي فى العالم تناصي دولة الفرس في سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها أكثر الامم الشرقية وفي مقدمتها مصر وسوريا ولم يزالوا على تلك العظمة حتي انقسمت دولتهم إلي قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية أو الغربية وقاعدتها رومية في زمن القيصر تيودوثيوس الذى ولي أمر الرومان الى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقاديوس الذى ولي من سنة ٣٩٥ الى سنة ٤٠٨ وما زالت الملوك تتوالى على هذا الكرسى حتى كان ملكهم لاول العهد الاسلامي هرقل الذى كان قبل أن يتولى الملك والياً فى أفريقية ثم خرج علي الملك فوقا فقتله وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكا حتي سنة ٦٤١ وهو الملك الذي سقطت على يده سوريا وملكها المسلمون

كانت الدولتان الفارسية والرومانية فى نزاع دائم وكان ميدان النزاع بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لا تخمد فى هذا البقاع وكانت الحرب بينهما سجالا : فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتي يصل

إلى شواطىء بحر الروم ومرة يطغي عليهم الجيش الروماني فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهرين دجلة والفرات وما يسقيان من تلك الاراضي الخصيبة الجميلة

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الاسلامي ماحصل أولا من الحروب بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنو شروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتي أجلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة فى الشمال وما زالت جنود الفرس توالي فتوحها حتي وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف في طريقها وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الافاعيل ثم أعادوا كراتهم في عهد هرقل الذي خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب المقدسة وأتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا اسكندرية : وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة في أول سورة الروم التى نزلت بمكة ابان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم فى أدنى الارض) ثم قال مخبراً عمن تكون له العاقبة فقال (وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد) ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال (ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد حصل ذلك فعلا فان هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس واعد لذلك عدته ورتب

جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم في الوقت الذى كان المسلمون فرحين بانتصارهم فى بدر وقد كانت بدر فى مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس ماذاقوه منهم قبلا : ولم يزل الامر على ذلك حتى تولي على الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهي الفخار وذهب إلى أورشليم سنة ٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التى راسل فيها رسول الله صلي الله عليه وسلم الملوك يدعوهم إلي الاسلام وكان ممن راسله هرقل وهو فى ذلك الوقت بأورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٠٧ من الهجرة ) وطرد فى ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال : وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لانها كانت مكان لهو وترف

هذا مجمل حال تلك الدولتين لاول عهد الخلفاء الراشدين

غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهي من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الابلة وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو فى شمال العراق وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب انذار يقول له فيه أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر

بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة

ثم فرق خالد جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به

عدوهم والحفير ماء بالقرب من البصرة : لما بلغ الكتاب هرمز بعث

به إلى كسري يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكراظم وهي من جادة

اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الحفير فعاج يبادرهم

اليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى

كاظمة فلحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً

للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلا للخبث : تزاحف

الجيشان وكان كل من خالد وهرمز فى مقدمة جيشهما فتبارزا فقتل خالد

هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتي بلغ قريباً من موضع البصرة والبصرة لم تبن إذ ذاك

كان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينما

هو قادم اذ بلغته هزيمة هرمز فتوقف بالمذار ( ١ ) وعسكر به فسار خالد اليه

على تعبية فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الامر حتى هزمهم خالد

وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية وضموا اليهم السفن فلم يتمكن

المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبرى بثلاثين ألفاً

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفا يقوده

الاندرزغر فانفصل عن المدائن حتى أتى الولجة (٢) ثم أتبعه كسرى جنداً

---

( ١ ) المذار بينها و بين البصرة اربعة ايام الى الشمال بالقرب من واسط وهى قصبة ميسان (٢) وهى في الشمال من المذار من ارض كسكر

آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المتنصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل اليهم على تعبية بعد أن ترك خلفه حامية تحمي خط رجعته ولما وصل الولجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكمنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش في هزيمته حتي مات في طريقه عطشاً وقتل في هذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الاعاجم وصاروا معهم يداً على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس (١) وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار اليهم خالد وأوقع بهم وقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

ولما فرغ من أليس نهض إلي أمغيشيا وهي بالقرب من أليس وكان فرات بادقلى ينتهى اليها فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصراً كالحيرة: ولما علم الأزاذبة مرزبان الحيرة بما كان من خالد فى أمغيشيا علم انه غير متروك فتهيأ لحرب خالد وقدم ابنه أمامه وكان مما فعله أن فجر الانهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتي لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل فى السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه الا والسفن جوانح فسأل عن السبب فأعلم به فتعجل خالد نحو ابن الأزاذبة حتي لقيه هو وجنده على فم فرات بادقلى فهزمهم وفجر الفرات وسد الانهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتي عسكر بالخورنق مشرفاً على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصرهم خالد ولما رأى أهل

(١) قرية من قري الانبار

الحيرة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا الى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ الف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتاباً هذا نصه

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم الامن كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المنعة وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة (١) وكتب في شهر ربيع الاول من سنة ١٢ : ومما يستطرف ذكره أن رجلاً من الاعراب اسمه شويل كان أسلم على يدي النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطي من سبيهم كرامة بنت عبد المسيح فقال له عليه السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا اليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فانه رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فاني سأفتدي منه فلما وصلت إلى الرجل قالت ما أربك من عجوز كما تري فادني قال لا الا على حكمي قالت فلك حكمك فقال لست لام شويل أن نقصتك

---

(١) يظهر ان هذه الجملة مدرجة في الرواية لان التاريخ بالهجرة لم يكن الا أيام عمر

عن ألف درهم فاستكثرت ذلك لتخدعه ثم أتته بها ورجعت لأهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه فقال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف. فأبوا عليه الا أن يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك. ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا ابن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتاباً هذا نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه اني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة القوي على قدر قوته والمقل على قدر اقلاله فى كل سنة وانك قد نقبت على قومك وان قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فان منعنا كم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم)

ولما رأى دهاقين البلاد ماتم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج (١) الى هرمزجرد (٢) على ألفي ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً. ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم امراء الثغور: وكتب فى مقامه بالحيرة كتابين احدهما الى ملك فارس والآخر الى مرازبة الفرس ورؤسائهم وصورة الاول — بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذى حل

---

(١) فلاليج السواد قراها واحدها فلوجة والفلوجة الكبرى والصغري قريتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من اطراف العراق

نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شر الكم فادخلوا فى أمر نا ندعكم وأرضكم ونجوزكم الى غير كم والا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة : وصورة الثانى — بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى مرازبة فارس أما بعد فأسلموا تسلموا والا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية والا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس في ذلك الوقت فى ارتباك داخلي بشأن من يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت الا المدافعة عن بهرسير وهي احدى المدائن التى سميت بها مدائن كسرى وكانت في الغربى من دجلة أمام الايوان الذى كان فى الجهة الشرقية منها : فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته الى ان يجدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخزاذ ابن البندوان

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لاغاثة عياض بن غنم الذى أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقى بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتى انتهي الي الأنبار (١) وقد تحصن أهلها وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالى الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا في عدوهم ثم انتهي الأمر بأن طلب قائد جند الانبار الصلح علي أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جريدة خيل ليس معهم من المتاع والاموال شيء فأجابه الى ذلك خالد وتسلم الانبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر (٢) وبها يومئذ

---

(١) مدينة على الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ (٢) بلدة قريبة

الانبار

عين التمر

مهران بن بهرام جوبين فى جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب واياد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد قال عقة لمهران ان العرب أعرف بقتال العرب فدعنا وخالداً فقال له صدقت لعمرى لانتم أعلم بقتال العرب وانكم لمثلنا فى قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبية يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد فى تعبية واقتتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن الاقليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة مهران هرب في جنده تاركا الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فانهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد فى بيتهم أربعين غلاما يتعلمون الانجيل منهم نصير أبو موسي بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد فى الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالداً وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل اليه خالد هذا الكتاب

من خالد إلى عياض اياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المتنصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسيهم أكيدر بن عبد الملك أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحد فى حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن أمالئكم على حرب خالد

---

من الانبار غربي الكوفة وهى على طرف البرية

فشأنكم فخرج لطيته وقد قتل فى خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودي بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل الا بنى كاب لانهم كانوا احلفاء تميم ذأجارهم عاصم بن عمرو التميمي وبعد أن أقام خالد قايلا عاد الى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لاعادة الكرة على المسلمين وأرسل سريتين الى الحصيد (١) والخنافس فاوقعت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتي أتى المصيخ وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم فيها نكالا ثم كانت له وقائع بالثني (٢) والزميل ثم فى الفراض وهى تخوم مابين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك في رمضان وفى الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعاً وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة ثم أقام بها عشراً وبعد ذلك أذن فى الرجوع الي الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه فى الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجاً معه عدد من اصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتي له من ذلك مالم يتأت لدليل أو ريبال فما توافى الي الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معا وخالد وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجه الا من أفضى اليه بذلك من الساقة ولم يعلم أبو بكر بذلك الا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب أبى بكر بصرفه الى الشام منصرفه من

---

(١) موضع فى اطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الانبار تقام فيه سوق للعرب (٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة و بقربه الزميل

حجه الى الحيرة وهذا هو الكتاب الذى أرسله اليه أبو بكر : سر حتي تأتى جموع المسلمين باليرموك فانهم قدشجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل مافعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ولن ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فأتم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فان الله له المن وهو ولي الجزاء

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة الى صفر من سنة ١٣ وقدفعل فى هذه السنة مالم يفعله قائد جيش اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالى الابلة الى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقي الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم فى عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه الى كل موقعة أرادها وكان فى كل عمله فاتحا لا مغيرا فانه كان يعد حماة طريقه ليأمن أن يؤتى من خلفه وكان اذا افتتح بلداً أقام فيه أميراً من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبى الخراج من أهل الذمة ومن أحسن مايؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويذلونهم وعلى نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان اذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضا بل سرعان مايخرج طالبا رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده : وعلي الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة فى جبين تاريخه ومما يبين عظيم عمله ماقاله الهيثم البكائى قال كان

أهل الايام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل ( وهي أول واقعة بين خالد والفرس ) ويسمون مابينها و بين الفراض مايذكرون ماكان يعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

## ﴿غزو الروم﴾

كان إرسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخراً عن أرسال خالد لافتتاح العراق فان أبا بكر في أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الاولون قرشيون والرابع قحطاني وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمرو فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولابى عبيدة حمص ولشرحبيل الاردن فسارت هذه الجنود من الطرق التى عينها لهم يتبع بعضهم بعضا وكان عدد جميع الجنود التى سيرت قبل أن يأتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثين ألفاً

لما علم الروم بمسير الجنود الاسلامية اليهم اهتم بالامر هرقل وكان نازلا بحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فاراد أن يقاتلهم متفرقين لان العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف مامعه ولما علم بذلك الرؤساء الاربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ماالرأى؟ فراسلهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا اذا اجتمع

لم يغلب من قلة واذ انحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لاحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأي واتعدوا اليرموك (١) ليجتمعوا به وكتبوا إلى أبى بكر بمثل ما كاتبوا به عمرواً فجاءهم كتابه بمثل رأي عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلي كل رجل بأصحابه بلغ ذلك هرقل فكتب الى قواده أن اجتمعوا فاجتمعوا وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة ٢ وهي على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقاً لهم وهو لهب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسمين وترجع اليهم أفئدتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الاسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق الا عليهم فصاروا كانهم محصورون ودام الامر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهري ربيع لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون اليهم اللهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبابكر فى شهر صفر فكتب الى خالد ليلحق بهم وأمرهم أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة فخرج بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حثيثاً حتى وجى فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاه الطبرى ٢٤٠ ألفا

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أى أن كل أمير يحرك جنوده مستقلاً عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الامراء وخطب فيهم قائلا إن هذا يوم من أيام الله

---

(١) وادفى طريق الغور يصب فى نهر الاردن (٢) واد فى أرض حوران

لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا اجهادكم وأريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا اقوماً على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته، قالوا فهات فما الرأي قال ان أبابكر لم يبعثنا الا وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم بالذى كان ويكون لكان قد جمعكم ان الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه ان دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه ان دانوا له ان تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلموا فان هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاود الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتي يتأمر كلكم ودعوني اليكم اليوم فأمروه فعبي خالد الجيش تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش الى ثمانية وثلاثين كردوسا (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل ابن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس رئيساً يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلاً عن الالف وجعل للجيش قاصاً يذكرهم وكان القاص أباسفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله الله انكم ذادة العرب وأنصار الاسلام وانهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم

ان هذا يوم من أيامك اللهمّ أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أقل الروم وأكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لوددت أن الاشقر براء من توجيه وانهم أضعفوا في العدد ( الاشقر فرسه )

وخرجت الروم فى تعبية لم ير مثلها فأمر خالد مجنبتي القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمر ففعلا وكان القعقاع يرتجز

يا ليتني ألقاك فى الطراد قبل اعتزام الجحفل الوراد

وأنت فى حلبتك الوراد

ويرتجز عكرمة

قد علمت بهكنة الجوارى أنى على مكرمة أحامي

وكانت هذه الاراجيز لهم تقوم مقام الموسيقى فى تشجيع القلوب

نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت وتركوا رجلهم فى مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم فى الصحراء ولما رآها المسلمون كذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت فى البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمة عليهم فعمدوا الى الواقوصة من ورائهم حتى هوي فيها كثير منهم فتهافت فيها على ما يقول الطبرى ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار

ومعظم الليل وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين فى ذلك اليوم القدح المعلى فى الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبى جهل فانه كان يقول قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ثم ينادي من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعا قدام فسطاط خالد وهو فى وسط القلب حتي أثبتوا جميعاً جراحاً وقتلوا الا من برأ منهم وأتي خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ويقول كلا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد (يريد عمر) وقاتل النساء في ذلك اليوم فى جولة وقتل من المسلمين في اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان

ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهزم نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل فجعل حمص بينه و بين الجنود الاسلامية وقال سلام عليك ياسورياً سلاماً لا لقاء بعده

فى أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن أمارة الجيش وتولية أبي عبيدة قائداً عاماً مكانه فأخذ خالد الكتاب وأسره الى أبى عبيدة ولم يذعه لئلا تهن به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه في كنانته حتي انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب الى أبى عبيدة وسلم عليه بالامارة ومما يؤثر عن خالد في هذا اليوم الحمد لله الذى قضي على أبى بكر الموت وكان أحب إلى من عمر والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض

الى من أبي بكر ثم ألزمني حبه

جيش عدته أربعون ألفا يغلب جيشا فيه خمسة أمثاله لا بد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكثير مدرب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية يقولون ان ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سببا فى فوزهم هذا الفوز السريع: كان يمكن أن يكون هذا سببا لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان فى ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مساحا منظما معبأ أعظم تعبية فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أن الجندي المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين الأول ثقته بأن العاقبة له لما قرأه من الكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة: وهذه الثقة فى قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده الثاني أنه واثق بالعاقبة فى الاخرى فهو أن قتل كان شهيدا عاقبته الحسنى وزيادة وان ظفر كان ذلك خيرا فهو يرجو احدى الحسنيين إما موت بعده سعادة وإما فوز فيه فخر الدنيا واسعاد دينه أضف الى ذلك ما وفقوا اليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من من بعدهم أن يقدم أقدامهم وقليل كانت أمثالهم فى تاريخ الشرق فرحم الله خالدا فقد كان زينة فى تاريخ أبي بكر: والى هنا انتهت الاعمال الكبرى التي حدثت بين المسلمين وبين دولتى الروم والفرس فى أيام أبى بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي

يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذي لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها

## ادارة البلاد في عهد أبي بكر

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التى تحت الادارة الاسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها الى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الامير اقامة الصلاة والفصل في القضايا واقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لان أبابكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الامراء وهذه ولايات الجزيرة لعهده

( ١ ) مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ٢ ) الطائف وأميرها عثمان بن أبي العاص وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ٣ ) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذى ولي فتحها بعد الردة

( ٤ ) حضرموت وواليها زياد بن لبيد

( ٥ ) خولان وواليها يعلى بن أمية

( ٦ ) زبيد ورمع وواليها أبو موسى الأشعري

( ٧ ) الجند وأميرها معاذ بن جبل

( ٨ ) نجران وواليها جرير بن عبدالله البجلي

( ٩ ) جرش وواليها عبدالله بن ثور

( ١٠ ) البحرين وواليها العلاء بن الحضرمي

أما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان أمراء الجند هم ولاة الامر فيها

ولم يكن لابى بكر وزير وانما كان عمر يلى القضاء وأبو عبيدة أميناً

لبيت المال قبل أن يسيره الى الشام

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الاخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفي عهده كتب القرآن لاول مرة في مصحف واحد يجمع سوره كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالامر وكتب أول مصحف بملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر

رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلا تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ما تصلح أمور الناس التجارة وما يصلحهم الا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بد لعيالي ما يصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر وكان الذي فرضوه له في السنة ستة آلاف درهم ( — بالتقريب ١٢٨ جنيهاً مصرياً ) ولما حضرته الوفاة قال ردوا ما عندنا من مال المسلمين فاني لا أصيب من هذا المال شيئاً وان أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك إلى عمر فقال عمر لقد أتعب من بعده فمن هذا يفهم أن المبدأ الذي اختطه أبو بكر هو أن الخليفة لا ينبغي أن يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وكل اليه من أمور العامة وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال والظاهر

أن الفرض لغيره وليس هو الذى يفرض لنفسه وكأن هذا المأخوذ كان فيه شبهة فى نظر أبي بكر فأمر برده الى بيت المال بعد وفاته

## أرزاق الجند

كان الجند متطوعين لا يجمعهم ديوان وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتيل وغير ما ينفله رئيس الجند للممتازين وكان أبو بكر يسوى فى العطاء لا يفضل أحداً على أحد

## أرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطي العمال أرزاقهم ويوزع ما بقي على من عينوا فى الكتاب لمصارف الزكاة

## وفاة أبى بكر

حم أبو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكث محموماً ١٥ يوما وتوفي فى مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ ( ٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤ ) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلاً الى الجهة الشرقية

﴿ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله المحاضرة الحادية والعشرون ﴾

ا

فهرس

(تمت)



محاضرات

# تاريخ الأمم الإسلامية



تأليف

الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف

ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية سابقا

## الجزء الثاني

الطبعة الثانية



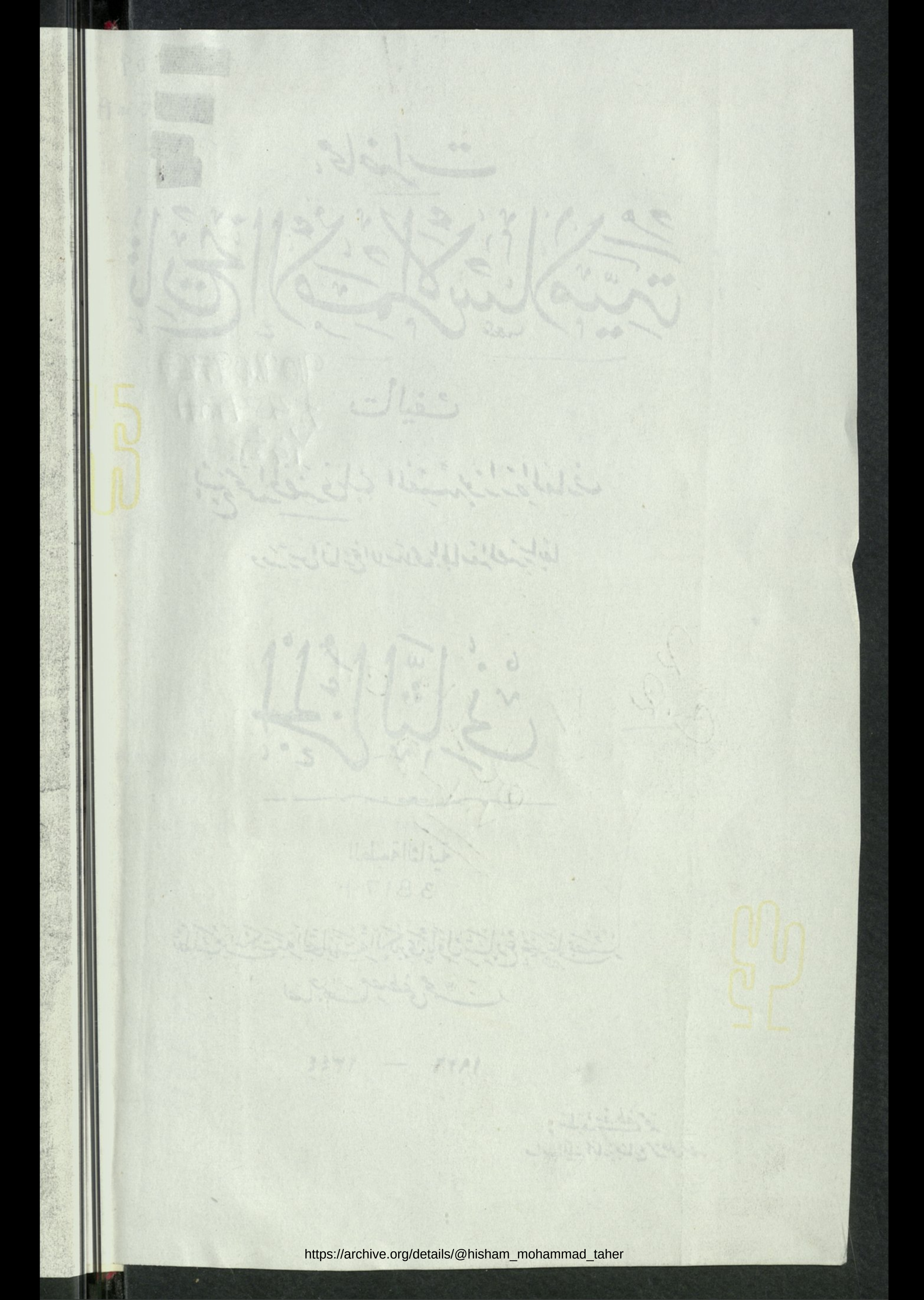
تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

١٣٤٤ — ١٩٢٦

مطبعة مصطفى محمد

صاحب المكتبة التجارية بشارع محمد علي بمصر



بسم الله الرحمن الرحيم

## المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر — ترجمته — أول خطاب له — الفتوح فى بلاد الفرس
بدء القادسية

## ٢ ﴿ عمر بن الخطاب ﴾

### كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين فى أن ينتخب خليفتهم قبل موته وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد وكانوا يحسون دائماً بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلا للخلافة وهم أحق بها فاذا ترك الناس من غير عهد انتثر عقد نظامهم وكان يري عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن عوف وقال أخبرنى عن عمر فقال ياخليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لانه يرانى رقيقاً ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيراً مما هو عليه ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتنى إذا غضبت على الرجل فى الشيء أرانى الرضا عنه وإذا لنت له أرانى الشدة عليه لاتذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذاك يا أبا عبد الله قال اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لاتذكر مما ذكرت لك شيئاً

قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً ولوددت أني كنت خلواً من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تم له الرأي دعا بعثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة الى المسلمين أما بعد) - ثم أغمي عليه فكتب عثمان - (فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ عليّ فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيراً عن الاسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن أستخلف عليكم فاني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة واني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣ هـ ( ٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م )

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب بن لؤي وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله صلي الله عليه وسلم . تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يري فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنه ٢٧ سنة ولما دعي الى الاسلام لم يكن في بدء أمره

مقتنعاً بصحة الرسالة فحارب الاسلام حرباً شديدة حتى كان ينال المسلمين منه أذى
كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى
ومفارقة الاوطان فكان ذلك مما دعاه الى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح
فآمن وصدق وذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الارقم بن أبى
الارقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به
للمسلمين قوة وذهب الى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الاسلامى
وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب اخوانه وكادوا يقتلونه لولا
أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس
يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال
من أراد أن تثكله أمه فليلقني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد
وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة
منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو
وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره
عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه
السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل فى الاسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع
في أمر الخليفة وخوفا أن يتشتت الامر وكان لابي بكر بمنزلة الوزير الاول
يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه
وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبة أبي بكر الاناة فى الامور
وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبيء عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل العرب كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق) والجمل الانف هو الجمل الذليل المواتى الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ماعنده من السير عفواً سهلا وهذا تشخيص حسن للامة الاسلامية لعهده فانها كانت سامعة مطيعة اذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت و يتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها فانه يجب عليه أن يتبصر حتى لايوجه هذه الامة الى مافيه خطر عليها بل يتخير لها أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال أما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق و يفهم بالبداهة أنه الطريق الاقوم الذى لا اعوجاج فيه والعرب من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الاحوال

﴿ الفتوح في عهد عمر ﴾

فى بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد الى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني و يترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار أمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى جنداً يقوده بهمن جاذويه فسار اليه المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع

الطلب الفل الى قرب المدائن ثم عاد المثنى الى الحيرة وأبطأت عليه أخبار
أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف
الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم
وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره
أنه لم يخلف أحداً أنشط الى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم
فقدم المثنى وأبو بكر فى مرضه الاخير فاستدعى عمر فقال له اسمع ياعمر
ماأقول لك ثم اعمل به اني لارجو ان أموت من يومى هذا فان أنا مت فلا
تمسين حتى تندب الناس مع المثنى وان تأخرت الى الليل فلا تصبحن
حتى تندب الناس مع المثني ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم
ووصية ربكم وقد رأيتني متوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت
ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أني أني عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا
فاضطرمت المدينة ناراً وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد الى
العراق فانهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم
ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر
كأن أبا بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرني
بصرف أصحابه وترك ذكره : كان الناس يحجمون عن الخروج الى فارس
لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثني فقال - أيها
الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على
خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله
مابعدها : وقال لهم عمر ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى

عليه أهله الا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الامم أين عباد الله الصالحون - فكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفى ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط بن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم اجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الامر ولا تجتهد مسرعاً حتي تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف. فسار أبو عبيد بالجند وهو الامير حتى بلغ الحيرة - كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم آزرميدخت ملكة واختارت هى رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاماً للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبى عبيد

كان أول ماصنعه رستم أن كتب الى دهاقين السواد ان يثوروا بالمسلمين ودس فى كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسي من القواد فاثاروا الناس من أعلى الفرات الى أسفله واجتمع جند عظيم قام فى النمارق (٢) لما رأى ذلك المثنى ضم اليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلا ثم سار الى النمارق فحارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمننى وأعطيك كذا وكذا

---

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد (٢) موضع قريب الكوفة من ارض العراق

قال نعم قال فادخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فاجاز أبو عبيد ما فعل الربعي ولما علم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أبا عبيد فقال ما ترونى فاعلا معاشر ربيعة أؤمنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا الى كسكر (١) لاجئين الى نرسي فاجتمع اليه الجند الذين معه وفل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقى بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسى وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر : وهناك جاءه الدهاقين مسالمين فسالمهم وجاءوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد ان صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مثل ما يأكل أوساطهم

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيما يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر متراً من جلود النمر فسار اليه أبو عبيد حتى نزل المروحة (٢) موضع البرج والعاقول فبعث اليه بهمن اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور واما أن تدعونا نعبر اليكم فأشار الناس على ابى عبيد بعدم العبور فلج وترك الرأي وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفى آخر النهار قتل أبو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من

---

(١) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يمصر الحجاج واسطا خسروسابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمذار ونغيا وميسان ودست ميسان (٢) على شاطئ الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

ثقيف فقطع الجسر فانتهى النـاس اليـه والسـيوف تأخـذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعـة آلاف بين غريق وقتيـل وحمى المثنى ومن معه الناس حتى عقدالجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا فى أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم

و بلغت هذه المصيبة عمر فقـال اللهم ان كل مسلم في حـل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز الينا ولم يستقل لكنا له فئة وحصل فى هذه الواقعة غلطتان الاولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فانهم نهوه عن العبور فـلم ينتـه والذى زاد تلك الغلطة تأثيراً ما فعله ذلك الرجل الاحمق عبد الله بن مرثد الثقفي من قطعة الجسر عند مارأى جولة المسلمين وارادتهم العبور ولولا ثبات المثني بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثني من الجنود الا القليل لاقدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولاأن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الامـداد الى المثنى منهم جرير بن عبد الله البجلى فى قومه من بنى بجيلة فلما عـلم المثـنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا اليـه حتى يقابلوه على البويب (١) وتقدمهم هو اليـه فساروا اليه وكان رستم قد أرسل الى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف أمامهم و يفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران الى المثنى يخـيره بـين أن يعـبر بجنـوده أو يعـبر مهران اليــه وكان الجواب طبعـاً ان طلب من مهران العبور لأن واقعـة الجسر لم يمح أثرهـا

(١) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات

بعد فعبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك في رمضان وقد أمر المثنى بالافطار فأفطروا وكانت تعبية الجيش خالدية فابصر المثني رجلاً يستوفز و يستنتل من الصف فقال مابال هذا قالوا هو ممن فرّ يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل نقرعه بالرمح وقال لا أبالك الزم موقفك فاذا أتاك قرنك فاغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال اني بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد ماصادفه المسلمون هولا لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا في الهزيمة سبقهم المثنى الى الجسر فقطعه فارادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ماقدر بمئة الف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر واحراجه العدو قال لقد عجزت عجزة وقي الله شرها بمسابقتي اياهم الى الجسر وقطعه حتي أحرجتهم فاني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فانها كانت مني زلة لا ينبغي احراج أحد الا من لا يقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى في أثر المنهزمين من اتبعهم الي أن وصلوا الى السيب (١) بعد أن عقد لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس حتي سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع لا يقف في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد و يصوب في الجزيرة و يبث السرايا للاغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين اولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند فأغاروا على صفين و بها النمر

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الاعلى والاسفل من طسوج سورا

وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتي رموا بطائفة منهم في الماء فناشدوهم
فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان
يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوماً من أيامهم فى
الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفؤا
راجعين الى المثنى وقد غرقوهم : كانت لعمر عيون في كل جيش فكتب العين الى
عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بني تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما
قالا ذلك وجه أنه مثل وانهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفهما
فحلفا انهما ما أرادا بذلك الا المثل واعزاز الاسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على
المثنى

## أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهران الى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب
ورأوا أن الاختلاف الذى هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا
لرستم والفيرزان وهما عظيما فارس والمتنافسان فى أمر سلطانها أين يذهب بكما لم
يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانه لم يبلغ من
خطركما أن تقركما فارس علي هذا الرأي وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط
وتكريت الا المدائن والله لتجتمعان او لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت
فرأي الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا فى نساء كسري وسراريه عن عقب له
بينهن فبعد لأي وجدا رجلاً يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهى على
جادة الكوفة

احدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته وحينئذ سمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسري أوموضع موضع ثغر فسمي جند الحيرة والانبار والمسالح والابلة . بلغ المثني ذلك كله فكتب به الى عمر ولم يصل الكتاب الي عمر حتي كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثني على حاميته حتى نزل بذي قار (١) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الاعاجم والتفرق فى المياه التى تلى حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذا قار ونزل الناس بالجل (٢) وشراف (٣) الى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضاً ان كان فزع تم ذلك فى ذى القعدة سنة ١٣

أما عمر فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل في ذي الحجة سنة ١٣ لاتدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف الى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التى طرقها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا الى المثني فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعي صرار (٤) فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا اذا

---

(١) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط (٢) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى ذبالة بينه وبين القرعاء ٦[illegible] ميلا (٣) بين واقصة والقرعاء ومن شراف الى واقصة ميلان (٤) موضع على ثلاثة اميال من المدينة على طريق العراق

أرادوا ان يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان
يدعى في امارة عمر رديفاً والرديف الرجل الذى يكون بعد الرجل فاذا لم يقدر
هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر
ماتريد فنادي الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر مايقول
الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم
حتى يخرجهم منه في رفق فقال استعدوا وأعدوا فاني سائر الا أن يجيء رأي أمثل
من هذا ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع
رأيهم جميعاً على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيم
ويرميه بالجنود فان كان مايرجو من الفتح والا أعاد رجلا وندب جنداً آخر
فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث الى علي وكان قد خلفه على المدينة والى طلحة
وكان علي مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم ان الله قد جمع على الاسلام أهله فألف
بين القلوب وجعلهم فيه اخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من
شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوي
الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس
وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الامر تبع لاولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم
من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم أيها الناس انى انما كنت كرجل منكم حتى
صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا وقد أحضرت
هذا الامر من قدمت ومن خلفت ( يريد علياً وطلحة ): وهذا الخطاب يبين
ما كان يدور في رأس عمر من النظام الشورى ويوضح الاساس لذلك

النظام . ثم أجال معهم الرأى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأى أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى وكان فى ذلك الجيش حد الامة العربية فان عمر لم يدع رئيساً ولا ذا شرف ولا ذا رأى ولا ذا سطة ولا خطيباً ولا شاعراً الا رماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم

## المحاضرة الثانية والعشرون

### تمام القادسية ـ فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال اذا انتهيت الى زرود (١) فأنزل بها فسار حتى اذا وصل الى زرود نزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر وفي ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل الي سعد وصيته لانه قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فان يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وان تكن الاخرى فاؤا الى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم الى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى أتي شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه اذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعبهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم الى أصحابهم وواعدهم القادسية واكتب الي بالذي يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما أمر

---

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج الى الكوفة

به فقدر الناس وعباهم بشراف وأمر أمراء الاجناد وعرف العراف فعرف على كل عشرة رجلا وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الاعشار رجالا من الناس لهم وسائل فى الاسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجردتها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبية يلون الاميرو يليهم أمراء الاعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رءوس القبائل ولم يفصل سعد من شراف الا على تعبية وباذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه بمبارحة شراف

أما بعدفسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه (١) الا أن توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أوأحداً منهم فابدءوهم الشدوالضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا أن تجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولمايريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك أنغضتهم رموك

---

(١) الدآدى ما اتسع من التلاع وهى مسايل الماء

بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً الا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر من ورائكم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة ) وكتب اليه باليوم الذى يرتحل فيه من شراف فسار سعد على تعبيته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول له فيه — واكتب الى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذى يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من أمركم على الجلية — فكتب اليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق (١) والعتيق وان ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح (٢) الى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطىء النهر يدعى الحضوض (٣) يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق (٤)

---

(١) خندق سابور فى برية الكوفة حفره سابور بينه و بين العرب خوفا من شرهم واوله من هيت يشق طف البادية الى كاظمة مما يلى البصرة وينفذ الى البحر و بني عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون مانعا لاهل البادية من السواد (٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرىء القيس شرقية الفرات وغربيه بساتين

والحيرة وان ماعن يمين القادسية الى الولجة فيض من فيوض مياههم وان جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي إلب لاهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وان الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم فهم يحاولون انغاضنا واقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وابرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاءه مسلم الى ما قدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية — فكتب اليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضه به على الوفاء بالامانة قوله له انى قد ألقي في روعي أنكم اذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه باشارة أو لسان كان لا يدري الاعجمى ما كلمه به وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك مجرى الامان واياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه لحرب المسلمين فرضي بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة الى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قوماً عليهم نجار ولهم آراء وتفر لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتي جاؤا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه ارضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ما جاء بهم وما دعاهم الى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل انا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ

ارسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك
ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا
وهو دين حسن الحسن وقبيح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من
آخر شر منه الجزاء فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله
وأقمنا كم عليه على أن تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان
اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعنا كم والا قاتلنا كم فقال يزدجرد انى لا أعلم فى
الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل
بكم قرى الضواحي فيكفونا اياكم لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا
لهم فان كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً
الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسونا كم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم
فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدى فقال أيها الملك ان هؤلاء رءوس
العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وانما يكرم الاشراف
الاشراف ويعظم حقوق الأشراف الاشراف ويفخم الأشراف الاشراف
وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه وقد
أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك فجاوبنى لأكون الذي أبلغك ويشهدون على
ذلك . أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا وأما جوعنا فلم يكن
يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك
طعامنا وأما المنازل فانما هي ظهر الارض ولا نلبس الا ما
غزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على
بعض وان كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت

حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله الينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبه خير من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا الى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً الا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا ان ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي وأنا خلقت كل شيء وإلي يصير كل شيء وإن رحمتي أدركتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لادلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولاحلكم داري دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه فاختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وان شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك فقال كسرى أتستقبلني بمثل هذا فقال ما استقبلت الا من كلمني ولو كلمني غيرك لم استقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ثم قال ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه أني مرسل اليه رستم حتي يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم

بأشد مما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا فحملوه وقر التراب
على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه
بالظفر متفائلين فصل رستم من المدائن فى تعبية كبري وعدد جنده ١٢٠ ألف
عدا من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى
أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى
كان رستم على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون
فيها لرستم كثيراً ومما قيل فى مجلسه ماقاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فانه
لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت
تبلغنا عنكم الاحلام ولا أري قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا
يستعبد بعضنا بعضاً الا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت انكم تواسون
قومكم كما نتواسي وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب
بعض وأن هذا الامر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتموني
اليوم علمت ان أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم على
هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربى وقالت
الدهاقين لقد رمي بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا ما كان
أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة

ثم اجتمع رستم أمره على عبور العتيق فسكره ثم عبر هو وجنده
وكان البريد بينه وبين المدائن متصلا بحيث تصل الاخبار الي يزدجرد
ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حماته ولم يكن سعد
مع المقاتلين لانه لم يكن يستطيع أن يركب لحبون كانت به فكان مقيما أعلى

القصر يشرف على الناس ويرمى بالرقاع فيها الامر والنهي الى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف بجنب القصر ثم قام في الناس الخطباء فخطبوهم وحثوهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبد الله الاسدي وهو يقول

قد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سمام البطل المشايح وفارج الامر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين اذ تغشاه الذهب
انى امرؤ لا من يعنيه السبب مثلي على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الامر على المسلمين فيلة الفرس فانها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة ان تؤكل حين فرت عنها خيلها نفارا فأعانهم سعد ببنى أسد وكان لهم فى ذلك أعظم فخار ولرئيسهم طليحة الاسدى ولم يكن للمسلمين حيلة فى الفيلة هذا اليوم الا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبانها عادت الى مواقفها فنفس عن بنى أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمئة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضي جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس

في هذا اليوم ويسمى يوم ارماث

وفي اليوم الثاني نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنوهم وأما الجرحي فأسلموهم الى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التى أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها الي العراق وأميرها هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالابل وجللوها وبرقعوها حتي صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الابل فى اليوم الثانى مالقيت جنود المسلمين من الفيلة فى اليوم الاول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً الى نصف الليل ويسمي هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح

وفى اليوم الثالث نقلت القتلي والجرحي ثم اصطدمت الجنود على حنق وفيلة الفرس تفعل فعلها فى الخيول فانتدب لاكبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رمحيهما في عيني الفيل ونفض رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فنفحه أحدهما بالسيف فرمي به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولي فوثب فى العتيق فتبعه الفيلة فخرقت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين وما زال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع الا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأي العرب والعجم أمراً لم يروا مثله وما زال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسري لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع في الناس يقول لهم ان الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس

وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة الى سرادق رستم فلما رأي ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتي قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادي قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهى درفش كابيان ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتى أجلوهم الى ما وراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمي يوم عماس وليلته تسمي ليلة الهرير ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لا مع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد الى عمر هذا الكتاب ( أما بعد فان الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الانهار وعلي طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الاسود ولم يفضل من مضي منهم من بقي الا بفضل الشهادة اذ لم يكتب لهم ) : كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسماً أخبارهم من حين يصبح الى انتصاف النهار فيرجع الى أهله ومنزله وفى اليوم الذى ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال يا عبد الله حدثنى قال هزم الله العدو وعمر يجري وراءه

و يستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بأمرة المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك ياأخي فقرىء كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه ( ان أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقم على عهد أهل الايام لنا ولم يف به أحد علمناه الا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعي أهل السواد ان فارساً اكراهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الارض ) ثم كتاب آخر يقول فيه ( ان أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا ان أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث الينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى انه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فانا فى أرض رغيبة والارض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وان أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه الا خيراً وان من ادعي فصدق أووفي فبمنزلتهم وان كذب نبذ اليهم وأعادوا صلحهم وان يجعل أمر من جلا اليهم فان شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وان شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم الا القتال وان يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح ـ فكتب عمر جواب الكتاب الاول يقول

( أما بعد فان الله جل وعلا أنزل فى كل شئ رخصة فى بعض الحالات لا فى أمرين العدل فى السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه فى حالة

ولم يرض منه الا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه فى قريب ولا بعيد ولافي شدة ولارخاء وان رؤى لينا فهو أقوى وأطفأ للجور واقمع للباطل من الجور وان رؤى شديداً فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعي أنه استكره ممن لم يخالفهم اليكم أو يذهب في الارض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك الا ان تشاءوا وان لم تشاءوا فانبذا اليهم وأبلغوهم مأمنهم وكتب جواب الكتاب الثاني (أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم مالاهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وان كذبوا نبذ اليهم : وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فان شئتم فادعوهم الى ان يقيموا لكم فى أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وان كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) — فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد ان يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده الا أن خراجهم أثقل فأنزلوا من ادعي الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ماكان لآل كسرى ولاما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم الي واحدة من اثنتين الاسلام أو الجزاء فصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهي والصوافى الاولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسري وكان خراج كسرى على رءوس الرجال علي مافي أيديهم من الحصة والاموال — ولم يتأت قسمة ماكان لآل كسرى ومن صوب معهم لانه

كان متفرقا في السواد فكان يليه لاهل الفيء من وثقوا به وتراضوا عليه

كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الابلة لانها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها الى الابلة لتمنع امداد فارس من هذا الوجه فساروا حتي أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الابلة وهي مرفأ فارس على خليج عمان الموصل الى بحر الهند وكان فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربيا عظيما تنفصل منه الجنود لحرب فارس الا أنها لم يتم تمصيرها الا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم علي المسير الى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان في العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم علي شاطىء العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرود وذى قار وتلك الامواه حين أمروا بالسير في جمادي الى القادسية وكان كلاماً أبدن فيه كالا وابد من الشعر لانه ليس بين جمادى ورجب شيء

العجب كل العجب بين جمادى و رجب

أمر قضاه قد وجب يخبره من قد شجب

تحت غبار ولجب

ثم ان سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرساناً مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية ببرس وبها فل القادسية و بقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فخار بهم حرباً

غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل على الفرزان فساروا اليهم وهزموهم فى أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الاهواز وخرج الفرزان الى نهاوند وصعد الباقون الى المدائن وقطعوا الجسر . فأقام سعد ببابل أياما ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهرسير وهي المدائن الدنيا على شاطيء دجلة الغربى وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد على بهرسير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضي منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن تركتها مقاتلة العدو وعبرت الى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد بهرسير وأنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها الى الجهة الشرقية لانه لم يكن هناك مراكب يعبر عليها الناس فان الفرس كانوا قد ضموها الى الشاطيء الثانى وكان سعد قد أعد فصيلة تحمى الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كله خوضاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك خوفه أن يزدجرد ينقل كل ما فى المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأي أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم الا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هاربا على وجهه وذهب بعياله الى حلوان أما أهالى المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الابيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) وصلي فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة

يوم دخول المدائن لانه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الاموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثناعشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من الجنائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسري وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع اليهم ومما أرسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالانهار وخلال ذلك كالدير وفي حافاته كالارض المزروعة والارض المقبلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة واشباه ذلك ولما ورد الخمس على عمر قسمه على مستحقيه ثم قال أشيروا على في هذا القطف فأجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فر رأيك الا ما كان من علي فانه قال يا أمير المؤمنين الامر كما قالوا ولم يبق الا التروية انك أن تقبله علي هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولي النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرن الخراج الأول علي ما سقت دجلة والثاني علي ما سقى الفرات

---

## المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء ـ تمصير الكوفة والبصرة ـ فتح الجزيرة ـ الأهواز ـ غزو فارس من البحرين ـ فتح فارس ـ فتح نهاوند ومابعدها

### واقعة جلولاء

لما انتهى فل الفرس الى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم إلى آذربيجان والباب والى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا ان افترقتم لم تجتمعوا أبداً وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فان كان لنا فهو الذي نريد وان كانت علينا كنا قد قضينا الذى علينا وأبلينا عذراً فخصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازى وأقام يزدجرد فى حلوان وصار يمدهم بالرجال والأموال فأقاموا فى خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب الا طرقهم فارسل سعد بالخبر الى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشاً أميره هاشم بن عتبة وعين له أمراء تعبيته ففصل هاشم من المدائن فى صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) فى اثنى عشر ألفاً حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم فى خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حرباً هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لاطاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتي

وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصداً الري فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطاً لانها هي الثغر الذي يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر فى ذلك الوقت أن يقتصر المسلمون على ما ملكوه من سواد العراق وقال فى كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لايخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد واني آثرت سلامة المسلمين على الانفال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذى يكتب للناس و يدونهم فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذى كلمتني به فقال والله ما على وجه الارض شخص أهيب فى صدرى منك فكيف لاأقوي على هذا من غيرك فقام زياد فى الناس بما أصابوا و بما صنعوا و بما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه بالجملة المأثورة ( ان جندنا أطلقوا بالفعال لساننا ) ثم كتب عمر لسعد باقرار الفلاحين على حالهم الامن حارب أوهرب منك الى عدوك فأدركته وأجر لهم ماأجريت للفلاحين قبلهم واذا كتبت اليك فى قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية فى غير الفلاحين !! وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبد الله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من اياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوماً تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا اليه فأجابوه الى

ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (اذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا الى الابواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان (١) فسار اليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا الى الجبال فدعاهم ضرار الى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء (٢) يقودها عمر بن مالك فافتتح في مسيره هيت (٣) وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهلها على الجزاء

وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فمهدوا طريقة ادارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في أوجههم تغيراً فقال عمر (والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وانهم لكما أبدءوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب الى سعد

---

(١) كورة بها عدة مدن منها اريوجان عن يمين حلوان للقاصد الي همذان
(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات فهى مثلث بين الخابور والفرات (٣) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار مجاورة للبرية

أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكتب اليه سعد ان العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة ـ فكتب اليه عمر أن العرب لا يوافقها الا ما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربي الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء و رمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبا الى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فامره أن يسير بالجنود اليها فأرسل سعد الى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور و يسيروا اليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧ ( يناير سنة ٦٣٨ ) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقي بالمدائن جنداً ممن رضى الاقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتاً من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن وجعل على بناء المدينة أبا الهياج بن مالك الأسدي وأوضح له مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والازقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام في وسطه رام شديد النزع فرمي عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام و بنى فى مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت للاكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية و بنوا لسعد بحياله داراً بينهما طريق منقب مئتي ذراع وجعل فيها بيوت الاموال والذى بناه له

فارسي كبناية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذي وضعت عليه الكوفة ينبيء عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفي هذا العام نفسه بنيت الابنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي وان نزلها المسلمون سنة ١٤ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها الا في السنة التي اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن التي مصرت فيه

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة حلوان (١) وماسبذان وقرقيساء والموصل (٢) وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة

فتح الجزيرة (٣)

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر احداها يقودها سهيل ابن عدي لفتح الرقة والثانية يقودها عبد الله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عتبة بن الوليد لاخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ

---

(١) في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة

(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابله من الجانب الشرقي نينوى وهي من المدائن الاسلامية الكبري

(٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن امهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميا فارقين والموصل وغير ذلك

وأمر عمر ان كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر من شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بحمص فلما بلغهم توجه الجنود الى كورهم تفرقوا كل الي كورته فكان في ذلك تخفيفاً على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فانهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا فى أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التى تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فانهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضي عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا الى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم

فتح الاهواز (١)

كانت الاهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظمائها وكان يغير على ما بيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة فأمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذات ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتي جاز شاطىء دجيل فصار شاطىء دجيل بين المسلمين والهرمزان

---

(١) مجموع كور عدها ياقوت عشرا وهى سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندى سابور وسوس وسرق ونهر تيري ومناذر

ثم كاتبهم الهرمزان فى الصلح فصالحوه على الاهواز كلها ومهرجان قذق (١) ماعدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين : ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف فى حدود الارضين وقد دعا ذلك الهرمزان الى نقض الصلح والاستعانة بالاكراد فابلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ لأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم امداداً فسارت الجنود الى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الاهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز و بذلك اتسق للمسلمين جميع الاهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فاجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الاحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندى لمصدق وقد رأيتك رجلا فاخبرنى أان ظلمت الذمة ألمظلمة نفروا أم لغير ذلك فقال الاحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ماتحب قال فنعم اذا انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فاوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

غزو فارس من البحرين

---

(١) كورة واسعة ذات مدن وقري قرب الصيمرة من نواحى الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق الى همذان فى تلك الجبال

كان العلاء بن الحضرمى أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يبارى سعد بن أبى وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود ما يلى السواد سر العلاء أن يصنع شيئاً في الاعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين الى فارس فتسرعوا الى ذلك وفرقهم أجناداً فحملهم فى البحر بغير اذن عمر وكان عمر لا يأذن لاحد فى ركوب البحر غازيا فعبرت تلك الجنود فخرجوا في أصطخر (١) وبازائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لانه قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرك الفارسى قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا في موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وأبغض الوجوه اليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد وكتب عمر الى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا في اثنى عشر ألفاً وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد فى طريقه حتى وافوا شهرك وهو آخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا اخوانهم وهذه هى الغزوة التى شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار ثم

---

(١) مدينة كبيرة بفارس وهى قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحول اردشير الي جور

انكفئوا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق البصرة

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل فارس استأذن عمر في الحج فأذن له فلما قضى حجة استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن الى عمله فانصرف فمات في بطن نخله فدفن به و بلغ عمر خبره فمر به زائراً لقبره وقال انا قتلتك لولا أنه أجل معلوم و كتاب مرقوم وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨هـ

فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزد جرد يثير أهل فارس (١) وهو بمرو فكتب اليهم يذكرهم الأحقاد و يؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته أهل فارس والاهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب امراء الثغور الى عمر فكتب الى سعد امير الكوفة يأمره أن يبعث الى الاهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل الى أبي موسي الاشعري وكان ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً الى الاهواز يقوده سهل بن عدي وأمير الجندين معاً أبو سبرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتي اذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها

(١) فارس اسم لولاية واسعة واقليم منيع اول حدوده من جهة العراق ارجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران واعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطخر (٢) اردشير خرة (٣) دارابجرد (٤) سابور (٥) قباذخرة

فترك رامهرمز ولحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود الى
تستر وهناك توافقت جنود المصرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل في الحصار
جماعة من ذوي النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت
الحرب فيها سجالا وفى آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم
احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه الى البلد
فنهدوا إلى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف
فذهب الهرمزان الى القلعة ولما رأى شدة الامر عليه نادى متبعيه وقال أضع
يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع بى كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسر
لهم فملك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لاخذ ما أحاط بها من البلدان
وأرسل أبو سبرة وفداً الى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا الى المدينة دخلوا
على عمر وهو فى المسجد نائم ودرته معلقة فى يده فقال الهرمزان أين عمر
فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال
فينبغي أن يكون نبيا قالوا بل يعمل عمل الانبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا
ملك الاهواز فقال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال
يا عمر انا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن
معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم
وتفرقنا ثم قال عمر ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف
أن تقتلنى قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتي به في قدح غليظ
فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا فأتى به فى اناء يرضاه
فجعلت يده ترجف وقال اني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا

بأس عليك حتى تشرب به فأ كفأه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لى في الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر انى قاتلك قال قد أمنتنى فقال عمر كذبت فقال أنس صدق ياأمير المؤمنين آمنته قلت له لا بأس عليك حتي تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشرب به وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع الا لمسلم فأسلم ففرض له في العطاء على ألفين وأنزله المدينة

ثم قال عمر للوفد لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا مانعلم الا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الاحنف ياأمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على مافى أيدينا وأن ملك فارس حى بين أظهرهم وانهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنالم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسج فى بلادهم حتي نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس : فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الامر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند : فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

## فتح نهاوند (١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل انحائها جمعهم يزدجرد
يريد اعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل (٢) جنوبى
همذان فكتب عمر الى النعمان بن مقرن يوليه محاربة المجتمعين بها وحشد
اليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت اليها الجنود رأوابها جمعاً
عظيما متحصنا فى حصون قوية ولا يخرجون الا اذا شاءوا فلما طال عليهم
المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى فى الحروب ممن معه وقال لهم قد
ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وانهم
لا يخرجون الا ان يشاءوا وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق
بالذى هم فيه فما الرأى فتكلم عمرو بن ثبى وكان اكبر الناس يومئذ سنًّا
وكانوا إنما يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة
عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من اتاك منهم فرد رأيه وتكلم
عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران
والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الاسدى فقال أرى ان تبعث
خيلا تحدق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمشوهم فاذا استحمشوا
واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا الينا استطراداً فاننا لم نستطرد لهم في

---

(١) مدينة عظيمة فى قبلة همذان بينهما ثلاثة ايام ٤ فرسخا وهى اعتق مدينة فى الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهى ما بين اصبهان الى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

طول ما قاتلناهم وانا اذا فعلنا ذلك ورأو ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجادناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربى المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديدا وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل الى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان . أما نهاوند فان المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتووا ما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لانه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد الى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح فى بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الاحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالالوية الى أصحابها وهم:

(١) الاحنف بن قيس التميمى ووجه الي خراسان

(٢) مجاشع بن مسعود السلمى ووجه الى أردشير خرة وسابور

(٣) عثمان بن أبى العاص الثقفي ووجه الي اصطخر

(٤) سارية بن زنيم الكنانى ووجه الى فساود رابجرد

(٥) سهيل بن عدى ووجه الى كرمان

(٦) عاصم بن عمرو ووجه الي سجستان

(٧) الحكم بن عمير التغلبي و وجه الى مكران

فاستعدت الجنود للخروج الي أوجهها ففتح سنة ١٨ هـ

فتح أصبهان (١)

سار عبد الله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جي والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبد الله لا تقتل أصحابى ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لى فان قتلتك رجع أصحابك وان قتلتنى سالمك أصحابي وان كان أصحابي لا يقع لهم نشابة فبرز له عبد الله وقال اما أن تحمل على واما أن أحمل عليك فقال أحمل عليك فوقف له عبد الله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فاصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبد الله على الفرس فوقع عبد الله قائما ثم استوي على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلاً كاملاً ولكن أرجع معك الى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة اليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجري من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضي أهل جي بالصلح الا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جي واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبد الله بجي خليفة له وسار حسب أمر عمر الى كرمان لمساعدة سهيل بن عدى

---

(١) اقليم من نواحى الجبل كانت قاعدته جياً ثم صارت اليهودية

فتح أذربيجان ( ١ )

بينا نعيم بن مقرن فى همذان اذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم فى واج روذ بين همذان وقزوين فسار اليهم وقاتلهم فى ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتح الرى ( ٢ )

بعد أن انتهي نعيم من واج الروذسار إلى الرى فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قوله وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن الى قومس فسار اليها وأخذها سلماً ومن هناك كاتبه ملك جرجان ( ٣ ) بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب ( ٤ )

كان قائد الجيش الذى وجه الى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهر براز مستأمناً ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاءه الملك وقال له انى بازاء عدو كلب

---

(١) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقا الى ارزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة ( ٢ ) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا والى قزوين ٢٧ فرسخا وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسب اليها رازي ( ٣ ) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان ( ٤ ) مدينة عظيمة على بحر طبرستان ( بحر الخزر ) وهى ثغر عظيم

وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب ولا ينبغي لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الاحساب والاصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبج في شئ ولا من الأرمن وانكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فوقي رجل قد أظلك فسر اليه فجوزه فسار الي سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة الي عمر فاجازه وحسنه وكان في كتاب صلحهم الأمان لا نفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك الا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغني عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً فان حشروا وضع ذلك عنهم وان تركوا أخذوا به — وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بارمينية موقان وتفليس وجبال اللان

## فتح خراسان (١)

كان يزدجرد قد سار الى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس اليها واطمأن فى نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مر ومن بقي من الاعاجم فيما لم يفتتحه المسلمون فدانوا له فوجه اليه الاحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مر والشاهجان فخرج منها يزدجرد الى مر والروذ وكتب الى خاقان ملك الترك يستمده والى ملك الصغد وملك الصين أما الاحنف فاتجه الى مر والروذ حتى اذا بلغ ذلك يزدجرد سار عنها إلى بلخ فنزل الاحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الاحنف حتى اذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر النهر بمن معه فى أهل فارس فعاد الاحنف الى مر وفنزلها وكتب اليه عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على مابيده : ولما عبر يزدجرد النهر أتته جنود مددا من ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الاحنف فخرج اليه الاحنف لما أحس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فانهم تعاقدوا مع الاحنف وتراجعوا الي بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا من الاكاسرة فكانوا كأنما هم فى ملكهم الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا

---

(١) بلاد واسعة فى شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو ونيسابور وهراة و بلخ وطالقان ونسا وابيورد وسرخس وغيرذلك من المدن التى دون نهر جيحون

## فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلى ثم فتح فساودارابجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدي كرمان . وفتح عاصم بن عمرو سجستان . وفتح الحكم بن عمرو التغلبى مكران

ومما يستظرف من الاخبار حديث قيس بن سلمة الاشجعى فان عمر ولاه قيادة جيش لمقاتلة الأكراد فسار اليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئاً من حلية فقال ان هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب أنفسكم أن نبعث به الى أمير المؤمنين فان له برداً ومؤنة قالوا نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية فى سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك الى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فاذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القصاع فلما دفعت اليه قال اجلس فجلست فى أدني الناس فاذا طعام فيه خشونة طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفا ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبعته فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكيء على وسادتين من أدم محشوتين ليفا فنبذ الى باحداهما فجلست عليها واذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم غداءنا فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا فقالت اني أسمع عندك حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج الى

الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته قال أوما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لاطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلا وطعامي الذى معى أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه ثم قال اسقونا فجاءوا بعس من سلت فقال اعط الرجل قال فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته فقلت حاجتي ياأمير المؤمنين انا رسول سلمة بن قيس قال مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله حدثني عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فانها شجرة العرب ولا تصلح العرب الا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدي اليه رسالته وأخبره خبر الحلية التى اختصه بها سلمة فلما نظر الى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرته ثم قال لاأشبع الله اذا بطن عمر ثم قال كيف ما جئت به أم والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لافعلن بك وبصاحبك الفاقرة قال فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلت مابارك الله فيما اختصصتنى به اقسم هذا في الناس قبل أن يصيبنى واياك فاقره فقسمه فيهم

ولست فى حاجة الى أن أنبهكم الى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهي تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأى الأعلى بيت أمير المؤمنين وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم في الرجال نفساً ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه

الحلية شيء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض الا أن يردها عليهم فكيف لا تكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب

والى هنا انتهى ما نريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائياً بين أيدى المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الارض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهرا جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندى ومن الشمال بلاد إرمينية . كل ذلك في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم فى جميع المواقع التى زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فانهم لم يكونوا يتهاونون فى أمره كما كان يوصيهم خليفتهم دائماً وعرفوا بالعدل فى حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الاخلاق والمدنية فى عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض الروم

## المحاضرة الرابعة والعشرون

### الفتوح فى بلاد الروم — فتح حمص — فتح بيت المقدس

### الفتوح فى بلاد الروم

كانت واقعة اليرموك في أول حياة عمر فى أثنائها جاء الخبر بموت ابى بكر واستخلاف عمر وتولية أبى عبيدة إمرة الجيش كله والقواد كلهم تحت مرتبته : بعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو فحل (١) من أرض الاردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد

(١) من بلاد الاردن بين حوران وفلسطين

وهناك التقت الفئتان فانهزم الروم ودخل المسلمون فحل وسار الروم الي دمشق فكانت فحل في ذي القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر ثم ساروا الى دمشق ( ١ ) وخالد على المقدمة فحاصروها ونزلوا حواليها فكان أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ولما أيقنوا أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعاً فيهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفي عليه شيء من أمر العدو عيونه ذاكية وهو معنى بما يليه فاتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً فبلغه ذات ليلة ان الناس غافلون فى فرح لعظيمهم فنهد بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع بن عمرو وامثاله وقال للجند اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلي ظهورهم القرب التى قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعا أحبولة الا أثبتاها والاوهاق بالشرف وكان المكان الذى اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشده مدخلاً وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد الا رقي أو دنا من الباب حتى اذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمى ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون الي الباب ومال الى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهي خالد إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر

---

( ١ ) بلد عظيم هو قصبة الشام صارت حاضرة البلاد الاسلامية فى عهد الدولة الأموية

الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم
وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم
من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ
منهم الذى أراد عنوة أرز من أفلت الى أهل الأبواب التي تلي غيره وقد كان
المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم يفجأهم الا وهم يبوحون لهم
بالصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من
أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة
فالتقى خالد والقواد فى وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً
فأجروا ناحية خالد مجري الصلح فصار صلحاً وكان صلحها على المقاسمة وصارت
دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحاً وبعد ان تم أمرها جاء كتاب عمر لأبي
عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى
خالداً معه ضناً به

الوقعة بمرج الروم

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها
قائدان من قواد الروم توذر البطريق وشنس فوقف الجندان متقابلين وفى
الصباح رأوا الارض خلواً من توذر ومن معه فتحسسوا الخبر فعلموا أن توذر
أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً أن يتبعه وقد بلغ يزيد بن أبى سفيان وهو
بدمشق قدوم توذر فخرج اليه محارباً وبيناهما يتحاربان قدم خالد فأصاب

الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد الى دمشق وعاد خالد إلي أبي عبيدة فلحقه بعد أن انتهى من هزيمة جندشنس الى حمص

فتح حمص ( ١ )

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم الى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنه لم يصبهم شيء تراجعوا الي الصلح فصولحوا على مثل صلح أهل دمشق

ثم أرسل خالداً الى قنسرين فلما نزل بالحاضر ( ٢ ) زحف اليهم الروم وعليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل ميناس ولم يفلت من الروم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا الي خالد أنهم عرب وأنهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم: ولما بلغ عمر ذلك قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني وقال في حقه هو والمثني بن حارثة اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما: ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لانزلكم الينا فنظروا في أمرهم وذكروا مالقى أهل حمص

---

(١) بلد قديم في شمال دمشق بينها وبين حلب في نصف الطريق

(٢) مكان بالقرب من حلب يدعي حاضر حلب كان يجمع أصنافا من العرب

فصالحوه على صلح حمص ثم فتحت قيسارية (١) على يد معاوية بن أبي سفيان وفتحت أجنادين (٢) على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطبون وهو أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج أقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الارطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون في نفسه والله ان هذا لعمرو أو انه للذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لاصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرسياً فساره بقتله فقال اخرج فقم مكان كذا وكذا فاذا مر بك فاقتله وفطن له عمرو فقال قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره فارجع فآتيك بهم الآن فان رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير وان لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ودعا رجلاً فساره وقال إذهب الى فلان ورده الي فرجع اليه الرجل وقال لعمرو اذهب فجيء بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال خدعني الرجل هذا أدهى الخلق (٣) ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه

---

(١) بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة ايام وكانت قديما من أمهات المدن (٢) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبرين

(٣) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق والا كانت دليلا على بلاهة فاعلها ولا يتصور أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركا جنده من غير راع لهم خصوصا اذا كان ذلك القائد هو عمرو بن العاص

فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديدا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم ان أرطبون انهزم من الناس فأوي الى ايليا ونزل عمرو أجنادين

## فتح بيت المقدس

كانت ايلياء عاصمة الدين ففيها البيت المقدس وخدام الدين وكان المتولي لامر حربهم عمرو بن العاص لانه ولى على فلسطين وايليا حاضرتها الكبرى ولما طال على أهلها الحصار رغبوا في الصلح على شرط أن يكون المتولى لعقده عمر بن الخطاب فكتب اليه عمرو بذلك فسار الى الشام وهي أول خرجة خرجها وكتب الى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويقابلوه بالجابية فلقوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم أبوعبيدة ثم خالدعلى الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سرع ما لفتم عن رأيكم آياى تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين سرع ماندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المئتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا ياأمير المؤمنين انها يلامقة وان علينا السلاح قال فنعم اذاً وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل لم يتحركا من مقامهما وهناك جاءته رسل أهل ايليا يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم كتابا هذا نصه ( بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولاتهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى

أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها
الروم واللصوت فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا امأمنهم
ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن
أحب من أهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم
فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان
بها من أهل الارض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما علي
أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه
لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد
الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من
الجزية ) شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن
ابن عوف ومعاوية أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ و بعد أن أعطاهم
الامان شخص الى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القمامة وحان
وقت الصلاة فقال للبترك أريد الصلاة فقال له صل موضعك فامتنع
وصلى على الدرجة التى علي باب الكنيسة منفرداً فلما قضي صلاته قال
للبترك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدي وقالوا هنا
صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم
قال أرني موضعاً أبنى فيه مسجداً فقال على الصخرة التي كلم الله عليها
يعقوب فوجد عليها ردماً كثيراً فشرع فى إزالته وتناوله بيده يرفعه فى
ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولى أمراء
الشام بعد ان قسمها أقساماً وجعل فلسطين ولايتين أحداهما قصبتها

الرملة والاخري قصبتها ايلياء — ومما يزيد المسلم شرفاً تلك المعاملة الباهرة التى عامل بها سلفه مغلوبيهم من الوفاء والعدل فاذا قارن ذلك بما أصيب به أهل ايلياء حينما فتحت على أيدي الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين

وفى سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية وخرج معه المهاجرون والانصار فسار حتي اذا نزل بسرغ (١) لقيه أمراء الاجناد فأخبروه أن الارض سقيمة وكان بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع لى المهاجرين الاولين قال فجمعتهم له فاستشارهم فاختلفوا عليه فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ولانرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ومنهم القائل انه لبلاء وفناء ماترى أن تقدم عليه فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الانصار فجمعهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم قال اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فانه بلاء وفناء فقال عمر يا ابن عباس أصرخ فى الناس فقل ان أمير المؤمنين يقول لكم اني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال أيها الناس انى راجع فارجعوا فقال أبو عبيدة بن الجراح افراراً من قدر الله قال نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان احداهما خصبة والاخرى جدبة أليس يرعى من رعي الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا

---

(١) اول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة و تبوك من منازل حاج الشام

به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالامس فلما أخبر الخبر قال عندى من هذا علم قال عمر فأنت عندنا الامين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجنكم الا ذلك فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمي طاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل ابن عمرو وعتبة بن سهيل وأشراف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء الا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس أن هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه فى الجبال فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتي رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير الى الشام لينظر في أمر الناس بعد هذا المصاب فسار حتى أتي الشام فنظر فى أمور الناس وولى الولاة وورث الاحياء من الاموات ثم خطبهم خطبة قال فيها (ألا وانى قد وليت عليكم وقضيت الذي على فى الذي ولانى الله من أمركم الى أن قال — فمن علم علم شيء ينبغى العمل به فبلغنا نعمل به ان شاء الله ولا قوة الا بالله) وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فما بقى أحد كان أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم و بلال يؤذن له الابكى حتي بل لحيته وعمر

أشدهم بكاء و بكي من لم يدركه ببكائهم لذكره صلي الله عليه وسلم ثم رجع عمر الى المدينة

وفى عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر علي يد القائد العظيم عمرو بن العاص السهمي : ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص فى محاضراتنا أحببنا أن نرجيء تفاصيل فتحها الى الوقت الذى نتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقاً

هذا ما كان من الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب فى مدة لا تزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو بلاد الشام ومصر وأديرت البلاد على مقتضي العدل الاسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لانه قد زال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة

ولما كانت حياة عمر ممتازة عما كان فيها مما جعل بعد أساساً عظيما لكثير من المدنية الاسلامية أحببنا أن نورد عليكم منها جملا لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذى ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسياً في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفه أبي بكر الصديق

## المحاضرة الخامسة والعشرون

١

القضاء — سيرة عمر فى عماله — معاملة عمر للرعية — عفته عن مال المسلمين — ميله للاستشارة وقبول النصح — رأى عمر فى الاجتماعات — وصفه و بيته

القضاء

عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الامراء
عين للكوفة شريح بن الحرث الكندي وكان من كبار التابعين وقد أقام
قاضيا بها ٧٥ سنة لم يعطل فيها الا ثلاث سنين فى فتنة ابن الزبير ولما
ولى الحجاج استعفاه فأعفاه ومن طرفه فى القضاء أن عدى بن أرطاة دخل
عليه فقال انى رجل من اهل الشام قال من مكان سحيق قال تزوجت
عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله
قال وشرطت لها دارها قال الشرط أملك قال فاحكم بيننا قال قد حكمت
وهو الذى قال حين تزوج امرأة من بنى تميم ثم نقم عليها شيئاً فضربها

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يمينى يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به فما العدل منى ضرب من ليس مذنباً
فزينب شمس والنساء كواكب اذا طلعت لم تبق منهن كوكبا

توفي سنة ٨٧ هـ

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبى العاص السهمي حسبما جاء بكتاب

القضاء الذين ولوا مصر فهو أول قاض قضى بها فى الاسلام

وولى أبا الدرداء بالمدينة وهو من الصحابة : ومن أعرف من ولاهم أبوموسى الاشعرى ولما كان العهد الذى ولاه به مما يبين لنا شيئاً من نظام القضاء وأصوله أحببنا ايراده ودونكموه

بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس سلام عليك أما بعد فان القضاء فريضة (١) محكمة وسنة متبعة فافهم (٢) اذا أدلى اليك فانه لاينفع تكلم بحق لا نفاذ له : آس (٣) بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر : والصلح (٤) جائز بين المسلمين الأصلحا أحل حراما أوحرم حلالا : لا يمنعك (٥) قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك

---

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التي يقضى بها وهي لا تعدو ما حده الله وهذا ما اشار اليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسول الله وسار عليه وهو ما اشار اليه بالسنة المتبعة (٢) يريد ان من يدلى بحجته مهما يكن مصيبا بليغا فان كلامه لاينفعه اذا لم يكن لكلامه نفاذ الى قلب القاضي وذلك لا يكون الا بالتنبه لما يقل من الخصوم (٣) هذا اساس المساواة التى بها جاء الدين ولا احترام للقضاء بدونها فان القاضى اذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فشت القالة فيه وان نجا من مغبتها اليوم فانه ليس بناج غدا (٤) تكاد تتفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام لاقيمة له لان الخصم اذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه بما شاء فانه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور (٥) يريد بذلك ان القاضى لايتقيد بما فهمه من النصوص فحكم به فى قضيته اذا ظهر له وجه الخطا كان عليه ان يحكم بما تجدد من التفسير فيما يشابهها من القضايا وانما كان هذا مراده لان عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم فى حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذاك على ماقضينا وهذا على مانقضي

أن ترجع الى الحق فان الحق قـديم ومراجعـة الحق خـير من التمادى في الباطل : الفهم الفهم ( ١ ) فيما تلجج فى صدرك ممـا ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الا شباه والامثال فقس الامور عند ذلك واعمـد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل ( ٢ ) لمن ادعى حقاً غائبا أمداً ينتهى اليـه فان أحضر بينته والا استحللت عليه القضـية فانه أنفى للشـك وأجـلى للعمي المسلمون ( ٣ ) عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً فى حدأ ومجربا عليه شهادة زور أوظنينا فى ولاء أو نسب فان الله تولى منـكم السرائر ودرأ بالبينات والايمـان : واياك ( ٤ ) والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عنـد الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجـري ويحسـن به

---

(١) يريد بذلك بيـان أصل ثالث للاحكام وهو القيـاس وهو ان يلحق مالم يعلم حكمه بمـا علم حكمه لمشابهة بينهـما فى السبب الذى من اجله شرع الحـكم ومن ذلك يكون من أوجب الواجبات على القـاضي ان يكون عارفا باسرار التشريع حتى يمكنه هذا الالحـاق ومن ذلك ينتج اشتراط ان يكون مجتهدا لا مقلدا غيره فى تفسير او تأويل (٢) يشير بذلك الى جواز التاجيل اذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول والذى ذكره من الاسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه (٣) يشير بذلك الى اصل عام وهو ان الاصل فى الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض الا اذا عرض ما يفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة أشياء الاول الجلد فى الحد ويظهر انه يريد بذلك حد القذف لان الله يقول ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا الثانى المجرب عليـه شهادة الزور الثالث الظنين فى الولاء او النسب وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم او يكون لهم نسب فى قبيلته فينتسب الى غيرها وكان هذا جالباً للعـار ولعله يكون فى زمننا كذلك (٤) يشير بذلك الى ما يجب على القاضى من الاناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرثاثتهم اوارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل انسان حريته فى الدفاع عن نفسه

الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله مابينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساسا لنظاماتهم القضائية وهو جدير بذلك

بالطبع لم يكن القضاء في زمنهم الاسهلا مجردا عن النظامات الوضعية وكان للقاضي الكلمة العليا في قضاياه أعنى انه مستقل تمام الاستقلال فى قضائه لا يمنعه شيء ان يحضر إلى مجلسه الامير فمن دونه

سيرة عمر فى عماله

كان عمر ممن يشتري رضا العامة بمصلحة الامراء فكان الوالي فى نظره فردا من الافراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس لايعد له شيء من أخلاقه اذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوي بينهما فى الموقف حتى يظهر الحق فان توجه قبل العامل اقتص منه ان كان هناك داع إلى القصاص أوعامله بما تقضي به الشريعة أوعزله

وسواس الامم على اختلاف في ذلك فمنهم من لم ير القصاص من العمال يري ذلك أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك في عهد الاضطرابات التي يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف في قلوب العامة وكان أبو بكر لايقيد من عماله ولعل ذلك لما كان فى عهده من

الاضطراب فى الجزيرة العربيـة أما عمر فـكان على غـير ذلك الرأي لان مصلحة العامة عنـده كانت فوق كل شيء والامر قد اسـتقر فلم يكن هناك مايدعو الى مراعاة هذه السياسة

كان اذا بعث عاملا على عمل يقول اللهم انى لم أبعثهم ليأخـذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا امرة عليـه دوني : وخطب الناس يوم جمعة فقال اللهم أشهدك على أمراء الامصار انى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا بينهم فيأهم وان يعدلوا فان أشـكل عليهم شيء رفعوه إلى : وكان اذا اسـتعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول انى لم أستعملـكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على اشعارهم ولا على أبشارهم انما اسـتعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصـلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسـموا بينهم بالعدل وانى لم أسلطـكم على أبشارهم ولا على أشـعارهم ولا تجـلدوا العرب فتـذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تغـفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريكـكم :وخطب مرة فقال أيها الناس إني والله ماأرسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذو أموالـكم ولـكنى أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى فوا الذى نفس عمر بيده لاقصنه منـه . فوثب عمرو بن العاص فقال ياأمير المؤمنين أرأيتك ان كان رجـل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته انك لتقصه منـه قال أى والذى نفس عمر بيـده اذا لاقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسـه ألا لا تضربوا المسـلمين فتـذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم

فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم وكان للوصول الى مايريد من عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في الموسم موسم الحج ومن كانت له شكوي أو مظلمة هناك فليرفعها واذ ذاك يحقق عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد الى المظلوم ظلامته ان كانت وكان العمال يخافون أن يفتضحوا على رءوس الاشهاد فى موسم الحج فكانوا يبتعدون عن ظلم أى انسان كان

وقد استحضر عمر اليه كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية قدمت اليه من بعض الافراد فقد استحضر سعد ابن أبى وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن وممصر الكوفة وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة فجمع بينه وبينهم فوجده بريئا . واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير على البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوي الاثر الصالح فى الفتوح الاسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه اليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع فى كلمه القليلة ان عزل وعاتب واستحث وأمر ( أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسي أميراً فسلم ما فى يدك والعجل العجل ) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذى فرضه الله لمثلهم : وشكي اليه عمار بن ياسر وكان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الاولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيه فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم انه غير كاف ولا عالم بالسياسة . وقال قائل منهم انه لا يدرى علام استعمل فاختبره عمر فى ذلك اختباراً يدل على سعة علم

عمر بتلك البلاد فلم يحسن الاجابة فى بعضه فعزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك فقال أساءك حين عزلتك فقال والله ما فرحت به حين بعثتني ولقد ساءنى حين عزلتنى فقال لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكنى تأولت قوله تعالي (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

ولم يمض عامل زمن عمر موثوقاً به من عمر في كل أيامه الا القليلين وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله الى كل شكوي ليحققها فى البلد الذى حصلت فيه وكان ذلك العمل موجهاً الى محمد بن مسلمة الذى كان يثق به عمر ثقة تامة وكان محلا لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقا سريا وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علناً وعلى ملأ من الأشهاد ولم يكن هناك محل للتأثير فى أنفس الشهود لان يد عمر كانت قوية جداً وكان لكل إنسان الحق أن يرفع اليه شكواه مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيراً

وقد شاطر عمر بعض العمال ما فى أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم يفعل هذا الفعل الا قليلا وربما وجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ولكن عمر كان يعرف من من عماله يستحق أن تقع به تلك العقوبة اذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثري ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها : لم ير عمر أمام ذلك الا هذه المصادرة وقد اكتفي بأن يشاطر العامل ما يملك وليست

أريد أن أحسن هذه الطريقة وولى عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معه بمال فقال عمر ماهذا ياعتبة قال مال خرجت به معي واتجرت فيه قال ومالك تخرج هذا المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال: وكانت التجارة هي التكأة التي يتكئ عليها بعض العمال في ثروتهم وكان عمر يمنعهم عن التجارة منعاً باتاً وعلى الجملة فشدة عمر على عماله رفهت الرعية

معاملته للرعية

على قدر ما كان عليه عمر من الشدة على عماله كانت رأفته ورقته على عامة الناس من رعيته والاهتمام بما يصلحهم ويحس من ذلك بمسؤولية عظمى فكان يقول لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب وقال هشام الكعبي رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتيه بقديد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفى: قال الحسن البصري قال عمر لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا ترفعونها الي وأما هم فلا يصلون الى فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدد الأمصار الكبرى يقيم في كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) وروى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة واقم حتى اذا كنا بصرار اذا نار تؤرث فقال يا أسلم اني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام فقال أأدنو قالت أدن بخير

أودع فقال مابالكم قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأي شيء في هذه القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا الله بيننا و بين عمر فقال أي رحمك الله ما يدري عمر بكم قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا فأقبل على فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتي أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال احمله علي قلت انا أحمله عنك قال احمله على مرتين أو ثلاثا كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال فى آخر ذلك أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا اليها فألقي ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئا وجعل يقول ذرى علي وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج وأدم القدر وقال ابغني شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولى خيراً انك اذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله ثم تنحي ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول ان لك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال يا أسلم ان الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أري ما رأيت فيهم

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل على روح الرجل وشفقته وخوفه أن يكون مقصراً بحق من ولى عليهم من الرعية

خطب مرة فقال أيها الناس اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهماً محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فان عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ان لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده : لم يكن عمر يستعمل في تأديب الناس إلا درته وهى عصا صغيرة كالمخصرة كانت دائما في يده أنى سار وكان الناس يهابونها اكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة

روي الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقال أمط الطريق فلما كان فى العام المقبل لقينى فقال يا سلمة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدى فانطلق الى منزله فأعطانى ستمئة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها بالخفقة التى خفقتك قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال وأنا ما نسيتها . فعمر كان مؤدباً حكيما ولعل درته لم يسلم من خفقها إلا القلائل من كبار الصحابة

روى راشد بن سعد ان عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص اليه فعلاه عمر بالدرة وقال انك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الارض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك : والذى أغضب عمر منه هو مزاحمته الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لا يرى منها بديلا

كانت الرعية ـ مع هذا ـ تهابه مهابة شديدة . روي أسلم ان نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتي والله مانستطيع أن نديم اليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبد الرحمن ابن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك والله لقد لنت لهم حتي تخوفت الله فى ذلك ولقد أشتددت عليهم حتى خشيت الله وايم الله لانا أشد منهم فرقاً منهم منى

عفته عن مال المسلمين

كان يحبب عمر إلى الناس عدله وتسويته ويزيده اليهم حباً عفته وأمانته فقد كان يرى مال المسلمين مرتعاً وخيماً لمن رتع فيه حتي انه كان يقتر على نفسه تقتيراً ربما وجد مساغاً لاعتراض قصار النظر . كان عمر يري انه لاينبغي أن يأكل الا مما يأكل منه أقل رعيته لا يتجاوز ذلك إلى مافوقه . كان يأخذ عطاءه من بيت المال ثم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فاذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده مايسدد منه احتال له حتى اذا أخذ اعطاءه سدد منه ولما رأى بعض الصحابة مايعانيه عمر من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وقالوا لو قلنا لعمر فى زيادة نزيدها اياه فى رزقه فقال عثمان هلم فلنعلم ماعنده من وراء وراء فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لاتخبر بهم عمر فلقيت حفصة عمر فى ذلك فغضب وقال من هؤلاء لاسوءنهم قالت لاسبيل إلى علمهم قال أنت بينى وبينهم ماأفضل مااقتني رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع

قال فأى الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال فأي مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين نربعه فى الصيف فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال ياحفصة فأبلغيهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لاضعن الفضول مواضعها ولا تبلغن بالترجية وانما مثلى ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الاول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم أتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضي اليه ثم اتبعهما الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وان سلك طريقا غير طريقهما لم يلقهما

وكان يتحاشي أن ينتفع احد من آل بيته بشيء ليس له فيه حق روى مالك في الموطا أنه خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبى موسى الاشعرى وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على امر أنفعكما به ثم قال بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح فقالا وددنا ذلك ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك الي عمر قال أكل الجيش أسلفه قالا لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلفكماه أديا المال وربحه فأما عبد الله فسكت وأما عبيد الله فقال ماينبغي لك ياأمير المؤمنين هذا لو نقص هذا المال أوهلك لضمناه فقال عمر أدياه فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله

فقال رجل من جلساء عمر يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً فأخذ عمر رأس المال
ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال قالوا وهو أول قراض
في الاسلام . ولما ترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسير اليه
عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى ملكة الروم
بطيب ومشارب وأحفاش من احفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها
فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك
العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما
انتهى به البريد اليه أمر بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم
ركعتين وقال انه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري قولوا
في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم
فقال قائلون هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا
تحت يدك فتتقيك وقال آخرون قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبعث بها
لتباع ولنصيب شيئاً فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم
والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر
نفقتها . فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالا
للعدول عن الجادة . وكان اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال
اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير إلى اللحم
وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الا أضعفت عليه العقوبة

ميله للاستشارة وقبوله للنصح

كان عمر اذا نزل به الامر لايبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لاخير في امرأ برم من غيرى شورى وكان لشواره درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليه رأيهم فعل به . ومن قوله فى ذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شوري بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر مااجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن قام بهذا الامر تبع الاولي رأيهم مارأوا لهم ورضوا به من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعاً لهم فجعل أولى الامر منفذين لما رآه أولو الرأى والناس تبع لما أخذ به الامام من رأى أولى الرأى . وكثيراً ماكان يرى الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلى رأيه . رأي مرة مغالاة الرجال في مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوزه الناس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقد قال الله تعالى ( وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصائحهم ويبينون له وجه الحق اذا رأوا منه انحرافاً عن القصد قال مرة في خطبته أيها الناس أن احسنت فأعينوني وان صدفت فقوموني فقال له رجل من أخريات المسجد لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا فسره ذلك : وكان له خاصة من كبار أولى الرأى منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لايكاد يفارقه فى سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ونظراؤهم

رأي عمر في الاجتماعات

كان عمر يميل الى ان تكون مجتمعات الناس عامة يهوى اليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس لأن ذلك يدعوهم الى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة . روى ابن عباس ان عمر قال لناس من قريش بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وايم الله ان هذا السريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأى فلان قد قسموا الاسلام أقساما أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس وفى الحق ان ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بافراد يجلسون اليهم مضيع كثيراً لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيدة فائدة كبرى وهي نقل أقوالهم غير محرفة ولا مشوبة بما يطمس حقيقتها ثم ان كثرة المجالس تدعو بدون ريب الى كثرة الاختلاف فى المسائل التى تعرض لهم فتكثر الاقوال المتباينة فى الدين والذى خافه عمر على الناس وعلى من يأتى قد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن أفراد ذلك العصر وعاد ذلك الى اختلاف الناس فى الدين اختلافاً عظيماً

الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيته حباً جماً ويحب مايصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه الى القلوب فكان عفيفاً عن أموالهم عادلا بينهم مسوياً بين الناس لم يكن قوي يطمع أن يأخذ اكثر من ماله ولا ضعيف

يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيما يضع الشيء في موضعه يشتد حينا و يلين حينا حسبما توحي اليه الظروف التي هو فيها عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تالم السير فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر الى خسف يلحقها من أي انسان ولذلك نقول ان عمر أتعب من بعده فان النفوس التي تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها والا فأين ذلك الرجل الذي يفني في مصلحة رعيته ولا يري لنفسه من الحقوق الا كما لادناهم مع تحمله مشقات الحياة واتعابها . العربي يستدعي سياسته حكمة عالية فانك ان اشتددت معه أذللته فهلك وان لنت معه ليكون رجلا نافعا لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج الى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه الشدة ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير الا في رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم يجمعوا صفات عمر التي كان مجموعها كدواء مركب اذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بان العرب بعد عمر لم تجتمع على أى خليفة في أى زمن من الازمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول

بيت عمر

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جمح من قريش فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الاكبر وحفصة أم المؤمنين

وتزوج في الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة فاولدها عبيد الله وقد فارقها في هدنة الحديبية

وتزوج قريبة ابنة أبي أمية من بني مخزوم وقد فارقها في المدنة

وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة

وتزوج جميلة بنت قيس من الانصار فولدت له عاصما وهذه طلقها

وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيداً ورقية ومات عنها

وتزوج لهية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الاصغر

وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها الى عائشة فقالت الامر اليك فقالت أم كلثوم لا حاجة لي فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين فقالت نعم انه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة الي عمرو بن العاص فأخبرته فقال اكفيك فأتى عمر فقال ياأمير المؤمنين بلغني خبر أعيذك بالله منه قال ماهو قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر قال نعم أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك ومانقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبابكر في ولده بغير مايحق عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وخطب أم ابان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابسا ويخرج عابسا

## المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر — عثمان وكيف انتخب — ترجمته — أول قضية نظر فيها كتبه الى الامصار — أول خطبة له — الفتوح فى عهده

### مقتل عمر

ما كان يظن أن تنتهى حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتي يعلم الناس أنه ليس في مكنة انسان أن يرضى الخلق كافة فان عمر اذا كان قد أرضي العرب بما صنعه لهم وأرضي عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراءهم وذوى السلطان عليهم لانه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم

كان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذونهم لانفسهم عبيدا وقد احضروا عدداً منهم إلى المدينة وكانوا يختلفون الى الهرمزان ملك فارس الذى أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لافضل له على واحد

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه نيروز ويكنى بأبى لؤلؤة وهو غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يوماً فى السوق لقيه ذلك الغلام فقال يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة بن شعبة فان عليّ خراجا كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال عمر وايش صناعتك قال نجار نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال قد بلغني انك تقول لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت قال نعم قال

فاعمل لي رحاً قال ان عشت لأعملن لك رحاً يتحدث بها من في المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد توعدني العبد آنفاً ثم انصرف عمر الي منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الاحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحليتك وانه قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك الى صبيحتها . ولو صحت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة في أن لكعب يداً في مقتل عمر أو أنه كان عالماً بما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر وربما يقال لو كان كذلك فما ذا يدعو كعباً الى انباء عمر بهذا النبأ والجواب عن ذلك سهل فانه ينال بذلك بين المسلمين مركزاً عظيما فان كثيرا منهم يرون بعد ذلك ان توارته فيها علم كل شيء وأنه صادق في كل ما يخبر به فلا يتردد سامعه لحظة في تصديقه بما يوحى به اليه وكعب هذا ممن أفاض علينا ثروة من الاخبار الاسرائيلية التي لا ندري حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كذب محض لان التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر الي صلاة الصبح وكان يوكل بالرجال صفوفاً يسوونها فاذا استوت جاء هو فكبر ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات احداهن تحت سرته وهي التي قتلته وقتل معه كليب بن ابى

البكير الليثي وكان خلفه فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال أفي الناس عبد الرحمن ابن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصلّ بالناس وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فنادى عبد الله بن عمر وقال أخرج فانظر من قتلني قال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة ثم جعل الناس يدخلون عليه المهاجرون والانصار فيقول لهم أعن ملأ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثاً أعدها ... ولا شك أن القول ما قال لي كعب

وما بي حذار الموت أني لميت ... ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفي ليلة الاربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الاربعاء فى حجرة عائشة مع صاحبيه حسبما أوصى بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلى عليه صهيب حسب وصيته . وروي أن طعنه كان فى يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذى الحجة ودفن يوم الاحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر واحدي وعشرين ليلة من متوفي أبي بكر . والصحيح الاول ومدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣ الى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ كصاحبيه

## ٣ ﴿ عثمان بن عفان ﴾

### كيف انتخب

لما طعن عمر وأحس بالموت طلب اليه أن يعهد الى خليفة من بعده فتردد وقال ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني ( يريد أبا بكر ) وان أترك فقد ترك من هو خير منى ( يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ) وقال لو كان أبو عبيدة حيا استخلفته فان سألنى ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته فان سألني ربى قلت سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله فقال له رجل أدلك على عبد الله بن عمر فقال قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته لا أرب لنا في أموركم ما حمدتها فأرغب فيها لاحد من أهل بيتى ان كان خيراً فقد أصبنا منه وان كان شراً فشرعنا الى عمر بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم أما لقد أجهدت نفسي وحرمت أهلي وان نجوت كفافا لا وزر ولا أجر انى لسعيد

ثم كرر عليه القوم بعد هنيهة طلب الاستخلاف فقال كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولى رجلا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار الى عمر ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حياً وميتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم من أهل الجنة علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله فليختاروا

منهم رجلا فاذا ولوا والياً فأحسنوا موازرته وأعينوه ان ائتمن أحداً منكم
فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم اني نظرت فوجدتكم رؤساء
الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو عنكم راضٍ إنى لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكن
أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الاجل الذى
يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن الاسود
اذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا
منهم وقال لصهيب صلّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً
وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ان قدم (وكان غائباً) وأحضر عبد الله بن
عمر ولا شيء له من الامر وقم على رءوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا
وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى
اثنان فاضرب رءوسهما فان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله
ابن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم
عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين
ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل
فى حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن
عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم فتنافس القوم فى الامر وكثر بينهم
الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لان تدفعوها أخوف منى لان تنافسوها
لا والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الايام الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس

فى بيتى فأنظر ما تصنعون فقال عبد الرحمن بن عوف ايكم يخرج نفسه
منها و يتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال
عثمان فأنا أول راض ثم تتابع القوم على الرضا وعلى ساكت فقال ماتقول
ياأبا الحسن قال أعطنى ميثاقاً لتؤثرن الحق ولاتتبع الهوى ولاتخلص ذا
رحم ولا تألوا الامة فقال عبد الرحمن أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معي
على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق الله أن لاأخص
ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله وبذلك صار
الامر فى عنق عبد الرحمن بن عوف فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الاجناد واشراف الناس
يشاورهم ولايخلو برجل الا أمره بعثمان حتي اذا كانت الليلة التى يستكمل
في صبيحتها الاجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدعو اليه الزبير وسعداً
فدعاهما فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلى دار مروان فقال له
خل ابنى عبدمناف وهذا الامر فقال الزبير نصيبي لعلى : وقال لسعد أنا وأنت
كلالة فاجعل نصيبك لى فاختار قال ان اخترت نفسك فنعم وان اخترت
عثمان فعلى أحب إلى أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال ياأبا اسحاق انى
قد خلعت نفسي منها على أن اختار ولولم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردها ثم
قال لايقوم بعد أبى بكر وعمر أحد فيرضي الناس عنه ثم انصرف الزبير
وسعد وأرسل المسور إلى على فجاء فناجاه طويلا ثم أرسل إلى عثمان فجاء
فناجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث
إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الانصار والامراء حتى

التج المسجد بأهله فقال أيها الناس ان الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الامصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين آراءهم فقال سعد يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ودعي عليا فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ماقال لعلي فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك علي تأثر وخرج وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤

## ترجمة عثمان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الاموي القرشي وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الاخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيا عفيفا ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من السابقين الاولين أسلم على يد أبي بكر وزوجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر اليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله صلي الله عليه وسلم كل مشاهده ولكنه لم

يحضر بدراً خلفه عليه السلام لتمريض رقيـة التى توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول فى غنائم بدر ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله صلي الله عليه وسلم و بين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمني هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسري وكان له فى جيش العسرة إلى تبوك اليـد الطولى فقـد أنفق من ماله كثيراً واشتري بئر رومة بماله ثم تصـدق بها على المسـلمين فـكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السـلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحي بين يدي رسول الله صلي الله عليـه وسـلم ولما توفى عليه السلام كان لابى بكر ثم لعمر أميناً كاتباً يستشار في مهام الامور : ولما قتل عمر كانت أغلبية الشوري له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٤٤ م)

أول قضية نظر فيها

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبي لؤلؤة وحـده بل كان هناك أشـخاص شركوا في دمـه فقـد قال عبـدالرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي فلمـا رهقتهم ثاروا وسـقط منهم خنجر له رأسـان نصابه فى وسـطه فانظـروا بأى شيء قتـل فجاءوا بالخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة فاذا هو على الصفة التى وصفها عبـد الرحمن وكان رجـل من تيم قـد اتبع أبالؤلؤة فقتله وأخـذ منه الخنجر فلمـا رأى ذلك عبيد الله بن عمر أمسـك حتى مات عمر ثم اشـتمل على سـيفه فأتي الهرمزان فقتـله ثم مضي حتى أتى جفينـة

وكان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيد الله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل اليه من أتي به وأخذ منه السيف وسجنه حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر فى أمره فلما بويع عثمان جلس فى المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والانصار أشيروا على في هذا الذي فتق في الاسلام مافتق فقال على أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين قتل عمر بالامس و يقتل ابنه اليوم فقال عمرو بن العاص ياأمير المؤمنين ان الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان انما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى وكان ذلك حلا حسنا لتلك المشكلة

كتب عثمان إلى الامراء والأمصار

كتب عثمان إلى امراء الامصار كتاباً عاما هذه صورته (أما بعد فان الله أمر الائمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة وإن صدر هذه الامة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء)

وكتب إلى أمراء الاجناد بالثغور (أما بعد فانكم حماة الاسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا بل كان عن ملأ مناولا يبلغنى

عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه

وكتب إلى عمال الخراج (اما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والامانة الامانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم )

وكتب إلى العامة من المسلمين بالامصار ( اما بعد فانما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم فان أمر هذه الامة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر فى العجمة فاذا استعجم عليهم امر تكلفوا أو ابتدعوا

أول خطبة له

وكان أول خطاب له عقيب بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ( انكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم أو أمسيتم ألا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم أين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم أرموا بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلا والذى هو خير فقال عزوجل (واضرب لهم مثل الحياة

الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً : المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عندك ربك ثوابا وخير أملا )

## الامصار والامراء لاول عهد عثمان

كانت الامصار الكبري لآخر عهد عمر واول عثمان هذه

( ١ ) مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي

( ٢ ) الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى

( ٣ ) صنعاء وأميرها يعلي بن منية حليف بنى نوفل بن عبد مناف

( ٤ ) الجند وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة

( ٥ ) البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفى وهذه الخمس فى الجزيرة العربية

( ٦ ) الكوفة ومايتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفى

( ٧ ) البصرة ومايتبعها وأميرها أبو موسي عبد الله بن قيس الاشعرى وهاتان بالعراق

( ٨ ) دمشق وأميرها معاوية بن أبى سفيان الاموى

( ٩ ) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام

( ١٠ ) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمى

## الفتوح في عهد عثمان

كانت مغازى أهل الكوفة الري وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف

بالرى وكان بالكوفة اذذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبه في كل اربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الاسلامى فى تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو واعادة من شق العصا الى الطاعة ففي عهد امارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذربيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدى ما كانت صولحت عليه وسير سلمان بن ربيعة الباهلى الى أرمينية فشتت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة

وفي عهد امارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان (١) سار اليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا على والعبادلة ابناء عباس وعمر وعمرو ابن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتي طلبوا الصلح

وفى سنة ٣٢ أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى فى بلاد الخزر (٢) حتى وصل بلنجر وهي اكبر مدنهم خلف باب الابواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فاصيب عبد الرحمن بن ربيعة وانهزم المسلمون فتفرقوا فرقتين فرقة عادت فقابلت سلمان بن ربيعة الذى كان قد أرسل مدداً لأخيه فنجت وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان .وجعل علي ثغر الباب بعد عبد الرحمن اخوه سلمان

---

(١) بلدان واسعة على شاطىء بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الرى وقومس والبحر و بلاد الديلم والجبل (٢) هي بلاد الترك خلف باب الابواب المعروف بالدربند

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثغر السند ففي عهد امارة عبد الله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر فسار اليهم ابن عامر وأوقع بهم وقعة شديدة وفى عهد امارة ابن عامر على البصرة قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس وبموته انقضت الدولة الساسانية

وفى سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج اليهم ابن عامر في جيش كثيف فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار الي قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها ثم وجه الاحنف بن قيس الي طخارستان (١) ثم الى مرو الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للاحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار الى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب الى خوارزم فاستعصت عليه فمادعها . ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد الى البصرة

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبي سفيان وكانت له غزوات مع الرووم فبلغ عمورية وأسكن الحصون التى في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان الى أرمينية فسار حتى أتى قاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر فى فتوحه حتي وصل تفليس (٢)

(١) ولاية واسعة من نواحى خراسان وهى طخارستان العليا والسفلى فالعليا شرقى بلخ وغربى نهر جيحون وبينها وبين بلخ ٢٨ فرسخا والسفلى غربى جيحون أيضا الا انها أبعد من بلخ وأضرب فى الشرق من العليا واكبر مدينة بطخارستان طالقان (٢) مدينة بارمينية الاولي وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الابواب

وفي سنة ٢٨ فتح معاوية جزيرة قبرس وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرم بنت ملحان وكان معاوية كثيراً ما يتمنى غزو الروم في البحر الا أن عمر كان يمنعه من ذلك لانه كان يرى الغزو فيه تغريراً بالمسلمين

كتب عمر الى عمرو بن العاص صف لى البحر وراكبه فان نفسي تنازعني اليه فكتب اليه عمرو (انى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير اذ ركن خرق القلوب وان تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود ان مال غرق وان نجا برق) فلما قرأه عمر كتب الى معاوية (لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً)

فلما كان زمن عثمان أذن له فى ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ففعل وسار الى قبرس وأمده من مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحا على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن ارادهم من ورائهم وعليهم ان يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم

وقد رتب معاوية أمر الغزو فى البحر وأعد لذلك اسطولا جعل أميره عبد الله بن قيس الحارثي حليف بنى فزارة فكان يغزو كثيراً ما بين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه احد ولم ينكب ولكنه خرج فى يوم طايعة فى قارب فانتهي الى المرقى من ارض الروم فنذر به

فتكاثروا عليه وقاتلوه

وأما في مصر ففي عهد عمرو بن العاص انتقضت الاسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره اليهم أحد قواده في أسطول عظيم فسار اليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور اسكندرية واستولى على كثير من مراكب الاسطول. وسير عمرو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى افريقية وهي السواحل الشمالية للقارة من طرابلس الى طنجة فسار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التي كانت تابعة للروم وانتهي أمره معهم بالصلح على أن يدفعوا اليه ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار

وفي عهد امارة عبد الله بن سعد بلغه مجيء ملك الروم باسطول عظيم فيه ستمئة مركب فسار اليه ابن سعد باسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام باسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت في البحر باسطول قسطنطين فاتفق الفريقان علي ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصواري وانهزمت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهزم بمن نجا من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم . ففي عهد عثمان صارت الخلافة الاسلامية دولة بحرية بما صار اليها من مراكب الروم بما استحدثه معاوية وعبد الله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الاسلامية التي كان يشن الروم عليها الاغارة من وقت لآخر

## المحاضرة السابعة والعشرون

## الاحوال الداخلية والفتن

### الاحوال فى الداخلية

لابد ان نبسط القول فيما كانت عليه أحوال المسلمين فى الأمصار المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العامة من هذه الأمصار الثلاث

روى الطبرى عن الحسن البصري قال كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الا باذن وأجل فشكوه فبلغه فقال ألا إني سننت الاسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعيا ثم سديسا ثم بازلا ألا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان ألا وان الاسلام قد بزل ألا وان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حى فلا انى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا الى النار — فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية فى الاسلام فكان مغموماً فى الناس وصاروا أوزاعا اليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك فقالوا تملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع اليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة . وقال الشعبي لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال ان أخوف

ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد فان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك وخير لك من الغزو واليوم ألا تري الدنيا ولا تراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع اليهم الناس فكان أحب اليهم من عمر وروى الطبرى بسنده قال لم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا في الامصار وانقطع اليهم الناس

وكانت قريش بحسب القاعدة التى كانت متبعة كاعضاء الاسرة التي لها الامر كبارها موشحون لان يلوا الخلافة يوما ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم ومع هذا فهم متباعدو العشائر مختلفو الاسر فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقا في الحجر على أعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة

من الضروري أن نشرح حال المسلمين في عهد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشؤومة التي جنى المسلمون مرها أحقابا طويلة وهم الى الآن في آلام شديدة من جرائها

كانت عامة المسلمين حتي آخر حياة عمر لا يعرفون الاختلاف بينهم اذ أن دواعي الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داعية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد يد قوية شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزه. كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوى الرءوس النابغة فلا يجدون سبيلا الى نزاع أو شر الى ما وقر في أنفسهم من الالفة الاسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فلا معنى للشقاق بين

الرعية وظل العدل وارف فوق رؤوسها

ولي عثمان سعد بن أبى وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالا لاجل ولما حل الاجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود بأناس من الرعية على استخرج المال واستعان سعد بأناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضا يلوم هؤلاء سعداً ويلوم هؤلاء عبد الله بن مسعود

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعداً عن امارة الكوفة وابقي ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على عرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب ولما قدم عتبة كان محببا الى الناس رفيقا بهم : حدث فى زمنه أن شبابا من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاؤا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الازدي ومورع بن أبى مورع الاسدي وشبيل بن أبي الازدى فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطغن آباؤهم لذلك علي الوليد وصاروا يتحينون الفرص للايقاع به وكان للوليد سمار يسمرون عنده ومنهم أبو زبيد الطائي وكان أبو زبيد نصرانيا ثم اسلم وكان معروفا بشرب الخمر فاتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر فاذاعوا ذلك بين الناس حتي شاع على ألسنتهم فتوجهوا الى ابن مسعود فاخبروه بذلك فقال ابن مسعود من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال أيرضي من مثلك بأن

يجيب قوما موتورين بما أجبت اى شيء أستتر به انما يقال هـذا للمريب فتلاحيا وافترقا على تغاضب : ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب الى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال فاخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر فقال عثمان مايقيء الخمر الا شاربها فارسل عثمان الي الوليد فأقدمه المدينة وافتى على بوجوب حده فحدوه حد شارب الخمر وعزله عثمان وولي على الكوفة بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتي الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله اني قد بعثت اليكم وانا كاره ولكني لم أجد بدا اذا أمرت أن آتمر ألا ان الفتنة قد اطلعت خطمها وعينيها والله لاضربن وجهها أو تعييني واني لرائد نفسي اليوم . ثم نزل وسال عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب الى عثمان ( ان اهل الكوفة قد اضطرب امرهم وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعرب لحقت حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها : فكتب اليه عثمان ( أما بعد ففضل اهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم الأن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء واحفظ لكل منزلته واعطهم جميعا بقسطهم من الحق فان المعرفة بالناس يصاب بها العدل ) فارسل سعيد الى وجوه الناس وأشرافهم

من أهل الايام والقادسية فقال لهم انتم وجوه الناس من ورائكم والوجه ينبيء عن الجسد فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين لسمره فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والاذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكان فى بعض الاحيان يجلس للناس جلوساً عاما ولا يحجب عن مجلسه أحد فبينما هو ذات يوم فى مجلس العامة وهم يتحدثون اذ قال قائل ما أجود طلحة بن عبيد الله فقال سعيد بن العاص ان من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً والله لو ان لى مثله لاعاشكم الله عيشاً رغداً فقال شاب حدث والله لوددت أن هذا الملطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلى الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب فض الله فاك تتمني له سوادنا ثم ثار اليه جماعة من سفهائهم فيهم الاشترى النخعى وعمير بن ضابيء ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن يمنع عنه فضربوهما كليهما فى مجلس سعيد وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك النفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولاهم لهم الا الوقيعة في سعيد ومن ولاه فكتب اشراف أهل الكوفة الى عثمان بذلك وطلبوا منه اخراج هؤلاء النفر من الكوفة فامر بنفيهم إلى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبى سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف واكرمهم ثم قال

لهم ذات يوم انكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة وقد أدركتم
بالاسلام شرفا وغلبتم الامم وحويتم مراتبهم ومواريثهم وقد بلغني أنكم
نقمتم قريشا وان قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم ان أئمتكم لكم الى
اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم وان أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور
ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهن او ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم
على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد
موتكم فردوا عليه رداً دل على تمكن الفتنة فى رءوسهم فرد عليهم معاوية
رداً شديدا وعلم أنهم لا يصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم فى الكوفة
مه ان هذه ليست بارض الكوفة والله ان رأي أهل الشام ما تصنعون وأنا
أمامهم ما ملكت أن انهاهم عنكم حتى يقتلوكم فلعمرى ان صنيعكم ليشبه
بعضه بعضا وكتب الى عثمان بانه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يود
بقاءهم في الشام فأمره عثمان أن يسيرهم الى حمص عند عبد الرحمن بن خالد
ابن الوليد فادبهم عبد الرحمن تأديبا شديداً حتي اظهروا الرجوع والندم
فأمر عثمان أن يعيدهم الى الكوفة فلما عادوا اشتد أمرهم فى الوقيعة بعثمان
وعماله وهؤلاء هم رؤوس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث
الاشتر وثابت بن قيس النخعى وكميل بن زياد النخعي وزيد بن صوحان
العبدى وجندب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الازدى وعروة بن
الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعى: وفى آخر عهد عثمان خرج سعيد اليه ليبلغه احوال
الكوفة ولما أراد العودة خرج اليه أولئك الناس ومن استغووه وقالوا والله لا
يدخلها علينا واليا أبداً ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أبا موسي الاشعري

حسب طلبهم هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها الغوغاء اهل الحلم وضعف سلطان الامراء وقوة الطاعة لم يبق لها فى نفوس القوم من اثر

وفى البصرة التى هى الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففي سنة ٢٩ هاج اهلها على أبى موسي الاشعرى عاملهم واستعفوا عثمان منه فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر وكان له فى أعمال الفتوح بالكوفة اثر جيد وكانت امارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين لثلاث سنين من امارته بلغه أن فى عبد القيس رجلا نازلا على حكيم ابن جبلة وكان حكيم رجلا لصا اذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعي فى ارض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد فى الارض ويصيب ماشاء ثم يرجع فشكاه اهل الذمة واهل القبلة الى عثمان فكتب الي ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتى تأنسوا منه رشدا فكان لا يستطيع ان يخرج عنها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكني بابن السوداء نزل عليه وكان يلقي الى الناس في السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل يهودي أظهر الاسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم عجبا لكم ايها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم الى مايماثل هذا الكلام الذى يسهل قبوله لانه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الانبياء ثم ماهو قريب من ذلك من استهجان ترك آله واقصائهم عن امر خلافته فبلغ شىء من خبره عبد الله بن عامر فاحضره وساله من انت فقال رجل من اهل الكتاب رغب في الاسلام ورغب فى جوارك فقال ما

يبلغنى ذلك فاخرج عنى فخرج حتي اتى الكوفة فأخرج منها فسار الى مصر وهناك وجدمهده بعد أن نفث مانفث بالعراق

أما الامر فى مصر فقد كان أشد ممافى العراق فان ابن سبألماجاءهاالقي الى الناس تعاليمه ومن ضمنهاأنه كان لله ألف نبي ولكل نبي وصى وكان على وصي محمد ثم قال محمد خاتم الانبياء وعلى خاتم الاوصياء ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلي الله عليه وسلم ووثب على وصيه وتناول أمر الامة ثم قال بعد ذلك ان عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا فى هذا الامر فحركوه وابدءوا بالطعن على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الامر فبث دعاته وكاتب من كان استفسد فى الامصار وكاتبوه ودعوا فى السر الي ما عليه رأيهم وأظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون الى الامصار بكتب يضعونها فى عيب ولاتهم ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يضعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة واوسعوا الارض اذاعة وهم يريدون غير مايظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر إنالفي عافية مماابتلي به هؤلاء الناس الا اهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الامصار فقالوا انالفي عافية مما ابتلى به الناس فاتوا عثمان فقالوا ياأمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذى يأتينا فقال لا والله ما جاءنى الا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يبعث الى الامصار من يستقصي أخبارها ويعلم علم مافيها فندب لذلك رجالا

سيرهم الى الامصار فسير محمد بن مسلمة الى الكوفة وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى مصر وفرق رجالا سواهم فى البلاد الاخري فاقبل جميعهم الاعماراً فقالوا أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم أما عمار فقد ورد الى عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبى سرح أمير مصر يخبره فيه انه قد استماله قوم بمصر وأنقطعوا اليه منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران و كنانة ابن بشر وكان من أشد المؤلبين على عثمان بمصر رجلان محمد بن ابي حذيفة وكان الذي دعاه الى ذلك انه كان يتيما فى حجر عثمان فكان عثمان والى أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولى فقال يا بنى لو كنت رضى ثم سألتنى العمل لاستعملتك ولكن لست هناك قال فأذن لي فلاخرج فلا طلب مايقوتنى قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية والثانى محمد بن أبى بكر وقد كان من الاسلام بالمحل الذى هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فاخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا الي هذا فصار كما يقول سالم بن عبد الله بن عمر مذمما بعد ان كان محمدا وانما مال اليهم عمار بن ياسر لانه كان كذلك حاقدا على عثمان فقد قال سعيد بن المسيب انه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب كلام فضربهما عثمان وكان قذفا

أما الحال فى الشام فقد كانت أحسن الاحوال لما عرف به معاوية من الحزم والضبط الا انه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشنيع على عثمان وعماله وذلك ان ابن السوداء لما اتي الشام جاء اباذر فقال

ياأباذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله الا أن كل شيء لله كانه
يريدأن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين فاتاه أبو ذر فقال مايدعوك الى
ان تسمى مال المسلمين مال الله قال يرحمك الله ياأباذر ألسنا عباد الله والمال ماله
والخلق خلقه والامر امره قال فلا تقله قال فانى لا اقول انه ليس لله ولكن سأقول
مال المسلمين ثم اتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت
أظنك يهوديا ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق به وأتي به معاوية فقال
هذا والله الذى بعث عليك ابا ذر ثم قام أبو ذر بالشام وجعل يقول يامعشر
الاغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفونها
فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما
زال حتي ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه علي الاغنياء وحتي شكا الاغنياء ما
يلقون من الناس فكتب معاوية الى عثمان بذلك فأمره عثمان أن يجهز
اليه أبا ذر فأرسله اليه فلما قدم عليه ورأي المجالس فى أصل سلع قال بشر أهل
المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال ياأبا ذر ما لاهل
الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لا ينبغى أن يقال مال الله ولا ينبغى
للاغنياء أن يقتنوا مالا فقال ياأبا ذر على أن اقضي ماعلى وآخذ ماعلى
الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم الى الاجتهاد والا قتصاد وكان
هذا الرأي الاشتراكي متمكنا من أبى ذر وقد وجد الخليفة أنه رأي فاثل
فأمر أبا ذر أن يخرج الى الربذة فيقيم بها ويقال ان اباذر هو الذى طلب
منه ذلك فسيره وأجري عليه رزقا وعلى رافع بن خديج مثله وقد توفي
أبو ذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين الى الاسلام :أما الحال في المدينة

فقد كانت تلك الكتب التى يرسلها السبئيون سببا لكثرة الحديث في عمال عثمان وفشوا القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقد على عثمان لاسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر

لما رأي عثمان كثرة الكلام أرسل الى عماله بالامصار أن يوافوه جميعا بالموسم فقدموا عليه عبد الله بن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد وأدخل معهم فى المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ماهذه الشكاية وماهذه الاذاعة انى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا الا بى فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع اليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء لا والله ماصدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الامر أصلا وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شىء وماهى الا اذاعة لايحل الاخذ بها ولا الانتهاء اليها قال فأشيروا علي فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع فى السر فيلقى به غير ذى المعرفة فيخبر به فتحدث به فى مجالسهم قال فما دواء ذلك قال طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذى عليهم اذا اعطيتهم الذي لهم فانه خير من ان تدعهم وقال معاوية قد وليتنى فوليت قوما لا يأتيك عنهم الا الخير والرجلان أعلم بناحيتيهما قال فما الرأى قال حسن الادب قال فما ترى ياعمرو قال أرى انك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى ان تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ان الشدة تنبغي لمن لا يألوا الناس شرا واللين لمن يخلف الناس

بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين : فترون أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال
الشدة مع هؤلاء الذين لاهم لهم الا اذاعة الاكاذيب لتنفيذ اغراض في أنفسهم
فقال لهم عثمان كل ما اشرتم به علي قد سمعت ولكل امر باب يؤتى منه ان هذا
الامر الذي يخاف على هذه الامة كائن وان بابه الذي يغلق عليه فيكفكف
به اللين والمؤاتاة والمتابعة الا في حدود الله التي لا يستطيع أحد أن يبادي
بعيب احدها فان سده شيء فرفق فذاك والله ليفتحن وليست لاحد على حجة
حق وقد علم الله أني لم آل الناس ولا نفسي ووالله ان رحا الفتنة لدائرة فطوبى
لعثمان ان مات ولم يحركها كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا
لهم واذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها . ثم رد الامراء الى أعمالهم
ولم يامر بشيء مما اشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معه الى
الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وان
كان فيه قطع خيط عنقي فعرض عليه أن يرسل له جنداً يقيمون معه
بالمدينة للمحافظة عليه فأبى وقال لا أقتر علي جيران رسول الله الارزاق
بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة

كان التصميم الذي دبره السبئية ان يثوروا بعد مبارحة أمرائهم
للامصار فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض الا أهل الكوفة خرجوا بحجة انهم
يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتي اذا قابلوا سعيدا بالجرعة
ردوه واجتمع الناس على أبى موسى الاشعري وأقره عثمان ولما رجع
الامراء لم يكن للسبئية سبيل الى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهل
الامصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون واظهروا أنهم يامرون

بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن اشياء لتطير في الناس ولتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل اليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضطغنا فلما رآهما اولئك القادمون أخبرهما بما يريدون فقالوا انا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها فى قلوب الناس ثم نرجع اليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فان أبي قتلناه فرجع الرجلان الي عثمان وأخبراه الخبر فضحك ثم أحضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فاشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلهم فقال عثمان بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحادّ أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً ان هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم الا انهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم

قالوا أتم الصلاة فى السفر وكانت لا تتم الا واني قدمت بلداً فيه أهلى فاتممت لهذين الامرين أوكذلك هو قالوا نعم

وقالوا حميت حمى واني والله ما حميت حمي قبلى والله ماحموا شيئاً لاحد ماحموا الا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحداً واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم مامنعوا ولا نحوا منها أحداً الا من ساق درهما ومالى من بعير غير راحلتين ومالى من ثاغية ولا راغية وانى قد وليت واني اكثر العرب بعيراً وشاة فما لى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي اكذلك هو قالوا اللهم نعم

وقالوا كان القرآن كتباً فتركتها الا واحداً ألا وان القرآن واحد جاء
من عند واحد وانما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أ كذلك هو قالوا نعم

وقالوا انى قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلي الله عليه وسلم والحكم
مكي سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الطائف ثم رده رسول الله صلى
الله عليه وسلم فرسول الله سيره ورسول الله رده أ كذلك هو قالوا نعم

وقالوا استعملت الاحداث ولم أستعمل الا مجتمعاً محتملاً مرضياً
وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولى من قبلى
أحدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله
اسامة أ كذلك هو قالوا نعم

وقالوا اني أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه وانى انما نفلته خمس
ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر
وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أ كذلك هو
قالوا نعم وقالوا اني أحب أهل بيتى وأعطيهم فاما حبى فانه لم يمل معهم على
أجور بل أحمل الحقوق عليهم وأما اعطاؤهم فانى انما أعطيهم من مالى ولا
أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لاحد من الناس ولقد كنت أعطى
العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح أفحين أتيت على أسنان
أهل بيتي وفنى عمرى وودعت الذي لى في أهلي قال الملحدون ما قالوا
واني والله ما حملت على مصر من الامصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله
ولقد رددته عليهم وما قدم علي الا الاخماس ولا يحل لى منها شيء فولى

المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا يتفلت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل الا من مالى

وقالوا أعطيت الارض رجالا وان هذه الارضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع الى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بامرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دوني وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بنى أمية وجعل ولده كبعض من يعطي فيه فبدأ ببنى أبى العاص فاعطي آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فاخذوا مئة ألف وأعطي بني عثمان مثل ذلك وقسم فى بنى العاص وفي بنى العيص وفى بنى حرب ولانت حاشية عثمان لاولئك الطوائف

فاكتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئاً مع ذلك الوفد بل أعادهم الى أمصارهم فتكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيذ ما عزموا عليه فخرج أهل مصر فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمئة والالف وأميرهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي ولم يجترؤا أن يعلموا الناس بخروجهم الى الحرب وانما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء . وخرج أهل الكوفة فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً عمرو بن الاصم وخرج أهل البصرة فى أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدى وكانت أهواء أهل الامصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لان ضياعه كانت ببلدهم

وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون عليا لتعاليم ابن السوداء ووجود ابن أبي بكر وهو ربيب علي وابن أبي حذيفة بينهم: ولما كانوا من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وناس من أهل الكوفة فنزلوا الاعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة واتفقوا جميعاً أن يقدموا ارودا ليدخلوا المدينة وينظروا اهل وصل المدينة خبرهم لأنهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا لذلك رجلين فلما دخلا المدينة كلما عليا وطلحة والزبير وقالا انما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عماله ما جئنا الا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهما فرجع الرائدان الى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا علياً ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على علي وعرضوا له بالامر فرد عليهم رداً شديداً وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم انهم راجعون حتى انتهوا الى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق اهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ اهل المدينة الا والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم واحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم فأتاهم علي فكلمهم وقال ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون اخذنا مع البريد كتاباً بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر اخواننا كأنما كانوا على ميعاد فقال لهم علي كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم

نحونا هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضعوه كيف شئتم لاحاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا ثم قالوا لعلي ان الله قد أحل لنا دم هذا الرجل قم معنا اليه قال والله لاأقوم معكم إلى ان قالوا فلم كتبت الينا فقال علي والله ما كتبت لكم كتاباً فنظر بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استعمل المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) : ثم تركهم علي وخرج من المدينة : ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا كتبت فينا بكذا وكذا فقال إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لااله الاهو ما كتبت ولا أمليت ولاعلمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى وكان لايزال يصلي بهم ثم منعوه من الصلاة في المسجد وحصروه في داره : وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي ابن أبي طالب لم يفعل مايمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما مراسلات يطلب اليه فيها أن يجتهد في تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك ماروا ه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه الكامل أن عثمان كتب إلى علي وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الامر بي أشده ثم تمثل بهذا البيت

فان كنت مأكولاً فكن خير آكل والا فأدركني ولما أمزق )

وكانت حاشية عثمان من بني أمية ترى أن لعلي ضلعاً في هذا الامر فكانت الوجوه تتقابل عابسة تبدي عما في القلوب العيون فلم يكن

هناك سبيل لعمل صالح فى مصلحة المسلمين وقد ادت الحال إلى أن
ترك على المدينة رأسا فى هذه الفتنة التى نظن أنه لم يكن في امكانه قمعها
الا انه كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج وهو تناسى كل مافى
النفوس لان الامر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه ولا
يغيب عن الفكر أن رءوس المسلمين لوكانت متفقة تماما لامكنهم أن يقاوموا
هذا السيل الذى أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها فغلب
السفهاء على الامر وفعلوا مافعلوا : لوكان هناك نظر بعيد لرءوس المسلمين
الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والائمة الاعلام لما كان لسفهاء
الامصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فرغت كلمة المسلمين

استمر الحصار على عثمان واشتد عليه حتى منعوه الماء فكان لا يصل
منه اليه شيء الاخفية وكان عثمان يطل عليهم من آن لآخر ويعظهم فلا تؤثر
فيهم الموعظة ثم شدوا عليه الحصار لما بلغهم أن جنداً من الامصار أقبلت لنصر
عثمان : وفى أثناء الحصار ولي عبد الله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتابا
مطولا يقرؤه على المسلمين في الموسم ويعلمهم بما هو فيه فسار ابن عباس أميراً
علي هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت

أراد المحاصرون التعجيل بالامر خوفاً من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب
الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جاراً له ولما رأى ذلك عثمان استسلم
للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئاً : دخل
عليه جماعة فيهم محمد ابن أبى بكر مريداً قتله فلم يصنع شيئا فتقدم غيره نضربه
الغافقي بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت على عثمان

زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح اصابعها فاطعن اصابع يدها ثم اهوى له بعضهم فضرب عنقه وانتهبوا ما في البيت واخرجوا من فيه ثم اتوا بيت المال فانتهبوه واذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوماً وكان قتله لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم

## المحاضرة الثامنة والعشرون

اسباب مقتل عثمان — بيت عثمان — على وكيف انتخب — ترجمته — أول خطبة له — أول عماله

### اجمال الاسباب التي أدت إلي قتل عثمان

بعد أن اتينا على تفصيل الحوادث التى أدت إلى هذه الفاجعة نتبعها ببيان مجمل لما يستنتج من تلك الحوادث

### السبب الاول

مهما كان رؤساء الامة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريد السوء سبباً للفتن والثورات فاذا انصدع شمل القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال فى المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الامر فان من يتصفح احوالهم وما كان يبدوا على ألسنتهم من الكلمات

الشديدة المؤلمة في حق عثمان سواء فى وجهه وفي غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروهه حتى كانوا يلقبونه في بعض الاحيان نعثلا ونعثل رجل مصرى كان طويل اللحية شبهوه به للغض منه ويقول فى لسان العرب انهم لم يجدوا فيه عيباً سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التى كان عثمان يخطب عليها فكسرها وهى عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت كلمات فى حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الاسباب التى أدت بهم إلى مثل هذا ومن غير نظر إلى ماتحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصاً اذا صادفت مهيجين مثيرين

السبب الثانى

كان عثمان معروفا بخلق الحياء واللين أما الحياء فقد كان مشهوراً به في جاهليته وفى إسلامه حتى قال في حقه عليه السلام (الا استحيي من رجل تستحيى منه الملائكة) وخلق الحياء يحمل صاحبه على الاغضاء عن كثير مما يكره أما اللين فان الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها على يده يعرف ذلك من استقرأ خطبه وكتبه حتي أن خطبته التي قالها على المنبر لاول مرة لم تخل من هذا دعاه الخلق الاول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى فى حق نفسه فلا يوجد إلى واحد منهم كلمة تسوءه وهذا وان حسن عند الحكماء فانه لا يحسن ابداً في سياسة الرعية بل لابد لمقام الخلافة من هيبة فى القلوب تقف بالناس

عند الحد اللائق بهم : انظروا إلى مافعله عمر مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر و وصل اليه مدلا بمركزه فانه خفقه بالدرة وقال جئت لاتهاب سلطان الله في أرضه فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لايهابك فلا بد لسلطان الله من قوة تمنع عنه ضعفا أوذلة : والخلق الثاني جعله يمتنع عن عمل أى تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رفعو اليه وثبت أنهم يديرون حركة الفتنة من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضعونه من الاحاديث الملفقة وكانت كلمة العمال في ذلك واحد فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين على الشدة لئلا يكون فاتحا باب الفتنة الذى يخيفه : ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيروه من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التي تلوناها عليكم ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فما زادهم ذلك الافساداً لانهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجة وانما هم طلاب شر يتطلبون الطريق اليه كلما اعجزهم باب عدلوا إلى غيره

السبب الثالث

ماخالف به عثمان صاحبه عمر فى اعلام قريش فان عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها الا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا مما حببه اليهم ولكن ترتب عليه ماحذره عمر فانه قد اجتمع اليهم أناس ممن لا سابقة لهم في الاسلام والتصقوا بهم وتقربوا اليهم حتى اذا كان الامر لهم في يوم من الايام كانوا اقرب الناس

اليهم فنبه بذلك ذكرهم والا فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون علياً : صحيح أن عليا لم يجيء مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحما وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لان أمه أسماء بنت عميس تزوجها علي بعد موت أبي بكر وكان محمد في حجرها فرباه علي فلم تكن طلبات أهل الامصار الا نتيجة لما فعله عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الاعلام أو لمن هو منهم بسبيل حتى يكون لهم شان اذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ولذلك لما تم الامر لصاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه : لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفى عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الامر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المتآمرين والذى يؤخذ عليهم هو هوادتهم فى القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم فى الاقوال التى تحط من قدره حتى وقت اشتداد الازمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع

سهولة التأثير فى الجماعات متى أتوا من قبل ما يهوون وما يحبون وهم فى هذه الحال لا يصبرون حتي يتثبتوا مما يلقي عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له ان كان مؤلماً ويسرون ان كان ساراً : كان الناس مسلمين يحبون نبيهم اكثر مما يحبون أنفسهم وربما يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر فجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التى يألفونها

وهى نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته
ويعسو بهم على بن أبى طالب وصى رسول الله كما كان لكل نبي وصي
وانه من اللازم أن يعطى الامر لصاحب الحق لان من اجترأ عليه
فأخذه منه ظالم غاشم ثم صار يزيد على ذلك مايدسه مدحاً لعلى بن أبي
طالب حتي علا به إلي درجة لم يطلبها على لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل
ادخاله فى القلوب خصوصاً اذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده
أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتتبع من أصابهم من ولاة عثمان أذى
فى نفسه أوماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن في أمراء عثمان مرة
بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوى قرباه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً
والذين كانوا يؤيدونه لاغراض فى أنفسهم اشتغلوا فى الامر بمهارة فصارت
شيعتهم فى كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات فيقرأ
كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك
المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلى المصر الاول فتقرأ على العامة
فيستغيثون بالله مما حل باخوانهم ويقولون نحن فى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس
حتي أمكنهم أن يوغروا اصدر العامة التى تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد
كانوا يعيبون معاوية وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله صلى الله عليه
وسلم وولاه أبو بكر وولاه عمر ولم نرمن العمال من استمر موثوقا به من عمر
حياته كلها الا افراداً قلائل منهم معاوية بن أبى سفيان فقد كان واليا من
أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين و اهدأها
وكانوا يعيبون عبدالله بن سعد بن أبي سرح لا لانه ظالم أوجائر وانما الامر آخر

وهو أن النبى صلي الله عليه وسلم حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه ولم يعلموا أن الرسول كان اذا عفا فانما جرعلى الذنب ستراً لا يزول وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليا لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو وال له وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وكان باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وانما كانت للتأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم على ذلك أن أولياء الامر لم يبادروا بأخذ الحيطة لان العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعت مصلحة الامة: واذا أردنا أن نحمل الناس فى ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة فى ذلك لان الحلم واللين لم يكونا فى زمن من الازمان مما يتجنى به علي أولى الامر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك

من الغريب بعد ذلك أن تبقي هذه الحادثة سببا دائما لتفريق كلمة المسلمين ففى بعض الاحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والاسنة وفى بعض الاحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك الا لان المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلي غرض من الاغراض: ولو نظرنا إلي المسئلة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الاسلام ثم نحكم بأنهم اخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو تبيين الصواب له لخطئه وغاية الامر أن

الباقى لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية

لا تمكن حماية الامة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها الا ان كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فانهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح : وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن ولف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديداً : وهم في كل زمن كثيرون فما ظنك ان كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر باغضائه وتهاونه أن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيما وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير

دفن عثمان

من غريب مافعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم يدفن الا بصعوبة واستتار . خرجوا به بعد المغرب فدفنوه ولم يشيع جنازته الا نفر قليل وصلى عليه جبير بن مطعم

بيت عثمان

١ — ٢ تزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدت له ولداً اسمه عبد الله فمات ثم تزوج بعدها أم كلثوم اختها

٣ وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبد الله الاصغر فمات

٤ وتزوج أم عمرو بنت جندب الدوسى فولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمر ومريم

٥ وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد

٦ وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك ومات

٧ وتزوج رملة بنت شيبة من بنى عبد مناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو

٨ وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم : وقد توفي وعنده فاختة وأم البنين ورملة ونائلة

عمال عثمان

العلاء بن الحضرمي على مكة — القاسم بن ربيعة الثقفى على الطائف — يعلى بن منية على صنعاء — عبد الله بن ربيعة على الجند — عبد الله بن عامر على البصرة — سعيد بن العاص على الكوفة — عبد الله بن سعد على مصر — معاوية بن أبي سفيان علي الشام

## ٤ ﴿ على بن أبى طالب ﴾

### كيف انتخب

لم تكن الظروف التى حصل فيها انتخاب على بن أبى طالب مشابهة لما كان عليه الحال فى انتخاب من قبله فانه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلام الصحابة بالمدينة فاختلفوا قليلاً ثم ثابوا إلى الجماعة وأجمع

رأيهم على انتخاب أبى بكر . وعقب وفاة أبي بكر لم يكن ثم مجال للخلاف لانه كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته : وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكأن عمر قد عهد إلى واحد من ستة يعينونه هم وبين الحدود فى المخالف : أما عند موت عثمان فلم يكن الامر كذلك فالمدينة فيها جماعة الثوار على عثمان وهم قاتلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر الا بهذه الثورة وليس عددهم بشيء أمام جنود الامصار التي لم يكن لها اشتراك فى الجريمة : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير منهم كان خارج المدينة منهم المرابطون فى الثغور ومنهم العمال ومنهم من كان مقيما بالمدينة

كانت الكلمة العليا فى المدينة اذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء الغالبين الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من علي للخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلا ثم أجاب إلى ذلك : ويقول الكوفيون أول من بايعه الاشتر وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير لانهما زميلاه فى الشورى وان تطلع إلى الخلافة أحد دونه فهما : فروي الطبري عن الزهرى أنه دعاهما إلى البيعة فتلكأ طلحة فقال مالك الاشتر وسل سيفه والله لتبايعن أو لاضربن به مابين عينيك فبايعه وبايعه الزبير : وروى أن عليا قال لهما ان أحببتما أن تبايعاني وان أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا وجيء بسعد بن أبي وقاص ليبايع فقال له لا أبايع حتى يبايع الناس والله ما عليك مني بأس قال خلوا سبيله : وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع فقال

لا أبايع حتى يبايع الناس قال ائتني بحميل قال لا أرى حميلا قال الاشتر خل عني أضرب عنقه : قال علي دعوه أنا حميله انك ما علمت لسيء الخلق صغيراً وكبيراً : وتخلف من الانصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان : وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة الا من فر ولحق بالشام

ترجمة علي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد : ولد قبل الهجرة باحدي وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان علي مراهقاً وكان مقيما مع الرسول فى بيته تخفيفاً على أبيه فكان من أول من أجاب إلى الاسلام وكان له الشرف العظيم بمبياته موضع الرسول ليلة ان ترك مكة مهاجراً حتى لا يرتاب المترصدون فى وجوده ببيته ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التى أمر ان يسلمها الا هلها وبعد الهجرة زوجه عليه السلام بابنته فاطمة وحضر كل مشاهده عليه السلام ماعدا غزوة تبوك فان الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الاثر المحمود والمقام الذى لا يجهل في جميع الغزوات وكان شجاعا يخوض الغمرات ولا يبالى بشدة وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما لحق الرسول بربه كان علي يرى فى نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا

يعدلون به غيره لماله من شرف القربي والصهر ولكن المسلمين رضوا أبابكر للخلافة فلم يبايع الا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد ابو بكر لعمر ورضي به المسلمون بايع معهم الا أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالامر من عمر كما كان أحق من أبي بكر وكان في عهد عمر كالمستشار يستشيره عمر كثيراً في الاحكام الشرعية ولما عهد عمر الى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الاغلبية له الا أنها لم تصادفه وصرفت عنه الى عثمان فرضي وبايع ولم تكن علاقته بعثمان فى آخر حياته حسنة الظاهر حتى ان اسمه استعمل للتنفير للناس حتى يهيجوا علي خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلاً ان لم تقم معنا فلم كتبت الينا ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحلف على ذلك . ولما انتهي أمر عثمان بويع بالخلافة على نحو ما فصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال

اول خطبة له

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها الى الله سبحانه يؤدكم الي الجنة ان الله حرم حرماً غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده الا بالحق ولا يحل أذي المسلم الا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وان مامن خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخراهم اتقوا الله عباده في عباده وبلاده انكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا

الله عز وجل ولا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض

ولما أراد علي الذهاب الي بيته قال له السبئية فيما قيل

خذها اليك وأحذرن أبا حسن ... انا نمر الامر امرار الرسن

صولة أقوام كأسداد السفن ... بمشرفيات كغدران اللبن

ونطعن الملك بلين كالشطن ... حتي يمرن على غير عنن

فقال علي وذكر ما كان

انى عجزت عجزة لا أعتذر ... سوف أكيس بعدها وأستمر

أرفع من ذيلى ما كنت أجر ... وأجمع الامر الشتيت المنتشر

ان لم يشاغبنى العجول المنتصر ... أو يتركونى والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له إنا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بانفسهم فقال لهم انى لست اجهل ما تعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكونناولا نملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاؤا فهل ترون موضعاً لقدرة علي شيء مما تريدون قالوا الا قال فلا والله فلا أري الارأياً ترونه ان شاء الله ان هذا الامر أمر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض من أخذ بها أبداً ان الناس من هذا الامر ان حرك علي أمور: فرقة ترى ما ترون وفرقة ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتي يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا — واشتد علي قريش وحال بينهم و بين

الخروج وانما هيجه على ذلك هرب بني أمية وتفرق القوم و بعضهم يقول والله لئن ازداد الامر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار لتترك هذا الي ما قال على أمثل و بعضهم يقول نقضي الذي علينا ولا نؤخره والله ان عليا لمستغن برأيه وأمره عناد لا نراه الا سيكون على قريش أشد من غيره

اول أعمال على

رأى علي أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل اليه بيعة أهل الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولا وابن عباس ثانياً فأبى ذلك اباء تاماً كأنه قد وقر فى نفسه ان هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وان الابقاء على واحد منهم يوما كاملاً نقص فى دينه. ولو كان الامر قد استتب و بايعه أهل الامصار لما كان فى عزل الولاة شيء لان الخليفة هو الذى يعطى الولاة سلطانهم فهو حر في اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغريبة لم تفهم مع انه قبل أن يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله

فرق العمال علي الامصار فأرسل عثمان بن حنيف الى البصرة . وعمارة بن شهاب الي الكوفة. وعبيد الله بن عباس الى اليمن . وقيس بن سعد بن عبادة الى مصر وسهل بن حنيف الى الشام

فاما سهل فانه خرج حتي أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت فقال أمير على الشام قالوا ان كان عثمان بعثك فحيهلاً بك وان كان غيره بعثك فارجع. قال أوما سمعتم بالذى كان. قالوا بلى فرجع الى على

وأما قيس بن سعد فانه سار حتى أتي مصر فافترق عليه أهلها فرقاً فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت الى خربتي وقالوا ان قتل قتلة عثمان فنحن معكم والا فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة قالوا نحن مع علي مالم يقداخوا اننا وهم فى ذلك مع الجماعة

وأما عثمان بن حنيف فانه سار حتي أتي البصرة وكان أهلها فرقاً كأهل مصر . وأما عمارة فانه سار حتى اذا كان بزبالة لقيه طليحة بن خويلد الأسدي وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو الى الطلب بدمه فطلع عليه عمارة فقال له ارجع فان القوم لا يريدون بأميرهم بدلا وان أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وانطلق عبيد الله بن عباس الى اليمن فجمع يعلي كل شيء من الجباية و تركه وخرج بذلك وهو سائر علي حاميته الى مكة فقدمها بالمال

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل فى جميع الامصار الكبرى الاسلامية

ففى الشام كان الامير معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية . كان أميراً على الشام في عهد عمر وعثمان وكان محبوباً من أهله فلما وقع اليهم مقتل عثمان واستخلاف علي لم يرض ان يدخل فى بيعته لاسباب (١) أنه يتهم علياً بشيء من أمر عثمان (٢) انه آوي قتلته في جيشه (٣) انه كان بين الرجلين نفور أدي الى أن علياً يرى من أول واجباته عزل معاوية عن امارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد

الامارة والعزة نعم ليس من السهل أن يدخل مختارا في بيعة نتيجتها اذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق للامارة عليهم ولم ير لعلي بيعة توجب عليه طاعة يضطر اليها اضطراراً

أرسل علي الى معاوية سبرة الجهني يطلب اليه ان يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية بشيء ولم يجبه حتى اذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عبس فدفع اليه طوماراً مختوما عنوانه

من معاوية الى علي

وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العبسي المدينة في غرة ربيع الاول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا الى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضي الرسول حتى دخل الى علي فسلمه الطومار نقضه فلم يجد فيه شيئاً ثم سأل الرسول ماوراءك قال اني تركت قوما لا يرضون الا بالقود قال ممن قال من خيط نفسك وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق فقال علي مني يطلبون دم عثمان ألست موتورا كترة عثمان اللهم اني أبرا اليك من دم عثمان نجا والله قتلة عثمان الا أن يشاء الله ومن الغريب أن عليا لما أمر الرجل بالرجوع أمنه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يال مضر يال قيس الخيل والنبل اني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخلص الرجل الا بشق الأنفس

أحب النـاس أن يعلموا رأي على فى معاوية وانتقاضه ليعرفوا رأيه في قتال أهـل القبلة أن يجسر عليه أم ينـكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن على دخل عليه ودعاه الى القعود وترك الناس فدسوا اليه زياد بن حنظلة التميمى فجلس اليـه ساعة ثم قال له علي يازياد تيسر فقال لاى شيء قال تغزو الشام فقال زياد الاناة والرفق أمثل

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميـاً تجتنبك المظـالم

فخرج زياد على الناس فسألوه عما وراءه فقال السيف ثم دعا علي ابنه محمداً فأعطاه لواءه وعبأ جنده واستخلف علي المـدينة قثم بن عباس وأقبـل على التهيؤ والتجهز . وبينما هو على ذلك اذ فجأه ما هو أشد عليه من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة ومن لف لفهم وأنهم توجهوا الى البصرة : وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة وعثمان محصور قاصدة الحج وان تبتعد عن المدينة في هذه الاوقات وقد علمت وهي بمكة ان عثمان قتل وانه قد بويع لعلي بعده فخطبت الناس بالمسجد الحرام خطبة هـذا نصها ( ان الغوغاء من اهـل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا ان عاب الغوغاء على هذا المقتول بالامس الارب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا وبادوا بالعـدوان ونبأ قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البـلد الحرام وأخذوا

المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لاصبع عثمان خير من طباق الارض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه اذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء)

كان بمكة فى ذلك الوقت عبدالله بن الحضرمي عاملها لعثمان وعبدالله ابن عامر قدم من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طلحة والزبير فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمه ثم ساروا فى وجهتهم هذه وكان يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج معهم مروان وسائر بني أمية الا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما علم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل علي انتدب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الاسود الدؤلي ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما ان الغوغاء من أهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الاحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام واحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الاعراض والجلود وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتي هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم ان يأتوا فى اصلاح هذا وقرأت لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر

بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) ننهض فى الاصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والانثي فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره : ثم سألا طلحة ماأقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قالا ألم تبايع علياً قال بلى واللج علي عنقي وما أستقيل علياً ان هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان الى ابن حنيف فأخبراه فعزم على التهيؤ لمنعهم من البصرة ولم يكن أهلها على رأى واحد فلما قدم جيش عائشة الى البصرة خرج اليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه فى ميسرة المربد ووقف الآخرون فى ميمنته فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاد يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كانه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس فى معني ما جاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف وفرقة لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأنشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا ليمسك حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتي حجز بينهم الليل وفى غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا الى ازال النهار ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم الى الكف فيأبون حتى اذامسهم الشر وعضهم نادوا بالصلح فاصطلحوا على أن يبعثوا رسولا الى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فان كانا قدبايعا كرهاً فالامر أمرهما والا فالامر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولا هو

كعب بن سور قاضي البصرة فسار حتى أتى المدينة يوم جمعة فدخل المسجد ونادى يا أهل المدينة اني رسول أهل البصرة اليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علي أم أتياها طائعين فلم يجبه أحد من القوم الا ما كان من أسامة بن زيد فانه قام فقال اللهم انهما لم يبايعا الا وهما كارهان فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام فخلصه من أيديهم صهيب بن سنان وأبو أيوب الانصارى فى عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة واخذ بيده صهيب الى داره وقال أما وسعك ما وسعنا من السكوت. وعند ذلك رجع كعب الى البصرة. وكان على لما علم بخبر كعب كتب الي عثمان يعجزه ويقول والله ما أكرها على فرقة ولقد اكرها على جماعة وفضل وان كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وان كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فلما عاد كعب الى البصرة وورد الكتاب طلب طلحة والزبير من عثمان أن يخلي لهم الامر فلم يفعل فهاجموه وأخذوه وقد أمرت عائشة بان يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد الى علي. وكان لحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل فى نهايتها وقتل معه عدد عظيم ممن كانت له شركة فى دم عثمان ثم نادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة الا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم فجيء بهم اذلاء فقتلوا ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا باخبارهم الى أهل الشام والى أهل الكوفة يطلبون اليهم أن يقوموا بمثل ما قاموا هم به : واستمروا منتظرين ما تاتيهم به الاقدار

روى الطبرى عن علقمة بن وقاص الليثي قال لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس اليه أخلاها وهو ضارب

بلحيته على زوره فقلت ياأبا محمد أري أحب المجالس اليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك الى زورك ان كرهت شيئا فاجلس فقال ياعلقمة بينا نحن يدواحدة على من سوانا اذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا انه كان مني فى عثمان شيء ليس توبتي الا أن يسفك دمي في طلب دمه قلت فرد محمد بن طلحة فان لك ضيعة وعيالا فان يك شيء يخلفك فقال ماأحب أن أرى أحداً يخف في هذا الامر فامنعه . فأتيت محمد بن طلحة فقلت له لو أقمت فان حدث به حدث كنت تخلفه فى عياله وضيعته قال ما أحب أن أسال الرجال عن امره

## المحاضرة التاسعة والعشرون

## الجمل - صفين

### أمر على

لما بلغ عليا مسير من سار الي البصرة وهو يتهيأ للشام رأى أن يبدأ بهذا الفتق وكان يحاول ان يدركهم قبل أن يصلوا البصرة فلما وصل الربذة بلغه أنهم فاتوه فبعث الى أهل الكوفة يطلب اليهم أن ينفروا الي معاونته على المخالفين عليه . ولما وصلت الرسل الكوفة جاء الناس الى أميرهم أبى موسى يستشيرونه في الامر فقام فيهم خطيبا وكان آخر خطبته أما اذا كان ما كان فانها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا

جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا الاسنة واقطعوا الاوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلي هذه الفتنة: فتكلمت رسل علي وأغلظت لابي موسي القول ولما كان الحسن بن علي ممن أرسل في هذه الوفادة قال لاهل الكوفة ياأيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى اخوانكم فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه والله لان يليه أولو النهى أمثل فى العاجلة وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس وأجابوا ورضوا به وقال لهم الحسن انى غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء فليخرج فى الماء فنفر من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابلته الجنود البرية بذى قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من أهل البصرة فان يرجعوا فذاك ما نريد وان يلجوا داويناهم بالرفق وباييناهم حتى يبدؤا بظلم ولن ندع أمراً فيه صلاح الا آثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله : ثم ان علياً اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتي أتى عائشة فقال أى أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة قالت أى بنى اصلاح بين الناس : فطلب أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما فلما جاء أخبر أن مقصدهما كمقصد عائشة فقال لهما القعقاع ماهذا الاصلاح قالا قتلة عثمان فان هذا ان ترك كان تركاً للقرآن وان عمل كان احياء للقرآن فقال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمئة رجل الا رجلاً فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم ذلك الذي أفلت (حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على

رجل فان تركتموه كنتم تاركين لما تقولون فان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فاديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الامر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتم مضرور بيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير. ولا أرى دواء لهذا الامر الا التسكين واذا سكن اختلجوا فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الامة وان أنتم أبيتم الا مكابرة هذا الامر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر وبعثه الله فى هذه الامة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وايا كم وايم الله انى لاقول هذا وأدعوكم اليه وانى خائف أن لا يتم حتي يأخذ الله من هذه الامة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل فان هذا الامر الذى حدث أمر ليس يقدر وليس كالامور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل. فقال له القوم أحسنت وأصبت فان جاء علىّ بمثل ما قلت صلح الامر فرجع القعقاع الى على فاخبره فاعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح : ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه ولا يرتحلنّ غداً أحداً أعان على عثمان بشىء فى شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عنى أنفسهم : فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض ان اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح الا علينا فقال لهم ابن السوداء ان عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم واذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فاذاً من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع و يشغل الله علياً وطلحة والزبير

عما تكرهون فاتفقوا على ذلك والناس لا يشعرون. لما وصل علي الى البصرة بعث الى القوم ان كنتم على ما فارقتم القعقاع فكفوا واقرونا ننزل وننظر في هذا الامر فنزلوا والقوم لا يشكون فى الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل. قام السبئيون فى الغلس ووضعوا السلاح فى عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ماهذا قالوا طرقنا أهل الكوفة ليلاً فقالا قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا وسأل علي عن الخبر وكان السبئيون قد وضعوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له ما فجئنا الا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال علي قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتي يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان فى ذلك الوقت بداً من القتال وكانت عائشة فى هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول ماراه المسلمون فانهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعاً دينياً وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتي لا تصاب بشر فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول

نحن بنى ضبة أصحاب الجمل ننعى ابن عفان باطراف الأسل
الموت أحلى عندنا من العسل ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لا تسلمه أبداً وفيهم عين تطرف نادى اعقروا الجمل فجاء الجمل انسان من خلفه وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل فجاء محمد بن أبى بكر

وعمار بن ياسر فقطعا عرضة الرحل واحتملا الهودج فنحياه عن القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة: وقد ترك الناس والضعف. ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى اذا كان بوادى السباع غافله فقتله

قتل فى هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (وكاد يقتل ابنه عبد الله) وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب

وبعد أن انتهت الموقعة مر على بين القتلى فكلما رأى صرعي أهل البصرة وعرفهم قال زعموا أنه انما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً . وبعد ذلك زار عائشة في البيت التى نزلت فيه فسلم عليها وقعد عندها ثم أمر بان تجهز الى المدينة فجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعيها انه والله ما كان بيني وبين علي فى القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها وانه عندى على معتبتي من الأخيار وقال علي أيها الناس صدقت والله وبرت ماكان بينى وبينها الا ذلك وانها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها علي أميالا وسرح بنيه معاً يوما

بعد انتهاء الموقعة أخذ علي بيعة أهل البصرة وأمر عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبى سفيان

هكذا انتهت هذه الموقعة التى سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف

بعضهم بازاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد ان كان ذلك الموقف فى نظرهم عظيما مهيباً

لا يمكننا ان نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فان طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذي سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نري كيف فهموا ان ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين امام يرجع اليه الامر في تحقيق هذه القضية واقامة الحد على من يستحقه . ان اعطاء الحق للافراد فى أن يتجمعوا لاقامة حد قصر الامام في اقامته او اتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذي أسس عليه الاسلام واذا كانوا لا يرون لامامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين اولا للنظر فى أمر الخلافة واعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى اقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الامة ودعوا الناس الى أمرهم من غير أن يكون لهم أمام يرجعون اليه ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون ان الفتن اذا أقبلت تشابهت واذا أدبرت تبينت ولم يكن عند على بن ابى طالب من الاناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع بأحسن مما كان: حقيقة ان أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالامة خيرا أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الامر على الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقة من جيشه ان تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه وان من الخطأ العظيم ان يستعين علي بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى الى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من

كل جهـة بالقصاص من قتلة عثمان فانهم بالضرورة لايحسن فى نظرهم أن يتفق علي ذلك الناس لان الاتفاق انما يقع على رءوسهم فهم يبذلون كل جهدهم فى تضييق المسالك على كل من يريد الاصلاح حفظا لانفسهم على أن مجرد وجودهم فى جيشه كاف لان تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك وان كان هو ينـكر ذلك انكاراتاماً وهو عنـدنا الصادق فى قوله والنتيجـة أن تبعـة هـذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للنـاس انه لا يكفى لبراءة الانسان من الفعـل أن لايكون قـد فعـله بل يجب أن يبتعـد عما يحـدث الريبـة من قـراءته وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه ان يكون عنـده من القوة ما يغلب به من خرج عليـه من قومـه بل يجب مع هـذا أن يكون عنـده من حسـن الحيلة والاناة مايعيـد الخارج عليـه الى حظيرته والكى لايكون الا آخر الدواء

امر صفين

لم يكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة امرها الامقدمة لماهو أشد منها هولا وافظع امراً وهو الحرب فى صفين

انصرف على من البصرة الى الكوفة فاختار جرير بن عبد الله البجـلي ليكون رسولا الى معاوية بن أبي سفيان يطلب اليه البيعة فشخص جرير الى دمشق وأنهي الى معاوية ما جاء له فماطـله واستنظره : وكان أهـل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشىء أو تفني أرواحهم : والشام مجمع اجناد المسلمين لانها ثغر عظيم يجاور الامة الرومية التى لم تزل حافظة لشيء من

قوتها فكانت الجنود الاسلامية هناك على غاية الاستعداد. عاشرهم معاوية طويلا وهو الرجل السياسى المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما أمرهم أئتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة على ويتهمه بالاشتراك فى دم عثمان أو على الاقل بحماية قاتليه حتى آواهم الى جيشه ولم يعمل أى عمل في القصاص منهم فجاء جرير عليا وأخبره بما عليه أهل الشام فلم ير على الا المسير والقتال. خرج فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه اليه بنفسه فخرج اليه بأهل الشام

أخذ على بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة. هناك قدم طلائعه امامه حتى اذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فعسكرت الطائفتان فى سهل صفين وتواقفت الجنود الاسلامية بعضها امام بعض

اختار على ثلاثة من رجاله ليذهبوا الى معاوية يطلبون اليه الطاعة وهم بشير بن عمرو الانصارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشبث بن ربعى التميمى فساروا حتى دخلوا علي معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال يامعاوية ان الدنيا عنك زائلة وانك راجع الى الآخرة وان الله محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك وانى أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الامة وأن تسفك دماءها فقال له معاوية هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال ان صاحبي ليس مثلك ان صاحبى أحق البرية كلها بهذا الامر فى الفضل والدين والسابقة فى الاسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيقول ماذا قال يأمرك بطاعة الله واجابة ابن عمك الى ما يدعوك اليه من

الحق فانه أسلم لك فى دنياك وخير لك في عاقبة امرك قال معاوية ونطل دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبداً فقام شبث فقال يا معاوية اني قد فهمت ما رددت : انه والله لا يخفي علينا ماتغزو وما تطلب انك لم تجد شيئا تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم ألا قولك قتل امامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر واحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتى المتمني أمنيته وفوق أمنيته والله مالك فى واحدة منهما خير لئن أخطأت ماترجو انك لشر العرب حالا فى ذلك ولئن أصبت ماتمني لا تصيبه حتى تستحل من ربك صلى النار فاتق الله يا معاوية ودع ما انت عليه ولا تنازع الأمر أهله : ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة الارد شديد وأمره اياهم بالانصراف فأتوا علياً وأخبروه بالخبر

كان القوم جميعا يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفا من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون وعلى هذا الحال كان شأنهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان الى انقضائه طمعا فى الصلح واختلفت بينهما الرسل فى ذلك فبعث علي عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الارحبي وزياد بن خصفة وشبث بن ربعى وهو أحد الرسل فى المرة الاولى وربما كان حمقه سببا في عدم النجاح : لما دخلوا على معاوية بدأ عدي فقال انا أتيناك ندعوك الى امر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين ان ابن

عمك سيد المرسلين أفضلها سابقه وأحسنها في الاسلام اثرا وقد استجمع له
الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته
يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل : فقال معاوية كانك انما
جئت متهددا ولم تأت مصلحا هيهات يا عدي كلا والله اني لابن حرب مايقعقع
لى بالشنان وانك لمن المجلبين على ابن عفان وانك لمن قتلته واني لارجو أن
تكون ممن يقتل الله عز وجل هيهات يا عدى قد حلبت بالساعد الاشد
فقال شبث وزياد اتيناك فيما يصلحنا واياك فأقبلت تضرب لنا الامثال دع
ماينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا واياك نفعه — وقال يزيد
ابن قيس انا لم نأت الا لنبلغك ما بعثنا به اليك ولنؤدي عنك ماسمعنا منك
ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وان نذكر ما ظننا انا لنا عليك به
حجة وانك راجع به الي الالفة والجماعة ان صاحبنا من قد عرفت وعرف
المسلمون فضله ولا أظنه يخفي عليك ان أهل الدين والفضل لن يعدلوا
بعلى ولن يميل بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليا فانا والله ما رأينا
رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه
فقال معاوية أما بعد فانكم دعوتم الى الطاعة والجماعة فاما الجماعة التى دعوتم اليها
فمعنا هي وأما الطاعة لصاحبكم فانا لا نراها ان صاحبكم قتل خليفتنا وفرق
جماعتنا وآوى ثارنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم انه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه
أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون انهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم الينا فلنقتلهم
به ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة فقال له شبث أيسرك يامعاوية أنك امكنت من
عمار فقتله فقال وما يمنعنى من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ماقتلته بعثمان

ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان فقال شبث لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الاقوام وتضيق الارض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية انه لو قد كان ذلك كانت الارض عليك أضيق : وبذلك انتهت هذه السفارة التى لم يكن يظن أن تنتهى الا بمثل ما انتهت اليه لانه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً فى مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحاً أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوا بقهامع مافى بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها وأرسل معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد والاخنس بن شريق فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال أما بعد فان عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع الينا قتلة عثمان ان زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم فقال له . أأنت لا أم لك والعزل وهذا الامر اسكت فانك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله لتريني بحيث تكره فقال علي وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك ان أبقيت على أحقرة وسواء اذهب فصوب وصعد ما بدا لك وقال شرحبيل بن السمط ان كلمتك فلعمري ما كلامي الا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذى اجبت به قبل فقال علي نعم فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر

فأحسنا السيرة وعدلا فى الامة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما وولى عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا اليه فقتلوه ثم اتاني الناس وانا معتزل أمورهم فقالوا لى بايع فأبيت عليهم فقالوا لى بايع فان الامة لا ترضي الا بك وإنا نخاف أن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعنى الا شقاق رجلين قد بايعانى وخلاف معاوية الذى لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الاسلام طليق ابن طليق حزب من هذه الاحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين فلا غرو الاخلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً الا أنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وأماتة الباطل واحياء معالم الدين : فقال له شرحبيل أشهد أن عثمان قتل مظلوماً فقال لهما لا أقول انه قتل مظلوماً ولا أنه قتل ظالماً قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء ثم أنصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول

لما انسلخ المحرم أمر على من ينادى ألا ان أمير المؤمنين يقول لكم اني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا اليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم اليه فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا الى حق وانى قد نبذت اليكم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ففزع أهل الشام إلى امرائهم ورؤسائهم وكتبوا كتائبهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش : وفى غد ذلك اليوم وهو يوم الاربعاء أول صفر سنة ٣٧ أبتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجهه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى

اذا مضت سبعة ايام قال علي لجنده ليلة الاربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبي

| | |
|---|---|
| أصبحت الامة في أمر عجب | والملك مجموع غداً لمن غلب |
| فقلت قولا صادقاً غير كذب | ان غداً تهلك أعلام العرب |

وفى الصباح زحف علي بجنوده أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك في يوم مشئوم لا يزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث إلى الآن . تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الاول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى علي فمشى نحو الميسرة فانكشفت عند مضر في الميسرة وثبتت ربيعة ومر به فى ذلك الوقت الاشتر النخعي فقال له علي ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فذهب اليهم الاشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكر امامه فأوخذ لا يعمد لكتيبة الا كشفها ولا لجمع الا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الاشتر فى هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول أردت فى هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الاطنابة

| | |
|---|---|
| أبت لى عفتي وأبي بلائى | واقدامي على البطل المشيح |
| واعطائي على المكروه مالى | وأخذي الحمد بالثمن الربيح |
| وقولى كلما جشأت وجاشت | مكانك تحمدى أو تستريحي |

فمنعنى هذا القول من الفرار : وفى هذا اليوم قتل عمار بن ياسر

ولما أمسي المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى اذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الاشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يمده بالرجال لما رأى من ظفره : وبيناهم فى هذه الشدة الشديدة اذا بالمصاحف قد رفعت علي رءوس الرماح من قبل اهل الشام وقائل يقول هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب إلى كتاب الله فقال لهم على ياعباد الله امضوا على حقكم وصدقكم فان معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب ابن مسلمة وابن أبى سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم انهم مارفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها ومارفعوها لكم الا خديعة ودهاء ومكيدة فقالوا مايسعنا أن ندعي إلى كتاب الله عز وجل فنأبي أن نقبله وقال مسعر بن فدكى التميمى وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب الله اذا دعيت اليه والا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان انه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك : ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الاشتر ليترك القتال فارسل اليه رسولا فقال الاشتر للرسول ليس هذه الساعة التي ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفي انى قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلنى فرجع الرسول بالخبر فما انتهى اليه حتي ارتفع

الرهج وعلت الاصوات من قبل الاشتر فقال له القوم والله مانراك الا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث اليه فليأتك والا والله اعتزلناك فقال للرسول ويحك قل للاشتر أقبل فان الفتنة قد وقعت فلم يسعه الا المجيء وترك ساحة الحرب ثم أرسل الاشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب اليه قال له معاوية نرجع نحن وأنتم إلى ماأمر الله في كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لايعدوانه ثم نتبع مااتفقا عليه فقال له الاشعث هذا الحق ثم رجع إلى علي فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الاشعث ومن تابعه وانا قد رضينا أبا موسى الاشعرى فقال علي قد عصيتمونى في أول الامر فلا تعصونى الآن وبين لهم تخوفه من أبي موسي لانه كان يخذل الناس عنه فأبوا الا اياه فاضطر على للسير على مارأوا

## المحاضرة الثلاثون

### عقد التحكيم — نتائجه — الخوارج

### عقد التحكيم

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته

( بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماتقاضي عليه علي بن أبى طالب ومعاية ابن ابي سفيان قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين

انا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وان كان الله عز وجل بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما أبو موسى الاشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملا به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان علي أنفسهما وأهلهما والامة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلي المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه انا على ما فى هذه الصحيفة وانى قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فان الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا علي انفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة ولا يردادها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وان توفي أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط وان مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وان رضيا وأحب فلا يحضرهما فيه الا من أرادا ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً اللهم انا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة) : ويلى ذلك اسماء الشهود من الطرفين — ١٥ صفر سنة ٣٧

وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من شجعان المسلمين

وأنجادهم تسعون الفاً وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تاريخها ولولا ان عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور : ومما يزيد الأسف ان هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول الى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالامة وانما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لانه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الامر وشيعة معاوية تنصره لانه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون انه ينبغي لهم مبايعة من آوي اليه قتلته

يظهر للمتتبع أخبار ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعلي يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ماليس لغيره من سائر الناس حتي أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتي كان يري أن الاشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطاً هائلا عنه ولما ذا ؟ لانه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم انهم لم يدخلوا في الاسلام الا كرهاً حينما لم يجدوا مناصا من ذلك واذا كان الرجل يري أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم الامر غماً الا انه لم يجد له انصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه فيه الناس بالخلافة وردوا اليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه كان اذا تكلم عن معاوية او كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به انسان ولا

ينظر ان الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الامة الاسلامية ومثله لا
ينال الا بالاناة وشيء من المصانعة والسهولة وهذه اشياء لم يرعلي أن
يتنزل اليها أما معاوية فانه بدون ريب كان يري نفسه عظيما من عظماء قريش
لانه ابن شيخها أبى سفيان بن حرب وا كبر ولد أمية بن عبد شمس بن
عبد مناف كما أن عليا أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان فى الرفعة
النسبية ثم كان يري النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده
قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهى أعظم بلدان المسلمين
بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والاثر الصالح في حماية الثغور
الرومية وهو يعلم أن عليا لا ينظر اليه بتلك العين التى كان ينظر له بها من قبله
بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه الى علي يحطه عن تلك
المنزله السامية التى نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة .
وجد أمامه شبهاً تفسح له المجال في تلك المناوأة (١) انه لم يستشر في تلك
البيعة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت أمرته جند من
جنود المسلمين لا يقل عن مئتى ألف (٢) أن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة
علي (٣) ان أول من ندبه للخلافة هم الثائرون علي عثمان الذين قتلوه (٤)
أنه آواهم فى جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم علي فعلتهم
ـ كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع فى
المذلة والمهانة

شخصان ينظر كل منهما الى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما
ولا وصولهما الي طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل علي رءوسهم

من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشيء الذي يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلي كان يطلب مبايعته ولا يزيد و بغير ذلك لا يكون صلح حتى ان رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولا ان تسلم قتلة عثمان اليه ليقتص منهم ثم يكون الامر شورى وكلا الامرين لا يرضى به على : اما قتلة عثمان فلانه اذا أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن ان يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلانه لا يترك حقا قد ثبت له بالبيعة التى رآها تمت وليس لاحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية فى نفسه أضف الى ذلك أن فرقة السبئية التى كانت تتخلل جند على لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لاشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جند على

## نتائج التحكيم

بعد ان كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده الي دمشق أما جند على فان الاشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرءونه حتي مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو ابى بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون فى أمر الله الرجال لاحكم الا لله ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للاشعث قومه من اليمن فمشي رؤساء بنى تميم فتنصلوا اليه

واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة

روي الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع على الى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء مابرحوا من عسكرهم بصفين حتى فشافيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم فى أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم أمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادي مناديهم ان أمير القتال شبث بن ربعي التميمي (وهذا الذى كان رسول على الى معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع علياً وهو هو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين الى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري والامر شورى بعد الفتح والبيعة لله عزوجل والامر بالمعروف والنهى عن المنكر : فبعث اليهم على عبد الله بن عباس وقال له لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج اليهم ابن عباس فاقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال مانقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما فكيف بأمة محمد صلي الله عليه وسلم فقالوا له أما ما جعل حكمه الى الناس وأمر بالنظر فيه والاصلاح له فهو اليهم كما أمر به - وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه حكم فى الزاني مئة جلدة وفى السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا فى هذا قال ابن عباس فان الله عز وجل يقول تحكم به ذوا عدل منكم فقالوا له أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين : وقالوا ان هذه الآية بيننا

أعدل عندك ابن العاص وهو بالامس يقاتلنا ويسفك دماءنا فان كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك مادعوناهم الى كتاب الله فابوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الا من أقر بالجزية ثم جاء على فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته عن كلامهم ألم أنهك ؟ ثم سألهم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم يوم صفين فقال أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيى ولما أبيتم الا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وان يميتا ما أمات القرآن فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن وان أبيا فنحن من حكمهما براء قالوا له فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء فقال انا لسنا حكمنا الرجال انما حكمنا القرآن وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق انما يتكلم به الرجال قالوا فخبرنا عن الاجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الامة ادخلوا مصركم رحمكم الله : والخوارج يدعون انهم قالوا ان التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا الى الله فتب كما تبنا نبايعك والا فنحن مخالفون فبايعهم علي وقال ادخلوا افلنمكث ستة أشهر حتى يجبي المال ويسمن الكراع ثم نخرج الى عدونا فدخلوا على ذلك وتوضيح نظرية هؤلاء القوم ان علياً كان اماماً بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أن

مرتكب الكبيرة كافر فاذاً يكون معاوية بغي على الامام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع ان تقضي بخلافه. ولما كان معاوية ومن معه يستحقون فى نظرهم هذه العقوبة نصاً فاللين معهم ومهادنتهم ادهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه الا الله وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلى ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم في نظرهم كجند معاوية سواء بسواء: فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هي أيضاً باطلة: أما كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج الي النظر فان ادعي ازله شبهاً فى نفس امامة الامام أهي منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيما للرجال فى دين الله وانما هو تحكيم في صحة وصف ينبني عليه حكم فان القاضي الذى ترفع اليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد فى أن السارق تقطع يده او لا تقطع وانما يطلب منه الاجتهاد فى معرفة أهذا سارق أم غير سارق فاذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بقطع اليد فان قالوا ان التحكيم من على شك فى أمامته والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بامر مشكوك فى صحته كان هذا باطلا أيضا لان صاحب الحق كثيراً مايتأكد أن الحق له فاذا رأى من خصمه انكاراً او تمسكاً بشبه فانه لا طريق أمامه الا ان يرفع الامر لقاض أو لمحكمين يكون حكمهما قاطعا لنزاع خصمه: وعلي الجملة فان هذه الفئة الجديدة قد بنت

أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلي عدوان : والمتتبع لاحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتي صار عندهم حقيقة من الحقائق التى لا ينكرها الا غاو في نظرهم والا فكيف يؤول فعلهم كانوا بالامس يرون في علي أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين واليوم يباينونه هذه المباينة ويرون انه ضل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث على أربعمئة رجل عليهم شريح ابن هانىء الحارثى ومعهم ابن عباس يصلي بهم ويلي امورهم وأبو موسي الاشعرى معهم وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعمئة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية اذا كتب الى عمرو جاء الرسول وذهب لايدري بما جاء به ولا بما رجع به ولا يسأله أهل الشام عن شيء واذا جاء رسول علي جاء أهل العراق الى ابن عباس فسألوه ما كتب اليك أمير المؤمنين فان كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه الا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أما تعقلون أما ترون رسول معاوية يجيء لايعلم بما جاء به ويرجع لا يعلم بما رجع به ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندى كل يوم تظنون الظنون : وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام

المخزومي والمغيرة بن شعبة وغيرهم

اجتمع الحكمان وبحثا فيما جاء الأجله وهو اصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو فقال ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً قال أبو موسي أشهد — قال عمرو ألست تعلم أن معاوية وآل معاية اولياؤه — قال بلى — قال عمرو فان الله يقول (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً) فما يمنعك من معاوية ولى عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما قد علمت فان تخوفت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة فان لك بذلك حجة تقول اني وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صحبه فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله ان ولى اكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فاما ما ذكرت من شرف معاوية فان هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الامر لآل أبرهة بن الصباح انما هو لاهل الدين والفضل مع انى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبي طالب واما قولك ان معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الامر فانى لم أكن لاوليه معاوية وأدع المهاجرين الاولين واما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج لى من سلطانه كله ما وليته وما كنت لارتشى فى حكم الله عزّ وجل ولكنك ان شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو ان كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال ان ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة . وهذه المناقشة تدل علي انهما قد اتفقا على خلع المتنازعين

واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا أن يكون الامر شوري بين الناس يولون من رضوا ولم يبق الا اعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا وكان عمرو يقدم أباموسي في كل كلام فتقدم أبو موسي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ايها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر أصلح لامرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيي ورأي عمرو وهو أن نخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الامة هذا الامر فيولوا منهم من أحبوا عليهم واني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الامر أهلا ثم تنحي وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثني عليه وقال ان هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وانا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابزا —

ويروى المسعودى أنهما لم يحصل منهما خطبة وانما كتبا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وان المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب فى نظرنا الى المعقول وان لهج كثير من المؤرخين بذكر الاول لان هذه الخطبة علي فرض حصولها وأن الخديعة تمت علي أبى موسي لم تكن لتفيد معاوية شيئا لان الذى ثبته انما هو حكمه والذى يلزم الامة بمقتضى الصحيفة انما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضي به أحد الحكمين ولم ينقل أحد ان أباموسي رضي فى خطابه ببيعة معاوية

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الانسان بانه لايؤدي الى نتيجة لان أبا موسي كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ويتمنى لو وصل الى مايريد من أى طريق يسلكه وقرينه يميل الى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو

مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلايهمه الا أن يصل إلي مقصوده مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لايتفقان :

قال المغيرة بن شعبة لبعض من معه من قريش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان فدخل على عمرو فقال له ياأبا عبد الله أخبرنى عما أسالك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة فانا قد شككنا في الامر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأنى ونتثبت حتي تجتمع الامة فقال عمرو أراكم يامعشر المعتزلة خلف الابرار وأمام الفجار ثم جاء أبا موسى فسأله كما سأل عمراً فقال له اراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة الى أصحابه وقال لهم لايجتمع هذان على أمر واحد

لم يكن على ليرضي بهذا الحكم الذى تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد الى الحكمين أن يحكما بهما ورضي به معاوية طبعاً لان أقل مافى الحكم أن ليس لعلى امامة وصار الامر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحداً فزادت آماله فى أن يكون خليفة المسلمين

رأي على أنه لابدله من معاودة الكرة الي معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فانه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك لانهم كانوا يظنون ان علياً وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه انسان فقال له ان الناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لاحكم الا لله وعلى يقول كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج فى منزل عبد الله بن وهب

الراسبي فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال في آخر خطابه فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه الجبال أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة : ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأباها ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال هاتوها أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحداناً مستخفين حتى يجتمعوا فى جسر النهروان وكتب ابن وهب للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الامر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة علي اليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت : وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسي خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وان أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فان المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم الا ما أردتم فكنت أنا وانتم كما قال أخو هوازن

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أري ... مكان الهدى أوانني غير مهتد
وهل أنا الا من غزية ان غوت ... غويت وان ترشد غزية أرشد

الا ان هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحيا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه لغير هدى من الله حكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلاهما لم

رشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للمسير الى الشام وأصبحوا فى معسكركم ان شاء الله يوم الاثنين : وكتب الى الخوارج يدعوهم الى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا اليه (أما بعد فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والا فقد نابذناك على سواء إن الله لايحب الخائنين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير الى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب الى ابن عباس يأمره أن يرسل اليه جند البصرة والى أمير المدائن يأمره أن يرسل اليه جندها فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندى . هناك بلغه أن الناس يقولون لو سار بنا الى هذه الحرورية فبدأنا بهم فاذا فرغنا منهم توجهنا الى الشام فقام فيهم خطيباً وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس ياأمير المؤمنين سر بنا الى ماأحببت . بلغ علياً وهو في مقامه بالنخيلة أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جاءه ذلك الخبر قال الناس ياأمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا سر بنا الى القوم فاذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا الى عدونا من أهل الشام فلم يجد بداً من موافقتهم ونادى بالرحيل فلما وصلهم أرسل اليهم أن ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقي أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما انتم عليه من أمركم فبعثوا اليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . ولم تنجع فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها علي وهم يسمعون فرفع راية

مع أبي أيوب الانصاري ونادى من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف الى الكوفة أو الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن انه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة اخواننا منكم في سفك دمائكم فانصرف منهم جمع وخرج الى علي جمع وبقي مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحا الحرب بين الفريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من ٤٠٠ فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائرهم وقال احملوهم معكم فداووهم فاذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفة ولما تم لعلي الظفر قال للناس توجهوا من فوركم هذا الى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فانه أوفى لنا على عدونا : فلما نزل النخيلة أمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد انفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا الى عدوهم فأقاموا هناك أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا الا رجالا من وجوه الناس قليلا وترك العسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير وبعد أيام دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذي ينظرهم فمنهم المعتل ومنهم المكروه وأقلهم من نشط : وهو في كل يوم يلقي عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئاً وصار في جند لا يطيع ولا يحلى ضعف سلطان امامهم في أنفسهم وفضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التي كادت تستأصلهم

هذه كانت حال أهل العراق مع امامهم : أما حال أهل الشام مع

امامهم فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفى هذا كفاية لمن يريد العظائم ولذلك كان شأنه دائماً في علو إلى ما كان يستعين به من الحيل

كان مما يهم معاوية أن يستولى على مصر لانها متاخمة له وهى مورد رزق عظيم للجنود فأعمل لذلك الرأي ونجح : كان محمد بن أبى حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها وافترق عليه أهل مصر فلما تم الامر لعلى ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته فى بدء سنة ٣٦ وكان رجلا سياسياً خبيراً بالامور فاستقامت له الامور بمصر الا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربتى قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلد الانصارى فبعث اليهم قيس اني لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم : كان أثقل شيء علي معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل اليه علي بأهل العراق ويقبل اليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكاتبه معاوية ومناه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب اليه كتابا لا يستبين مراده منه الا أنه قال له أنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلى شيء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكايدة فكتب له كتاباً آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأي قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتاباً جعله ييأس منه واستنبط وجه الحيلة فى اخراجه عن مصر فقال لاهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ألا ترون ما يفعل باخوانكم الذين عنده بخربتى يجرى عليهم أعطياتهم

وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء وكانت لعلي جواسيس بالشام فبعثوا اليه بالخبر فاتهم قيساً وكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتى وهم يومئذ عشرة آلاف فأبي قيس أن يقاتلهم وكتب الى على انهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقهم واعطياتهم وقد علمت ان هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر اهون علي وعليك من الذي أفعل بهم ولو اني غزوتهم كانوا لي قرناً وهم اسود العرب فذرني فأنا اعلم بما أداري منهم — فأبى علي الا قتالهم وأبي قيس أن يقاتلهم وكتب اليه ان كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وأبعث اليه غيري فعزله وولى على مصر محمد بن أبي بكر فلم يلبث شهراً حتى كتب إلى أولئك المعتزلين يخيرهم بين أمرين الدخول في طاعته والخروج من مصر فبعثوا اليه إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر إلى ماتصير اليه امورنا ولا تعجل بحربنا فأبي عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاهم صبر معاوية ومن معه من أهل الشام لعلي وان علياً ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجترءوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل اليهم سريتين الواحدة تلو الاخري ونصيب كلتيهما الهزيمة وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك علياً قال مالمصر الا احد رجلين صاحبنا الذي عزلناه عنها أو مالك بن الحارث الاشتر وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب اليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب اليه ذلك العهد المعدود من أحسن ما كتب في العالم : والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان

لم يصل الاشتر الى مصر بل مات بالقلزم ويقال انه سم فى شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب على الى محمد بن أبى بكر (أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الاشتر إلى عملك وانى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ولا ازدياداً مني لك فى الجد ولو نزعت ماتحت يدك من سلطانك لوليتك ماهو أيسر عليك فى المؤنة وأعجب اليك ولاية منه: ان الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقي حمامه ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة واكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ماأهمك ويعنك على ماولاك أعاننا الله واياك على مالا ينال الا برحمته)

كان معاوية فى ذلك الوقت قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له همّ الا مصر فرأى أن يستعين بمن بها ممن ساءهم قتل عثمان فكتب الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما ويمنيهما فكتبا اليه بخبر من معهما وأنهم ممتنعون وأن ابن أبي بكر هائب لهم وطلبا المدد فجهز إلى مصر عمر بن العاص فى ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أداني أرض مصر فاجتمعت عليه العثمانية وكتب الى ابن أبي بكر (أما بعد فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر فاني لا أحب أن يصيبك مني ظفر: ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فانى لك من الناصحين) فكتب محمد إلي على يعلمه بذلك ويطلب منه مدداً

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج اليه محمد فى ألفي رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحتملوا هجمة الجنود الشامية ومن مالأهم من جنود مصر فقتل من قتل وفر الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فأقبل عمرو حتي نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال انه أحرقه بالنار بعد ذلك : أما علي فلم ينجح فى اخراج الجنود لاغاثة مصر الاّ بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا الا قليلاً حتي بلغ علياً ما كان فأرسل اليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن أبي بكر

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف على ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلي فكتب إلى علي يستمده فأمر الناس أن ينهضوا اليه فتثاقلوا فخطب فيهم هذه الخطبة ! يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امرئ منكم فى بيته وأغلق بابه انجحار الضب فى جحره والضبع فى وجارها المغرور من غررتموه ولمن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب لا أحرار عند النداء ولا اخوان ثقة عند النجاء إنا لله وإنا اليه راجعون ماذا منيت بكم عمي لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون إنا لله وإنا اليه راجعون

ووجه معاوية سفيان بن عوف فى ستة آلاف للاغارة على هيت والانبار والمدائن فسار حتي أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتي الانبار وبها مسلحة لعلى فغلبهم على امرهم واحتملوا ما بها من الاموال وعادوا الى معاوية فخرج على في طلبهم فلم يلحقهم

ووجه عبد الله بن مسعدة الي تيماء وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة فوجه اليه على جيشاً يقدمه المسيب بن نجية الفزاري فلحق أبن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالا شديداً وانتهي الامر بان سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش

ووجه الضحاك بن قيس للاغارة على بوادي البصرة فأغار عليها ووجه بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف الى الحجاز واليمن فسار حتى أتي المدينة وامتلكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ثم ذهب الى اليمن وكان واليها عبيد الله بن عباس لعلى فلما علم بمسير بسر اليه فر الى الكوفة حتى أتي عليا واستخلف علي صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله: وكان بسر عدوفاً أسرف فى قتل من رآه من شيعة على

هكذا كانت الحال في تلك الازمنة الثقيلة التى كانت الى الفوضي اقرب

ومن أغرب ما روي أن ابن عباس وهو الساعد الاشد لعلي فارقه وترك البصرة التي كان قد ولاه عليها وجاء مكة لان علياً اتهمه بمال أخذه ن مال المسلمين

## المحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل علي — بيت علي — صفته وأخلاقه — الحسن بن علي — مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين — الخلافة — القضاء — الجند — الخراج والصدقات والعشور — النقود الحج — الصلاة — العلم والتعليم

### مقتل علي

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً اخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم فلو شرينا أنفسنا فأتينا ائمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم اخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علي بن أبي طالب وقال البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه اليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان سنة ٤٠ أن يثب كل علي صاحبه الذي توجه اليه وأقبل كل رجل منهم علي المصر الذي فيه صاحبه . فأما ابن ملجم المرادي وكان عداده في كندة فخرج حتى أتي الكوفة ولم يخبر من بها من اخوانه شيئاً كراهة أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب قتل منهم علي يوم النهر عشرة وفيهم امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة قتل علي أباها واخاها

يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت لا أتزوجك حتى تشفي لي قال وما يشفيك قالت ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب قال هو لك مهر أما علي فلم أرك ذكرته لي وأنت تريدينني قالت بل التمس غرته فان أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي وان قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها والله ماجئت هذا المصر الا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر . ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتي خرج يريد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو ينادي الحكم لله ياعلي لا لك ولا لأصحابك ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلي يقول لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على علي فقالوا له ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم أوصى أولاده : وفي يوم الاحد ١٧ رمضان توفى بعد أن مضي علي خلافته أربع سنين وتسعة أشهر الا أياماً قضاها في هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافته

أما البرك بن عبد الله فانه قعد لمعاوية في ذلك اليوم الذي ضرب فيه علي فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته ودووي من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد . وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لانه كان شاكياً وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته

فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا أراد عمرواً واراد الله خارجة

بيت على

تزوج على بن أبى طالب

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وام كلثوم الكبرى

(٢) أم البنين بنت حزام من بنى عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمداً الاصغر

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بنى جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي تغلب فولدت له عمر ورقية

(٦) امامة بنت أبى العاص بن الربيع وامها زينب بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم فولدت له محمداً الاوسط

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية

(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى

(٩) محياة بنت امريء القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة

وكان له بنات من امهات شتي منهن أم هاني ءوميمونة وزينب الصغري ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وامامة وخديجة

وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة أمهاتهن أمهات أولاد شتي
وكان النسل من ولده لخمسة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس
وعمر

صفة علي وأخلاقه

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل احوالهم
هذا السؤال : كيف دانت قريش لشيخين أولهما من بني تيم بن كعب
والثاني من بني عدى وخضعت لهما الخضوع التام فسار القوم بقلب واحد
في سبيل نصرة الاسلام وعلو شأنه حتى اذا آلت لبني عبد مناف ووليها
اثنان منهم نغصت على أولهما حياته في آخر عمره ولم يصف الامر لثانيهما
في جميع حياته بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بني
عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم عشيرته الادنون وسادة قريش
في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الاسلام ذلك الى ما امتاز به ثانيهما من المميزات
الكبرى التي لم تجتمع في غيره . لابد لذلك من أسباب : اما ما كان من أمر
عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر علي فانا سنجيب عنه الآن ببيان
ما كان من خلق علي وما كان من الظروف التي أحاطت به

كان علي ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي

الشجاعة ـ الفقه ـ الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل : وقف المواقف المشهودة وخاض
غمرات الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأول ما عرف من
شجاعته بياته موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم

أن قوماً يترصدونه حتى اذا خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه اويؤثر فى نفسه ثم فى بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لا يخفي مكانه يبارز الاقران فلا يقفون له ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الاوفر أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى اذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ففعل به الافاعيل وكان الناس يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول صحب رسول الله صلي الله عليه وسلم منذ صبوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بنى عبد مناف ثم بني هاشم ولم يزل معه الى أن توفى عليه السلام كل هذا كسبه قوة فى استنباط الاحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه فى الاحكام ويرجعون الي رأيه اذا خالفهم في بعض الاحيان واكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التى جمع منها السيد المرتضى جملة عظيمة فى الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفه شارحه الاستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه الى موضع أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدنى في عالم يعمره من المعانى أرواح عالية فى حلل من العبارات الزاهية تطوف علي النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى اليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال الى جواد الفضل والكمال

وطوراً كانت تنكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مراماها واغتالت فاسد الاهواء وباطل الآراء : وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا فصل عن الموكب الالهي واتصل بالروح الانساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به الي الملكوت الاعلى ونما به الى مشهد النور الاجلى وسكن به الى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس

وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي باعلياء الكلمة وأولياء أمر الامة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم الي دقائق السياسة ويهديهم طرق الكياسة ويرتفع بهم الى منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئا كثيراً

هذه الصفات العالية مع مامنحه من شرف القرابة للرسول صلى الله عليه وسلم ومصاهرته له جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها ويري بذلك له الحق في ولاية الامر دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقي الى الطير : وقال فوالله مازلت مدفوعا عن حقي مستأثراً على منذ قبض الله نبيه صلي الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا : وهناك طبيعة ثابتة في الناس أنهم لا يميلون الى شخص يرى

لنفسه التفوق ومزيد الفضل وانما يقرب الى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم: جعله ما يراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقه عليه غيره أم خالفه ومن هذا شأنه لا يلجأ الى الاستشارة فيما هو صانع وهذا شيء شديد لا تقبله أنفس الكبراء والاشياخ: روى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة في الامور بهما فقال لهما لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً الا تخبرانى أى شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأى قسم استأثرت عليكما به أم أى حق رفعه الى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لي فى الخلافة رغبة ولا فى الولاية اربة ولكنكم دعوتموني اليها وحملتموني عليها فلما أفضت الى نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي صلى الله عليه وسلم فاقتديته فلم أحتج فى ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما واما ماذكرتما من أمر الاسوة فان ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني بل وجدت انا وأنتما ماجاء به رسول الله صلي الله عليه وسلم قد فرغ منه فلم أحتج اليكما قد فرغ الله من قسمه وأمضي حكمه فليس لكما والله عندى ولا لغيركما فى هذا عتبى أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم الى الحق وألهمنا وإياكم الصبر: وأي نفس تصبر على مثل هذا

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر فى قتله الهرمزان الى عثمان كان من رأى علي قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها فى ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صوابا كان أم خطأ فلما آل الامر الى علي كان

تريد قتل عبيد الله بعد أن مضى على القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله الا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين. كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأي علي فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته فان في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق: بويع وولاة الامصار من علية قريش وذوي الرأي والدهاء فيها فاشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره فلم يسمع لاحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأي فيهم حتى خيل اليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبري فناوءوه وكانوا عليه يداً واحدة. أراد في هذه الظروف أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم في أنفسهم انه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا ارض التحكيم والا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان: ولما ولي ابن عباس على البصرة نظر بعضهم الي بعض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيد الله بن العباس علي اليمن وعبد الله ابن عباس علي البصرة ففيم قتلنا ابن عفان وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له علي أنفسهم سلطان يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قادته كبراء قريش وعظماؤها فارهفوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لهاتين الطائفتين توازن عند الخصومة. كان معاوية يتساهل بعض الشيء لرءوس أجناده ويفيض عليهم من العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلى يحاسبهم على النقير والقطمير في وقت هو محتاج اليهم حتى كان شيء من ذلك سبباً في تغير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب

الي مكة ليس شأن علي في ذلك شأن عمر فان عمر كان يشتد علي عماله والأئمة كلها معه وأما علي فكان معظم الامة عليه فضلا عن ان كثيراً من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبدالله بن عباس. وعلي الجملة فان أكبر الاسباب في عدم استقامة الامر لعلي يرجع الى عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأى الاشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعد لها ما يهون أمرها وعدم اعطائه الظروف التى كان فيها حقها من السياسة

الحسن بن علي

كان من رأي جند علي أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر الى الظروف التى هو فيها نظرة صائبة وجند جنداً لا يركن اليه وخصما قوى الشكيمة وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الالفة فلم ير خيراً لنفسه ولا لامته من أن يتنازل لمعاوية وصالحه علي شروط رضيها الطرفان وكتب الى معاوية ببيعته وسلم اليه الكوفة في أواخر ربيع الاول سنة ٤١ وبذلك تم ما قاله رسول الله صلي الله عليه وسلم ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين . وهدأت الاحوال وسمي المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والاربعون من الهجرة عام الجماعة

مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الرشدين

اصطلح المؤرخون علي تسمية الدولة الاولى من دول الاسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون

شيئا من المدنية الاسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدنية مجموع النظام الذى اتبعوه فى احوالهم الاجتماعية سواء فى ادارة امورهم الداخلية أو فى حروبهم

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الاسلامية وكان الرئيس يسمي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم مازال مستعملا لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على مافيه صلاحهم متبعاً في ذلك نصوص الكتاب وماعرف من سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الاسلامية وكان أساس التشريع فى زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فان عرض لهم ماليس فيهما عرفوا الاشباه والامثال وقاسوا مالا نص فيه على مافيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة فى الاجتهاد والاستنباط كاحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فان اتفقوا فى الفتوي كان من المحتم عليه ان يتبع رأيهم وهذا ما يسمي فى عرف المسلمين بالاجماع وان اختلفوا فى الفتيا عمل الخليفة بما يرى من أرائهم فلم يكن له سلطان ديني اكثر من أنه منفذ لاحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطانا دينياً كما يزعمون وانما هى سلطان أساسه الدين

لم يكن فى تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كان يختار الخليفة من أي أسرة من أسر قريش والخلفاء الاربعة من ثلاث أسر فابو بكر

من بنى تيم وعمر من بني عدي وعثمان وعلي من بنى عبد مناف : وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لاتتعين لها أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعى تشبه رياسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشي

وكانت الناس تبايع الخليفة علي العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم وزادوا في بيعة عثمان وسنة الشيخين أبى بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة فى بيعة علي لانه أباها لما عرض عليه الامر عبد الرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الامور الا أنهم لم يكونوا علي درجة واحدة فى ذلك وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فانه كان قلما يقدم على أمر الا بعد ان يستشير ويمحص الآراء وكانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والانصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن ابى طالب ومن ماثلهم ، وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه : وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الامر فى المسجد بعد أن يدعو (الصلاة جامعة) فيقول كل ما بداله وربما استشار بعد ذلك خاصته : وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه : ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله الا أنه لم يكن أحد يمنع من ابداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر لان حياتهم كانت مبنية علي المساواة

ولم يكن ينقص هـذا النظام البـديع الا شيء واحد وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف بينهم لان عـدم هـذا التعيين كان سببا من أسباب الفرقـة بـين على ومعاوية لان عليـاً كان يرى أن هـذا الحق لاهل المدينة وحدهم لايشركهم فى ذلك أهـل الامصار الاخري فمتي بايع أهل المدينة لواحـد تمت بيعته وليس لاحد بـعـد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معـه من أهل الشـام كانوا يرون غـير ذلك وأن البيعـة لا تتم الا برضا أهـل الامصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين . لم يكن للخلافة فى هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كسائر النـاس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره ان يكون لعماله حجاب حتى انه أرسل لسعد بن أبي وقاص من حرق باب دار الامارة الذي حال بين العامة و بين رفع شكواهم اليه

القضاء

كان القضاء معتبرا من عمـل الخليفـة لان معناه فصـل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكـتاب والسنة فكان الخلفاء يباشرون هـذا العمل بانفسهم ويستفتون فى الحـكم ان كانت هناك حاجة الى الاستفتاء : ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها فوضوا هـذا العمل الى من في مكنتهم الاستنباط ولـكنهم لم يتسموا باسم القضاة الا من عهد عمر بن الخطاب فانه بعث قضاة الى الامصار ووضع لهم انموذوجاً يسيرون عليه واستمر الحال

علي ذلك الى آخر عهد الخلفاء الراشدين : ومن أعظم ما كان لاولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم فى الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل الى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لامراء الامصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأساً وأحياناً يكتب الخليفة الى الامير أن يولى فلاناً قضاء بلده وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة : وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا فى أمر القضاة ما كتبه على ابن أبي طالب الى أحد عماله (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بادني فهم الي أقصاه أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الامور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح له فى البذل ما يزيل عليه وتقل معه حاجته الي الناس وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له اعندك)

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الاحكام كان يستعين بهم القاضى ويستفتيهم اذا أشكل عليه أمر وأهم ما كان يدعوهم الى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة في كتاب بل كانت فى صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثانى جزءاً وقد

لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصا ويكون النص وهو الحديث عند غيره بذلك كانوا يسألون هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمعوا هذه الفتاوي ولا الاقضية في كتاب خاص يرجع اليه من بعدهم وكان ماذكرناه من أمر السنة سببا كبيرا من أسباب اختلافهم في الفتاوى والاقضية

لم يكن القاضي في أحكامه موكولا الى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وانما كان موكولا الى الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات حقيقة ان ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيباً في القوانين التى يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان

الاجتهاد للقاضي والحال ماذكرنا أمر لابد منه ولذلك عده المتقدمون من الشروط المتحتمة

لم يكن تعيين القضاة مانعاً الخلفاء من نظر أى خصومة تعرض عليهم وقد حصل ذلك من الخلفاء في آنات كثيرة فكان القضاة كانوا نوابا للخلفاء

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الاحكام ولا أن صور الاحكام كانت تعطي للمحكوم له لان ذلك لم يكن ما يدعو اليه مادام التنفيذ في يد القاضى فهو الذي يقضي وهو الذي ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون

للتنفيذ لان من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ماقضى عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب الى كونهم مستفتين

ويظهر لنا أن قضاة القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة الامصار لانا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والامراء بقتل قصاصاً أو جلد لسكر ولم يبلغنا أن قاضيا ليس أميراً قضي بعقوبة منها أو نفذها : وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لايامر بها الا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة : ولم يبلغنا أيضا ان قضاة الامصار كانوا ينيبون عنهم قضاة فى غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة الى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الامن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر فى معداتهم ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان الا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بان يقام فى مسجد حيه ويقال ان هذا تخلف : وهذا التوبيخ كان فى نظرهم

أمض من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والاقدام ويرون في الاحجام عاراً لا يمحي وكما حصرهم عمر رتب لهم الارزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين الا أنه لم يسو بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم على بن أبي طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد ان كانت العرب تحارب في جاهليتها بطريقة الكر والفر وهي ان يكر المحارب على خصمه ثم يفر ثم يكر وهكذا لا يتبعون في ذلك نظاما رأى قواد الجنود من المسلمين ان هذا النظام لا يصلح معه حروب الامم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنا وليس لاحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه . وكان للجيش مقدمة تكون في الامام وهي التي تبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمني ويسرى أو جناحان وساقة ولكل فرقة أمير يأتمر بأمر القائد وكان يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان لهم الشأن العظيم في الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتي لا يؤتوا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الاوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول ( وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتبعهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتي يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم فانهم سائرون الى

عدو مقيم حامى الانفس والكراع وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة
حتي تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح
منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من اصحابك الا من تثق
به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا
بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب
بظلم أهل الصلح واذا وطئت أرض عدوك فاذك العيون بينك وبينهم
ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الارض
من تطمئن إلى نصحه وصدقه فان الكذوب لا ينفعك خبره وان صدقك
فى بعضه والغاش عين عليك وليس عيناً لك وليكن منك عند دنوك من
أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا
امدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس
والرأي من اصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فان لقوا عدواً كان أول
ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد
ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك اكثر مما حابيت
به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة
ونكاية فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك واجمع اليك مكيدتك
وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتي تبصر عورة عدوك
ومقاتله وتعرف الارض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك
ثم أذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك الخ )

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقواد وقليلا ما كانوا يكلون أمر الجباية الى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقى يرسل الى دار الخلافة ليصرف فى مصارفه

وكانت هناك ايرادات ثابتة أوعادية وايرادات غير ثابتة : أما الاولى فهي الخراج والعشر والصدقات والجزية

والخراج هو ما كان يوضع على الاراضي التى امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدى أهلها يؤخذ منهم كأنه أجرة للارض التي أبقيت في أيديهم وكانوا يجعلونه أحياناً شيئاً مقدراً كما جعل عمر فى السوادوأحياناً يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الارض : أما الاراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أوملكها المسلمون عنوة وأهلها لاتقبل منهم الجزية كعبدة الاوثان من العرب فهذه ارض عشر ومثلها الاراضي التى امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين : والعشرهو عشر مايخرج من الارض

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس فى قسمة الارضين التي فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض قداقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ماهذا برأى فقال عبدالرحمن بن عوف فما الرأى ماالارض والعلوج الا مما أفاء الله عليهم فقال عمر ماهو الاماتقول ولست أري ذلك

والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على
المسلمين فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به
الثغور ومايكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق
فأكثروا على عمر وقالوا تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا
ولم يشهدوا ولابناء القوم ولابناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر لا يزيد
على ان يقول هذا رأي قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الاولين فاختلفوا فأما
عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى
وطلحة وابن عمر رأي عمر فأرسل الى عشرة من الانصار خمسة من الاوس
وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه
بما هو أهله ثم قال اني لم أزعجكم الا لان تشتركوا معى فيما حملت من أموركم
فاني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من
وافقنى ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو اي. معكم من الله كتاب ينطق بالحق
فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ماأريد به الا الحق قالوا قل نسمع ياأمير
المؤمنين قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم
واني أعوذ بالله أن أركب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم
لقد شقيت ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسري
وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ماغنموا من أموال بين
أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن احبس
الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية
ولمن يأتى من بعدهم: أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها أرأيتم هذه

المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج فقالوا جميعا الرأى رأيك فنعما قلت ومارأيت ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجر عليهم ماينفقون به رجع أهل الكفر الى مدنهم :

فقال قد بان لى الامر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الارض مواضعها ويضع على العلوج مايحتملون فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه الى أهم ذلك فان له بصراً وعقلا وتجربة فارسل اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فادت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر وكان أشد الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبى رباح فقال عمر اذاً أترك من بعدكم من المسلمين لاشيء لهم : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

قال أبو يوسف القاضى والذى رأي عمر من الامتناع من قسمة الارضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لان هذا لو لم يكن موقوفا علي الناس فى الاعطيات والارزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم اذا خلت من المقاتلة والمرتزقة

ولم يكن مقدار الخراج معروفا تماما فى عهد الخلفاء الراشدين

والجزية ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا ياخذونها من المسكين الذى يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل. روى أبو يوسف القاضى فى كتابه المرسوم بالخراج ص ٧٢ قال مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال من أي أهل الكتاب أنت فقال يهودي قال فما الجأك الى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل الى خازن بيت المال فقال انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم انما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه

وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهما فى السنة ولا تنقص عن إثنى عشر: روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا حجيجه. وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته أوصي الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الابل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار ومايخرج من أرضهم وقد بينت

الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً لا تجب الزكاة فيما دونه وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده : وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الامام فى مصارفها الشرعية

العشور ( الجمارك )

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى ديار الحرب فيتقاضي منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعرى الى عمر أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب اليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً وليس فيما دون المئتين شيء فاذا كانت مئتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه

وروى أبو يوسف القاضى أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلي عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب

وبعث زياد بن حدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلاً من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مرّ عليه راجعاً في سنته فقال أعطنى ألفاً أخري فقال له التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً قال نعم فرجع التغلبي إلى عمر فوافاه بمكة وهو في بيت

فاستأذن عليه فقال من أنت قال رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته فقال عمر ( كفيت ) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه اليه من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل الا أن تجد فضلاً فقال الرجل قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفاً وأني أشهد الله انى على دين الرجل الذى بعث اليك الكتاب

وقد اتبع المسلمون سنة عمر فى تعشير أموال التجارة التى ترد من خارج البلاد الاسلامية إلى بلاد المسلمين : قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملونى على عشور الأبلة فأبيت فلقيني أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الناس قال فقال لى لا تفعل عمر صنعه فجعل على أهل الاسلام ربع العشر وعلي أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك علي أهل الذمة كما فعلوا مع نصاري تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين فى بلدانهم

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد فى السنة الى بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف الا انهم لم يكونوا يتركون فى بيت المال وفراً وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخمس الباقي يرد إلى بيت المال ليصرف فى مصارفه

## النقود

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم لأنها تتبع المدينة والحضارة وكانت الامة العربية تغلب عليها اذ ذاك البداوة ولما جاء الاسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابى بكر وعمر فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لانه نظر فرأي الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها درهم وزنه اثناعشر قيراطاً و درهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع هذه الاوزان الثلاثة وهى ٤٢ قيراطاً وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطاً من قراريط المثقال وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لان كلا منها — ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمثقال كنسبة ١٠ . ٧ . نقل المرحوم على مبارك باشا فى خططه عن المقريزى قال وفى سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا اله الا الله وحده وعلى اخرى عمر وجل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب فى خلافته دراهم ونقشها الله اكبر

## الحج

كان من الاعمال الكبرى لامام المسلمين اقامة حجهم وكان الحج معتبراً في نظر الخلفاء الراشدين موسما عاما يجتمع فيه امراء الجهات ليدلوا الى الخليفة بما عندهم من الاحوال فى بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون وكان اكثرهم توليا لامر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فانه حج سنيه كلها لم يتخلف أبداً الا انه حصل خلاف فى السنة الاولى من حكمه فقيل انه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف . وابو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة وعثمان حج معظم سنيه وعلى اناب عنه كل سنى خلافته لما شغل به من الاضطراب الذى كان بينه و بين معاوية

كان هـذا الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهراً عظيما وفائدة كبري فى تعارف المسلمين بعضهم ببعض وان الخلفاء يجيئهم من الاخبار مالا يمكن ان يكون بواسطة الولاة

الصلاة

كانت اقامة الصلاة من اعمال الخليفة فهو الذي يقيمها بنفسه او بواسطة نائبه وكان فى كل مصر مسجد جامع واحد تؤدى به الجمعة ولا ينصب منبر فى غيره فلم تكن تقام الا جمعة واحدة فى المصر يقيمها الخليفة ان كان او الوالى ولم يبلغنا انه تعددت المنابر فى البلد الواحد فى عهد الخلفاء الراشدين

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الاسلام نادرة فى الامة العربية خصوصا الحجاز ونجد فلما جاء الاسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء اسرى بدر فى ان يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه . ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان اكثر النشء الذى نشأ فى عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة . اما الخلفاء انفسهم فكانوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يكتب شيء من الكتب فى ذلك العهد الا القرآن فانه جمع فى صحف فى عهد ابى بكر وفى عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة ارسل بها الى الامصار ليكون كل مصحف اماما لاهل المصر الذى ارسل اليه . اما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجمع فى كتاب . وكذلك لم يكتب شيء فى العلوم. اما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم اساليبها والشرع انما جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستقلون بفهمها واما العلوم الصناعية فان الامة كانت لا تزال فيها على بداوتها وان كان قد نبغ منها من امكنهم انشاء المدن ومسح الاراضي بالمران على ذلك لا بتعلم سابق

## المحاضرة الثانية والثلاثون

## الدولة الاموية — معاوية وترجمته — انتخابه — حال الامة حين انتخابه — زياد

### الدولة الاموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش فى الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش وكان أمية رجلاً تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد: والمال وكثرة العصبة كانا في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لأمية عشرة من الاولاد كلهم ساد وشرف فمنهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الاعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وقد كان حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذي تحمل الديات فى ماله حينما دعا الناس الى الصلح فى ذلك اليوم ورهن لسدادها ولده أباسفيان: وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الالفة بينهما طويلاً وأبو سفيان كان صديقاً للعباس بن عبد المطلب فلم يكن هذان البطنان متعاديين فى الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدقق فى المسائل التاريخية وانما كان يظهر فى بعض الأحيان شيء من التنافس الضروري وجوده في الأحياء المتقاربة وقد أشرنا الى ذلك فيما مضي ولم يكن هذان البطنان مختلفين فيما به الشرف فى الجاهلية الاولى بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطاً وافراً

لما جاءت النبوة ودعا رسول الله الناس إلى الله أجابه من بنى عبد شمس جمع

كما أجابه من بني هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صد عنه كثير من أولئك الا أن بني هاشم و بنى المطلب حدبا على رسول الله للعصبية القومية العربية حيث حماه أبو طالب كبير بيته: وكان يزاحم بنى عبدمناف فى الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصي

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المؤتمرون من جميع قبائل قريش الا أنه لم يكن فيهم من بنى هاشم الا أبو لهب: جاءت الحروب الاسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فما بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عدد قليل من بنى عبد شمس وكان القائد الاكبر لقريش في بدر من بنى عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم فى أحد والاحزاب أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة وكان أبو سفيان رجلا عظيما في نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالباً محبة الفخر والذكر فأنهى العباس ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول في ذلك اليوم تأليفا له وتحببا اليه ما لم يعطه أحداً وهو أن أمر منادياً ينادي بمكة من أغمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فسوى بين بيته و بين بيت الله وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن وفي ذلك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الاسلام من رجالات قريش وذوى النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر الناس باسلامهم وكان يقابلهم قائما فاتحا ذراعيه معانقا لهم كما فعل بصفوان

ابن امية والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله أن عفوه عنهم سيكون عيباً لاحقابهم يعيرون به فى مستقبل أيامهم

وبعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شابا من بنى عبد شمس . استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين فى حروب الردة فأبلوا فيها بلاء عظيماً وأغنوا غناء حسنا ثم سيرهم الى ثغور الشام وكانوا كلهم فى شوق الى وقائع يقضون فيها الواجب الذي عليهم للاسلام حتى يكتب لهم فى نصرته ما يمحوا ما كتب عليهم فى مغاضبته

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكرهم يزيد بن أبى سفيان فقد كان ولاه أبو بكر قيادة أحد الجنود الاربعة التي توجهت لفتوح الشام وكان الوالى على دمشق لعمر بن الخطاب وكان أخوه معاوية عاملا على احدى الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافاً الى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحسن منه بحسن السياسة وقوة التدبير والامانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله : وفى عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها العام ويولى على الكور عمالا من قبله . ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بنى عبد شمس فساسوا الجنود وأرهفوها بالطاعة

وعلى الجملة فان بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية الى سيادة فى الاسلام وقد قال عليه السلام ( الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا ) فاتصلت له السيادتان

وفروعه التي كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان فرع حرب بن أمية وفرع أبى العاص بن أمية وكان من الفرع الاول ثلاثة خلفاء ومن الثانى

عشرة على الشكل الآتى

- أميـة
  - حرب
    - أبوسفيان
      - ١ معاويةالاول
        - ٢ يزيد الاول
          - ٣ معاية الثاني
  - أبوالعاص
    - الحـكم
      - ٤ مروان الاول
        - ٥ عبدالملك
          - ٦ الوليد الاول
            - ١١ الوليد الثانى
          - ٧ سليمان
          - ٩ يزيد الثانى
            - ١٢ يزيد الثالث
          - ١٠ هشام
        - عبدالعزيز
          - ٨ عمر
        - محمد
          - ١٣ مروان الثانى.

فقد تولى من الفرع الاول ثلاثة خلفاء ومن الثانى عشرة ومدة خلافة هذه الدولة تبتدىء من اليوم الذي بويع فيه معاويه بيعة عامة فى ٢٥ ربيع سنة ٤١ وتنتهى بمقتل مروان الثانى ابن محمد سـنة ١٣٢ لثلاث بقين من ذى الحجة وهي ٩١ سنة وتسعة أشهر

## ١ ﴿ معاوية بن أبي سفيان ﴾

### ترجمته

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفى يوم الفتح كان سنه ٢٣ سنة وفى ذلك اليوم دخل فى الاسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد اسلامه يكتب بين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم : وفي خلافة أبي بكر ولاه قيادة جيش مدداً لاخيه يزيد بن أبى سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازياً تحت امرة أخيه وكان على مقدمته فى فتح مدن صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهى سواحل دمشق ثم ولاه عمر ولاية الاردن : ولما توفي يزيد فى طاعون عمواس ولاه عمر بن الخطاب عمل يزيد دمشق وما معها : وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاة أمصارها تحت أمره وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع على بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لانه أتهمه بالهوادة فى أمر عثمان وايواء قتلته فى جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان من وراء ذلك أن حاربه علي بن ابي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان واتفقا علي خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لامامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية امام أهل الشام وعلي امام أهل العراق ومازال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل على بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن بن على الخلافة الى معاوية وحينئذ اجتمع على

بيعة معاوية أهـل العراق والشام وسمي ذلك العام الحادى والاربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعـد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العـامة في ربيع الاول سنة ٤١

طريقة انتخاب معاوية

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخابا عاما يعني من جميـع أهل الحل والعقد من المسلمين وانما انتخبه أهـل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحـكمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة : فلما قتل علي وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر اليه فبايعه في ربيع الاول سـنة ٤١ فبيعته اختيار من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهـل العراق الا أنها انتهت فى الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميـع الامة ما عدا الخوارج

حال الامة عند استيلام معاوية الامر

تولى معاوية أمر الامة وهي أقسام ثلاثة القسم الاول شيعة بنى امية من أهل الشام ومن غيرهم فى سائر الامصار الاسـلامية . القسم الثاني شيعة على بن أبى طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويروا أنه أحق بالامر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العرق ا وقليل منهم بمصر : القسم الثالث الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهـم مارقين عن الدين وهم أشـداء الشـكيمة متفـانون فيما يعتقدون يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة على لان كلا قد ألحد على زعمهم فى الدين ومع ما بينهما من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والاقدام ومثل هذه الامة تحتاج لسياسة حكيمة فى إدارة شؤنها وافاضـة ثوب

الامن عليها : أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يداً فى السياسة صانع رءوس العرب وقروم مضر بالاغضاء والاحتمال والصبر على الاذى والمكروه وكانت غايته فى الحلم لاتدرك وعصابته فيه لاتنزع ومرقاته فيه تزل عنها الاقدام

كان الذى يهم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لانهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لانهم قوم غلوا فى الدين غلواً عظيما وفهموا كثيراً منه على غير وجهه ففرقوا كلمة الامة ورأوا من واجبهم استعراض الانفس وأخذ الاموال ولنبدأ بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الاشجعي معتزلا فى ٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل اليهم معاوية جمعا من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم فقال معاوية لاهل الكوفة والله لا أمان لكم عندى حتى تكفونيهم فخرج اليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فان اصبناه كنا قد كفينا كم عدوكم وان أصابنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا لابد لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهراً وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبد الله بن أبى الحوساء الطائي فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوهم وكان ابن أبي الحوساء قد خوف بالصلب فقال

| | |
|---|---|
| ما ان أبالي اذا أرواحنا قبضت | ماذا فعلتم بأوصال وأبشار |
| تجرى المجرة والنسران عن قدر | والشمس والقمر الساري بمقدار |
| وقد علمت وخير القول أنفعه | أن السعيد الذى ينجوا من النار |

فلما قتل ابن أبى الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثرة الاسدي فسار حتي قدم النخيلة فى ١٥٠ وانضم اليه فل ابن أبي الحوساء وهم قليل فقال معاوية لابي حوثرة اكفنى أمر ابنك فصار اليه أبوه فدعاه الى الرجوع فأبي فأداره فصمم فقال له يابنى أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن اليه فقال ياأبت انا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني فرجع الى معاوية فأخبره فقال ياأبا حوثرة عتا هذا جداً ولما نظر حوثرة الي أهل الكوفة قال ياأعداء الله انتم بالامس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه فخرج اليه أبوه فدعاه إلي البراز فقال ياأبت لك فى غيري مندوحة ولى فى غيرك عنك مذهب ثم حمل على القوم وهو يقول

اكرر على هذى الجموع حوثرة　　　فعن قليل ماتنال المغفرة

فحمل عليه رجل من طيىء فقتله فرأي اثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله : ثم توالت الخوارج حتى اخافوا بلاد العراق فرأي معاوية أنه لابد من تولية العراق رجالا ذوي قدرة وحكمة يأخذون على أيدي السفهاء ويشتدون فى طلب المريب فاختار رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأى وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة

فأما زياد فقد كان من شيعة على وكان واليا له على فارس وقتل علي وهو بها فذكر معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطا فى استقدامه فأتي المغيرة زياداً وقال له ان معاوية استخفه الوجل حتى بعثني اليك ولم يكن احد يمد يده الى هذا الامر غير الحسن وقد بايع فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغنى

عنـك معاوية فقال زياد أشر على وارم الغرض الاقصى فان المستشار مؤتمن فقال له المغيرة أري أن تصل حبلك بحبله وتشخص اليـه ويقضي الله : وكتب اليه معاوية بأمانه بعـد عود المغـيرة فخرج زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخـبره بما أنفق منها وبما حمـل الى علي وبما بقي عنده فصدقه معاوية وقبض منه مابقي عنـده

وفى سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً ألحقـه بأبى سـفيان لاعتراف كان من أبى سفيان بذلك شـهد به جمع وكان معاوية قد كتب الى زياد في حياة علي يعرض له بولادة أبي سفيان اياه فلما علم بذلك علي كتب الى زياد يقول له (اني وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلا وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثا ولا تحل له نسباً وان معاوية يأتي الانسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينـه وعن شماله فاحـذر ثم احـذر والسلام ) فلما قتـل علي رأى معاوية أن يسـتميل زياداً واسـتصفي مودته باستلحاقه فـكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبي سـفيان وان كان كثير من الناس لا يعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد الى عائشة أم المؤمنين يقول لها : من زياد بن أبى سفيان وهو يريد أن تـكتب له بهذا العنوان فكتبت اليه من عائشة أم المؤمنين الى ابنها زياد وأراد زياد أن يحج بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك أخوه أبو بكرة وكان له مهاجراً فجاء الى بيت زياد وكلم أحد بنائه فقال له يابنى قل لابيك انني سمعت انك تريد الحج ولا بد من قدومك الى المدينة ولا شك انك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم فان اذنت لك فأعظم به خزياً مع رسول الله وان منعتك فاعظم به فضيحة

فى الدنيا فترك زياد الحج

وفى السنة الخامسة والاربعين ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الاول سنة ٤٥ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء وإنما قيل لها ذلك لانه لم يحمد الله فيها ولما فى هذه الخطبة من روائع الكلم وبديع الحكم وبيان سياسته فى حكم البلاد أحببنا ايرادها قال :

أما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفى بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشي عنها الكبير كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لاهل طاعته والعذاب الأليم لاهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تظنون انكم أحدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله : ماهذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل : ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة : عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس كل امريء منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً : ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدماً واحراقاً . اني رأيت آخر هذا الامر

لا يصلح الا بما صلح أوله لين فى غير ضعف وشدة في غير عنف واني أقسم
بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي
والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتي يلقي الرجل منكم أخاه فيقول أنج
سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لى قناتكم . ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة
فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فاذا سمعتموها منى فاغتمزوها
في واعلموا أن عندي أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله
فاياي ودلج الليل فاني لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه وقد اجلتكم فى ذلك
بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم . واياي ودعوي الجاهلية فانى
لا أجد أحدا دعا بها الا قطعت لسانه . وقد أحدثتم احداثا لم تكن وقد أحدثنا
لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن
نقب بيتا نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا فكفوا عنى أيديكم
وألسنتكم اكفف عنكم لساني ويدي ولا يظهر من أحد منكم خلاف
ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين أقوام إحن فجعلت ذلك
دبر اذني وتحت قدمى فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ومن كان مسيئا
فلينزع عن اساءته اني لو علمت أن احدا منكم قتله السل من بغضى لم اكشف
له قناعا ولم أهتك له سترا حتي يبدى لى صفحته فاذا فعل لم أناظره فاستأنفوا
أموركم وأعينوا علي أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا
سيبتئس أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان
الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة
فيما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا

واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ولا مجمرا لكم بعثا فادعو الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي اليه تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل فاذا رأيتموني أنفذ فيكم الامر فانفذوه على اذلاله وايم الله ان لي فيكم لصرعي كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي

فقام اليه عبد الله بن الاهتم فقال أشهد أيها الامير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذاك نبي الله داود . فقال الاحنف قد قلت فأحسنت أيها الامير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وانا لن نثني حتى نبتلي فقال صدقت : فقام اليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبأ الله بغير ماقلت قال الله تعالى (وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخري وأن ليس للانسان إلا ماسعى) فأوعدنا الله خيرا مما أوعدتنا يازياد . فقال زياد انا لن نصل الى الحق فيك وفي اصحابك حتي نخوض في الباطل خوضا

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتي بلغ الخبر الكوفة وعاد اليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلى فيأمر رجلا أن يقرأ سورة البقرة أومثلها يرتل القرآن فاذا فرغ أمهل بقدر مايري أن انسانا يبلغ أقصى البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى انسانا الاقتله فأخذ ذات ليلة اعرابيا فأتى به

زياداً فقال له هل سمعت النداء فقال لا والله قدمت بحلوبة لى وغشينى الليل فاضطررتها الى موضع وأقمت لاصبح ولا علم لى بما كان من الامير فقال أظنك والله صادقاً ولكن فى قتلك صلاح الامة ثم أمر به فضربت عنقه : وكان زياد اول من شدد أمر السلطان واكد الملك لمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً حتي أمن بعضهم بعضاً وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتي يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحد بابه وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرط اربعة آلاف . وقيل له ان السبيل مخوفة فقال لا أعانى شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فان غلبنى فغيره أشد غلبة منه فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه : قال أبو العباس المبرد فى صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة : ووجه يوما بجينة بن كيش الاعرجي الي رجل من بنى سعد يري رأى الخوارج فجاء بجينه فأخذه فقال انى أريد أن احدث وضوء للصلاة فدعنى أدخل الى منزلى قال ومن لى بخروجك قال الله عز وجل فتركه فدخل فأحدث وضوءاً ثم خرج فأتي به بجينة زياداً فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عنى فانكرت ذلك فذكر الرجل ربه نحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال انك قد قلت قولا فصدقته بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس

يسألونه فقال ما كلكم استطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضراً ولا نفعاً لنفسه ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فرزق الله منه ما ترون : وكان زياد يبعث الى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذى يمنعكم عن اتياني الا الرجلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشونى الآن واسمروا عندى

وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأى الخوارج فدعاه فولاه جنديسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته في كل سنة مئة ألف فكان أبو الخير يقول ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل واليا حتى أنكر منه زياد شيئاً فتنمر لزياد فحبسه فلم يخرج من حبسه حتى مات

وفى سنة ٥٠ أضاف معاوية الى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة ابن شعبة فصار والى المصرين وهو أول من جمعا له فسار الى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوما من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدرى من جليسى ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون ما منا من حصبك فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه حتى صار الى ثلاثين فقطع أيديهم . واتخذ زياد المقصورة حين حصب: وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها

كان بالكوفة جماعة من شيعة على رأسهم حجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون فى معاوية وعماله فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال أما بعد فان غب البغي والغي وخيم

أن هؤلاء جموا فأشروا وأمنونى فاجترءوا على الله لئن لم تستقيموا لاداوينكم بدوائكم ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده ويل أمك ياحجر سقط العشاء بك على سرحان : وأرسل الي حجر يدعوه وهو بالمسجد فابي حجر أن يجيء فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث اليه جماعة ففعل فسبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الاحمق هذا والله من رجسكم والله لتظهرن لي براءتكم أولا تينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم فقالوا معاذ الله أن يكون لنا رأى الا طاعتك وما فيه رضاك قال فليقم كل منكم فايدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا اكثر أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته انطلق الى حجر فاتني به فان ابى فشدوا عليهم بالسيوف حتى تأتونى به وبمن معه فبعد خطوب طويلة جيء به فلما رآه زياد قال له مرحبا أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس على أهلها تجنى براقش فقال حجر ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة وانى علي بيعتى فامر به الى السجن ثم طلب أصحابه فهرب بعضهم وأخذ بعضهم وعدتهم اثنا عشر رجلا فأودعهم السجن واحضر شهودا شهدوا على حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا الى حرب أمير المؤمنين وأظهر ان هذا الامر لا يصلح الا فى آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبى تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه وان هؤلاء النفر الذين معه هم رءوس أصحابه على مثل رأيه وكان الشهود علي ذلك كثيرين من أهل الكوفة فكتب شهادتهم وأرسل بها وبحجر وأصحابه الى معاوية فسير بهم حتي

انتهوا الى مرج عذرا عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة وهم الذين تبرءوا من على بن أبى طالب

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث الى معاوية فيه وفي أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم فقال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبى سفيان قال حين غاب عنى مثلك من حلماء قومي وحملنى ابن سمية فاحتملت وقالت عائشة لولا أنا لم نغير شيئا الا صارت بنا الامور الى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر : وقالت هند بنت زيد الانصارية ترثي حجرا وكانت تتشيع

ترفع أيها القمر المنير تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولا كأن لم يحيها مزن مطير
ألا ياحجر حجر بنى عدي تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ماأردى عديا وشيخا في دمشق له زئير
فان تهلك فكل زعيم قوم من الدنيا الى هلك يصير

وتوفى زياد في سنة ٥٣ بالطاعون

والمطلع على الطريقة التى حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة اعلان حكم عرفى فان أخذ الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح في جسمه بالسقيم أمر ليس جاريا على القانون الشرعى الذى يقصر على المسئولية على المجرم وانما ذلك شيء يلجأ اليه الاداريون

لتخفيف آلام الجرائم وارهاب النـاس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك فى الغالب وقتيـة ، ومن ذلك وضعه العقوبات التى شرعها للجرائم المحدثة كما قال من نقب عن بيت نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا ، ومن ذلك: عقوبته للمدلج بالقتل . كل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لائقـة لاهل العراق وقد أفادت فى اصلاح حالهم لان الامان ساد وقل خروج الخوارج فى زمنه ولـكنه ضحي في سبيل الوصول الي ذلك شيئا كثيرا والتاريخ انما يعطى الانسـان صـفة السيـاسة والحـكمة اذا تمكن من اصـلاح الفاسـد بقليـل من العسف لانقول ذلك هضما لحق زياد لانه يعتبر أقل ولاة العراق اسرافا في الدماء ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيـده فقال انه لايحتجب عن طالب حاجة وان أتاه طارقا بليـل ولا يحبس عطاء ولا رزقا عن ابانه ولا يجمر لهم بعثا وهـذه الاشياء الثلاثة متي وفرها الوالى على الامة وصدقها فيها لاتجـد سببا للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين ان زياداً لم يحتج لتنفيـذ ما أوعـد به من العقوبات الاقليلا لان علمهم بصـدقه فى الايعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم

وعلى الجملة فان عهد زياد بالعراق على مافيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفاً وذلك انهم قوم لا يصلحهم الا الشدة راذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتـكبوا المصاعب واجرموا الى الامراء أو الخلفاء من غير اسباب مبينة واضحة

## المحاضرة الثالثة والثلاثون

### المغيرة بن شعبة — عبيد الله بن زياد — الفتوح في عهد معاوية - بيعة يزيد - وفاة معاوية

### المغيرة بن شعبة

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين . أحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتى فيقال ان فلاناً يرى رأى الشيعة وان فلاناً يرى رأى الخوارج فكان يقول قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضاً ويتذاكرون مكان اخوانهم بالنهروان ويرون أن في الاقامة الغبن والوكف وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر : وقد فزع الخوارج في عهده إلى ثلاثة نفر منهم المستورد بن علفة التميمي من تيم الرباب وحيان بن ظبيان السلمى ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لانه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣ فكانوا في جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة اليه وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج في هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيهم بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ما أردنا من

ذلك شيئاً — ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب —
قال المغيرة بلى قد بلغني ذلك عنكم ثم قد صدق ذلك عندي جماعتكم : قالوا اله أما
اجتماعنا في هذا المنزل فان حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده في
منزله فنقرأ القرآن عليه فأمر بهم إلى السجن فلم يزالوا فيه نحواً من سنة وسمع
اخوانهم بأخذهم فحذروا وخرج المستورد بأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج
خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم فقام في اهل الكوفة
خطيباً فقال (أما بعد فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف
عنكم الأذى واني والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم فأما الحلماء
الاتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقى بذنب
السفيه الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم وقد ذكر
لى ان رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف وايم الله
لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر الا أبدتهم وجعلتهم نكالا
لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام ارادة الحجة
والاعذار) فقام اليه معقل بن قيس الرياحي فقال أيها الأمير هل سمى لك أحد
من هؤلاء القوم فان كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فان كانوا منا كفيناكهم
وان كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها
فقال ما سمى لي أحد منهم ولكن قد قيل لى ان جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر
فقال معقل أصلحك الله فاني أسير في قومي وأكفيك ماهم فيه فليكفك كل
امرئ من الرؤساء قومه : فنزل المغيرة وأرسل الى الرؤساء وقال لهم ليكفني

كل امرئ من الرؤساء قومه والا فو الذى لا إله غيره لاتحولن عما كنتم تعرفون إلى ماتنكرون وعما تحبون الي ماتكرهون فلا يلم لائم الا نفسه وقد أعذر من أنذر فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والاسلام الا دلوهم على من يرون انه يريد أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة

ولما كان الخوارج قد نزلوا في احدي دور عبدالقيس قام صعصعة ابن صوحان العبدى وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه في دار العبدى فكره أن يؤخذوا في عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطاباً حسناً قال فى آخره ( ولا قوم أعدي لله ولكم ولاهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا امامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فايا كم أن تؤوهم فى داركم أو تكتموا عليهم فانه ليس ينبغى لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لى أن بعضهم فى جانب من الحي وأنا باحث عن ذلك وسائل فان كان حكي لى ذلك حقاً تقربت إلى الله بدمائهم فان دماءهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدى ولما بلغ من فى محبس المغيرة اجماع اهل المصر على نفى من كان بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ بن جوين في ذلك

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ  شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة  وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فانها  أقامتكم للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التى  اذا ذكرت كانت أبر وأعدلا

فياليتني فيكم على ظهر سابح ... شديد القصيري دارعاً غير أعزلا
ويا ليتني فيكم أعادي عدوكم ... فيسقيني كأس المنية أولا
يعز علىّ أن تخافوا وتطردوا ... ولما أجرد فى المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد ... اذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحاً بنصل السيف فى حمس الوغي ... يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
وعز على أن تضاموا وتنقصوا ... وأصبح ذا بث أسيراً مكبلا
ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم ... أثرت اذاً بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة ... شهدت وقرن قد تركت مجدلا

ثم خرج المستورد وأصحابه إلى بهرسير فتتاموا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا إلى الصراة فباتوا بها ليلة فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال ان هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين وسوء الرأى فمن ترون أبعث اليهم فقام اليه عدى بن حاتم فقال كلنا لهم عدو ولرأيهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار اليهم فقام معقل بن قيس فقال انك لا تبعث اليهم أحداً ممن تري حولك من أشراف المصر الاّ وجدته سامعاً مطيعا ولهم مفارقاً ولهلاكهم محباً ولا أري أصلحك الله أن تبعث اليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم منى فابعثني اليهم فانى أكفيكهم باذن الله فقال أخرج على اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخيرهم من نقاوة شيعة على وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الرواغ اليشكري فى ٣٠٠ فلحقهم بالمذار مقيمين فبات ليلته حتى اذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من معه فما ثبت لهم انسان ثم ان أبا الرواغ صاح وقال يافرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم الكرة الكرة .

فعادوا الى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضا وانكشفوا فقال لهم أبو الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريبا منهم لا نزايلهم حتي يقدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع الي الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكثر القتلى فقال له رجل ان الله لا يستحي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لا اكثر الله فينا مثلك انا مالم ندع المعركة فلم نهزم وانا متي عطفنا عليهم وكنا قريبا منهم فنحن على حال حسنة حتي يقدم علينا الجيش فوقفوا قريبا منهم حتى قدم معقل فشكر أبا الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ أصلحك الله ان لهم شدات منكرات فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن انت من وراء الناس دِرءاً لهم فقال نعما رأيت فما كان ريثما قالها حتى شدوا عليه وعلى أصحابه فلما غشوه انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال الارض الارض ياأهل الاسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفى اثنائه بلغ الخوارج أن جيشا من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار ان يقعوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم الا عند الصبح فعاد متبعا آثارهم وأبو الرواغ على مقدمته فى ٦٠٠ فلحقهم بجرجرايا فلما رآه الخوارج شدوا عليه شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جند أبي الرواغ وبقى معه نحو مئة رجل فعطف عليهم وهو يقول

ان الفتى كل الفتى من لم يهل ... اذا الجبان حاد عن وقع الاسل

قد علمت اني اذا البأس نزل   أروع يوم الهيج مقدام بطل

ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتي ردوهم الى مكانهم الذى كانوا فيه ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجيء معقل فتركوا الموقعة وسارا وأبو الرواغ فى آثارهم : قال المستورد لاصحابه ان الذين مع أبي الرواغ هم حر أصحاب معقل فهلم فلنقابل معقلا قبل أن يلتقى باصحابه فعاد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ بعد ان خدعه ولم يكن الا قليل حتي التقى بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادي ياعباد الله الارض الارض فنزل معه نحو من ٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم باطراف الرماح جثاة على الركب وصبروا على حملات الخوارج الشديدة : وبيناهم على تلك الحال اذا طلعت عليهم مقدمة أصحاب أبي الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجته أن قتل المستورد وسائر أصحابه ما عدا خمسة منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيد معقل السيف وبيد المستورد الرمح فاشرع المستورد الرمح فى صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخرا ميتين وبذلك انتهي امر هؤلاء القوم الذين لم يكن يمكن يماثلهم أحد في شداتهم المنكرة : قال الشعبي ما ولينا وال بعد المغيرة مثله وان كان لاحقا بصالح من كان قبله من العمال : واقام المغيرة عاملا لمعاوية سبع سنين وأشهراً وهو من أحسن شيء سيرة وأشده حبا للعافية غيرأنه لا يدع ذم على والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لاصحابه وكان يقول لا أحب أن أبتديء أهل هذا المصر بقتل خيارهم

وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقي ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيذكروني لو قد جربوا العمال بعدى. قال شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم أحمدهم للبرىء وأغفرهم للمسيء وأقبلهم للعذر : وتوفي المغيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزياد لرجح عليه لانه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف

ومن ولاة العراق الاشداء عبيد الله بن زياد ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥ وقد اشتد علي الخوارج شدة لم يفعلها أبوه زياد فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً وفي الحرب جماعة اخرى وممن قتل صبراً عروة بن أدية أخو أبى بلال مرداس بن أدية وكان سبب ذلك ان ابن زياد خرج في رهان له فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة ابن أدية فأقبل على ابن زياد فقال خمس كن في الامم قبلنا فقد صرن فينا . (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين) وذكر خصلتين أخريين: فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترىء عليه الا ومعه جماعة من اصحابه فقام وركب وترك رهانه: فقيل لعروة ما صنعت تعلمن والله ليقتلنك فتوارى فطلبه ابن زياد في الكوفة فاخذ بها فقدم به على ابن زياد فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ثم دعا به فقال كيف تري قال أرى انك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك فقتله وأرسل الى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس في أربعين رجلا بالاهواز فبعث اليهم ابن زياد جيشا عدته ألفان وعليهم ابن حصن التميمي فهزمه الخوارج فقال شاعرهم :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بآسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة حتي توفي معاوية

وفي مصر كان الوالى عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم يزل والياً عليها حتى مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاة سيأتي ذكرهم متي بدأنا في تاريخ مصر

أما الحجاز فكان ولاته دائما من بنى أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية اذا أراد أن يولي رجلا من بنى حرب ولاه الطائف فان رأي منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها فان أحسن الولاية وقام بما ولى قياما حسنا جمع له معهما المدينة فكان اذا ولى الطائف رجلا قيل هو في أبي جاد فاذا ولاه مكة قيل هو في القرآن فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق : وكان ولاة المدينة في الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فان معاوية لم يحج بنفسه الا مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاة وكلهم من بني أمية

الفتوح فى عهد معاوية

لم يكن فى الشرق على حدود بلاد الفرس الا فتوح قليلة والذي كان انما هو ارجاع الناكثين من أهل تلك البلاد الى الطاعة وغزا عبد الله ابن سوار العبدي الذى كان أميراً على ثغر السند القيقان (١) مرتين وفي

---

(١) من بلاد السند مما يلى خراسان

المرة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه . وغزا المهلب بن أبي صفرة الازدى ثغر السند فاتي بنة ولاهور (١) وهما بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعا فقال المهلب ما جعل هؤلاء الاعاجم أولى بالتشمير منا فحذف الخيل وكان اول من حذفها من المسمين . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان أحدهما قسطنطين الثاني ابن هرقل الثاني الذى ولى الملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغوناتس الذى ولى من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الاسلامية لما بينهما من الجوار فرتب معاوية الغزو اليها برا وبحرا أما البحر فكانت الاساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بامرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفا وسبعمئة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس فتحها جنادة بن أبى أمية الازدى ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم

وأما فى البر فرتب الشواتي والصوائف والشواتي جمع شاتية وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهي الجيش الذى يغزو فى الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو

---

(١) مدينة بكابل

وفي سنة ٤٨ جهز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزوا معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصارى وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابى فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم فى بعض الايام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فانشأ يقول

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق شتي فصادفت منها اللين والبشعا
كلا بلوت فلا النعماء تبطرنى ولا تخشعت من لاوائها جزعا
لا يملأ الامر صدرى قبل موقعه ولا أضيق به ذرعاً اذا وقعا

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتي قتلوه فبلغ خبر قتله معاوية فقال لابيه والله هلك فتى العرب فقال ابني أو ابنك قال ابنك فاجرك الله فقال

فان يكن الموت أودي به وأصبح مخ الكلابى زيرا
فكل فتى شارب كأسه فاما صغيراً واما كبيرا

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الاغريقية بسفنهم . وفى اثناء الحصار توفى أبو أيوب الانصارى خالد بن زيد وهو الذى نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريباً من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار للآن وعليه مسجد مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة الي الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جنودهم ومراكبهم

ومن الفتوح العظيمة ما كان فى افريقية ففي سنة ٥٠ ولي معاوية عقبة بن
نافع وكان مقيما ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله فى تلك البلاد
جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير اليه عشرة آلاف فدخل أفريقية وانضاف
اليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في اهل البلاد لانهم كانوا
اذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الامير عنهم
نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين
وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من اهل البلاد فقصد موضع
القيروان وكان دحلة مشتبكة فقطع الاشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى
المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها ٣٦٠٠ باع وتم
أمرها سنة ٥٥ وسكنها الناس وكان فى اثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل
السرايا فتغير ودخل كثير من البربر فى الاسلام واتسعت خطة المسلمين
وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام
فثبت الاسلام فيها

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولى على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل
على افريقية مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم افريقية وأساء عزل عقبة واستخف به.
وهذا من الخلل القديم الذي يئن منه المسلمون الى الان فان الخلف كان من الولاة
عوضا عن أن يستعين بآراء سلفه وتجاربه يجتهد في تصغيره وتحقيره حتى ينطفيء
اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يقتطع من نفسه
قوة كان يمكن الانتفاع بها وترون مثل هذا بين أظهركم للان فانه ماولى انسان عملا
بعد رجل آخر الا اجتهد ان يسيء سمعته ويبين للناس انه لم يكن يحسن

أن يسير فيما ولي سيرة رجل عارف بالامور وكذلك السلف يجتهد أن يخفي عن خلفه كل مايمكن أن ينفعه ليرتبك فى ادارته حتى يكون للاول الاسم العظيم وحده والامة التى عندها مثل هذا الفكر العقيم لايمكن أن تنجح أو تسود

عاد عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على مافعله أبو المهاجر فاعتذر اليه ووعده باعادته الى عمله وتمادي الامر حتى توفي معاوية وسنبين لكم فى خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد الى عمله

البيعة ليزيد بولاية العهد

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته فانه دخل على يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم وانما بقى أبناؤهم وانت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى مايمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال أو ترى ذلك يتم قال نعم . فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فاحضر معاوية المغيرة وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لى بذلك قال أ كفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع الى عملك وتحدث مع من تثق به فى ذلك وترى ونرى

فسار المغيرة الى الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه شيعة لبني
امية امر يزيد فاجابوا الى بيعته فأوفد منهم وفدا عليهم ابنه موسى فقدموا
علي معاوية فزينوا له بيعة يزيد فقال معاوية لاتعجلوا باظهار هذا وكونوا
على رأيكم فرجعوا وقوي عزم معاوية علي البيعة ليزيد . فأرسل الى زياد
يستشيره فأحضر زياد عبيد بن كعب النميري وقال ان لكل مستشير
ثقة ولكل سر مستودعاً وان الناس قدابدع بهم خصلتان اذاعة السر واخراج
النصيحة الى غير أهلها وليس موضوع السر الا أحد رجلين رجل آخرة
يرجوا ثوابها ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه وقد خبرتهما
عنك وقد دعوتك لامر اتهمت عليه بطون الصحف ان أمير المؤمنين
كتب الى يستشيرني في البيعة ليزيد وانه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم
وعلاقة امر الاسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ماقد أولع
به من الصيد فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالامر
فأحري لك ان يتم لك ولا تعجل فان دركا في تأخير خير من فوت في عجلة
فقال له عبيد أفلا غير هذا قال وما هو قال لاتفسد على معاوية رأيه
ولا تبغض اليه ابنه وألقي انا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك
يستشيرك في البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه
وانك ترى له ترك ماينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ماتريد فتكون
قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من امر الامة فقال زياد لقد رميت
الامر بحجره اشخص على بركة الله فان اصبت فمما لاينكر وان يكن خطأ فغير
مستغش وتقول بما تري ويقضي الله بغيب مايعلم فقدم على يزيد فذكر ذلك له فكف

عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معه الى معاوية يشير بالتؤدة وان لا يعجل فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب الى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له انى قد كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الامة من بعدي وقد رأيت أن اتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت أن اقطع أمراً دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم واعلمنى بالذى يردون عليك فقام مروان فى الناس فأخبرهم فقال الناس أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو فكتب مروان الى معاوية بذلك فاعاد اليه الجواب يذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال ان أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد : فقام عبد الرحمن بن أبى بكر وقال ما الخيار اردتم لامة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير فكتب مروان الى معاوية بذلك

وكان معاوية قد كتب الى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وان يوفدوا اليه الوفود من الامصار فكان فيمن اتاه محمد بن عمر بن حزم من المدينة والاحنف بن قيس في وفد اهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية ان كل راع مسئول عن رعيته فانظر من تولى امر امة محمد ثم ان معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى لما اجتمعت الوفود عنده اني متكلم فاذا سكت فكن انت الذي تدعو الى بيعة يزيد وتحثني عليها فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم امر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها وما امر الله به من طاعة ولاة الامر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته

فقام الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أمير المؤمنين انه لابد للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والالفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيرا فى العاقبة والايام عوج رواجع والله كل يوم هو في شأن ويزيد ابن أمير المؤمنين فى حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت وهو من افضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً فوله عهدك واجعله لنا علماً بعدك ومفزعاً نلجأ اليه ونسكن فى ظله : ثم تكلم غيره بمثل كلامه فقال معاوية للاحنف بن قيس ما تقول يا أبا بحر فقال نخافكم ان صدقنا ونخاف الله ان كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فان كنت تعلمه لله وللامة رضا فلا تشاور فيه وان كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة وانما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا . كان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوسق له أكثر الناس وبايعوه فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار الي الحجاز في ألف فارس فلما دخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحه وقال من احق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما اظن قوماً بمنتهين حتي تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان أغنت النذر ثم انشد متمثلا

قد كنت حذرتك آل المصطلق ... وقلت يا عمرو أطعني وانطلق

انك ان كلفتني مالم أطق ... ساءك ماسرك مني من خلق

دونك ما استسقيته فاحس وذق

وكان أولئك النفر الثلاثة قد تركوا المدينة الى مكة فخرج معاوية الى مكة وقضي بها نسكه ثم جمعهم ثلاثتهم وكانوا قد اتفقوا على ان يكون

الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لارحامكم وحملي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فقال له ابن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهن : قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف احداً فارتضي الناس ابا بكر : قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف قال فاصنع كما صنع أبو بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم احد من ولده ولا بني ابيه قال معاوية هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال فاني احببت ان أتقدم اليكم انه قد أعذر من انذر اني كنت اخطب فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس فاحمل ذلك واصفح واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على احد منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا يبقين رجل الا على نفسه ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله واثني عليه ثم قال ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى الا عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف الى المدينة ثم الي الشام ويروي ان ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على اني ادخل

فيما تجتمع عليه الامة فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها

ونقول ان فكر معاوية فى اختيار الخليفة بعده حسن جميل وانه ما دام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع اليهم الاختيار فأحسن مايفعل هو ان يختار الخليفة ولى عهده قبل ان يموت لان ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الامة من جور امامها وقد فعل معاوية مايظهر معه أنه لم يستبد بالامر دون الامة فطلب وفود الانصار نحضروا عنده واجابوه الى طلبته من بيعة يزيد ابنه والذى ينقده التاريخ من أمره هو

(١) أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من سادة الامة الذين يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعة أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين لاجرم ان كان من نتائج ذلك تلك الحوادث المحزنة التى سنوضحها في خلافة يزيد

(٢) مما انتقده الناس انه اختار ابنه للخلافة وبذلك سن فى الاسلام سنة الملك المنحصر فى أسرة معينة بعد ان كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا ان هذه الطريقة التي سنها معاوية تدعو فى الغالب الى انتخاب غير الافضل الاليق من الامة وتجعل فى أسرة الخلافة الترف والانغماس فى الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس : أما رأينا في ذلك فان هذا الانحصار كان أمرا حتما لا بد منه لصلاح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعثهم فانه كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة واذا انضم الى ذلك اتساع المملكة

الاسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع اليهم الانتخاب فان الاختلاف لابد واقع ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش فانهم تنافسوا الامر واهلكوا الامة بينهم فلو رضي الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا لها باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين ان أعظم من ينتقد معاوية فى تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الامر فى آل على ويسوقون الخلافة فى بنيه يتركها الاب منهم للابن وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم الى غيرهم والنتيجة ان ما فعله معاوية كان أمراً لا بد منه مع الحال التي كانت عليها البلاد الاسلامية

مقارنة الحكم فى عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين

ان الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال فى عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعي تماما يأخذ كل انسان ماله ويعطى ما عليه فان تأخر فى واجب مما عليه عاقبته الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدى الميل لم تكثر بينهم الاختلافات فى الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولا يخرجه عن حقيقته التي تدعوا الناس الي التآلف والتآزر والتحاب أما في هذا العهد فان الامة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن فكانت السياسة التي حكموا

بها شديدة قاهرة حتى سهل اهراق الدماء ألا ترون الى زياد وما كان يفعله
فانه قتل ذلك الاعرابى الذي أخذ مدلجا مع اعتقاد زياد صدقه لكنه قال
ان في قتلك صلاحا للرعية . لا ننكر أن معاوية نفسه كان سهلا لينا يعفو
ويغفر ويفيض على الناس من حلمه الواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض
عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن انها تصلح القلوب وانما تخفف الالم
عن الامة تخفيفا وقتيا

ومما ننقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلى على المنابر مع
أن الرجل قد لحق بربه وانتهى أمره وكان يعلم يقينا أن هذه الاقوال مما
يهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأففون ويتذمرون ولا ندرى ما الذى حمله
على أن جعل ذلك فرضا حتما فى كل خطبة كانه ركن من أركانها لا تتم الا به

(١) من المحدثات الجميلة التى حدثت في عهد معاوية البريد ومعنى ذلك
أن تقسم الطرق منازل في كل منزلة دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة
الي البلدان المختلفة فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر
مسرعا حتى اذا وصل الي أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها
كالاول وبذلك كانت تصل الكتب الى الامراء والعمال في اسرع وقت
يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا وتسمى هذه المسافة
بريداً . وروي ياقوت فى معجم البلدان أنه انما سميت خيل البريد بهذا الاسم
لان بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءته الرسل
سألها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم
فاحضرهم الملك واراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فامر

أن تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عللهم في سيرهم فقيل بريد أي قطع فعرب فقيل خيل البريد . وقال ياقوت انه روي هذا عن بعض من لا يوثق به ولكنه صحيح في القياس والنظر

(٢) معاوية اول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين وانما اتخذه بعد أن كان ما كان من ارادة الخارجي قتله

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمئة الف درهم وكتب له بذلك الى زياد ففتح عمرو الكتاب وصير المئة مئتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه فقضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم

كان كاتب معاوية سرجون الرومي لان ديوان الشام كان لعهده بالرومية ويظهر انه كان كاتب الخراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الانصاري ثم أبو ادريس الخولاني ومعنى ذلك أنه كان قاضي الشام وكان لكل ولاية قاض خاص

بيت معاوية

تزوج (١) ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه (٢) فاختة بنت قرظة النوفلى فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ومات عبد الرحمن صغيرا (٣) نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها (٤) كنوة بنت قرظة أخته

فاختة غزا قبرس فماتت معه هناك

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق في جمادي الثانية وكان يزيد ابنه غائبا فأحضر معاوية الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المرى وأدي اليهما وصيته الى يزيد وكان فيها (يا بنى انى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الامور وذللت لك الاعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فانهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مئة الف سيف وانظر أهل الشام فليكونو بطانتك وعيبتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فاذا اصبتهم فاردد أهل الشام الي بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم واني لست أخاف أن ينازعك فى هذا الامر الا اربعة من قريش الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابى بكر فأما ابن عمر فانه رجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن على فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . واما ابن ابى بكر فان رأى اصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة الا فى النساء واللهو وأما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فان هو فعلها فظفرت به فقطعه اربا اربا واحقن دماء قومك ما استطعت )

ثم مات بدمشق لهلال رجب سنة ٦٠ ﻫ (٧ ابريل سنة ٦٨٠م) فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ان معاوية كان عود العرب وحد العرب وجد العرب قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد ألا انه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج الى يوم القيامة فمن كان يريد يشهده فعند الاولى وصلى عليه الضحاك وكان قد أرسل لخبر الى يزيد فقال فى ذلك يزيد

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا فى كتابكم ... قال الخليفة أمسي مثبتاً وجعا
ثم انبعثنا الى خوص مزممة ... نرمى الفجاج بها لا نأتلى سرعا
فمادت الارض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسه توفي على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئاً بعد طيرته ... والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودي المجد يتبعه ... كانا جميعاً فماتا قاطنين معا
أغر أبلج يستسقي الغمام به ... لو قارع الناس عن احسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره فصلى عليه

## المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الاول — كيفية انتخابه — مقتل الحسين — وقعة الحيرة — حصا
مكة — الفتوح فى عهد يزيد — بيته ووفاته

### ﴿يزيد الاول﴾

هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وأمه ميسون بنت بحدل و
سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فتربى فى حجر الامارة و
شب فى خلافة أبيه كان يرشحه للامارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائ
وأرسله في الجيش الذى غزا القسطنطينية لاول مرة وكان مغرما بالص
وهذا مما أخذه عليه الناس اذذاك لانهم لم يكونوا فارقوا البداوة العرب
والجد الاسلامي بعد

كيفية انتخابه

عهد اليه ابوه بالخلافة من بعده بعد ان استشار فى ذلك وفود الامص
فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة الا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسي
ابن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر : فلما توفى معاوية لم يك
ليزيدهم الا مبايعتهم له فأرسل الى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أم
المدينة يقول له ( أما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمرو بن الزبير أخ
ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام ) فلما أتاه نعي معاوية فظع به و
عليه فأرسل إلى هؤلاء النفر فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيع

واخبره بموت معاوية استرجع وترحم علي معاوية وقال أما البيعة فان مثلى لايباع سراً ولا يجتزي بها مني سرا فاذا خرجت الى النـاس ودعوتهم الى البيعـة ودعوتنا معهم كان الامر واحـدا فقال له الوليـد وكان يحب العافية انصرف فانصرف وأما ابن الزبير فترك المدينـة وذهب إلى مكة وقال انى عائذ بالبيت ولم يكن يصلى بصلاتهم ولا يفيض فى الحج بافاضـتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسـين بن على وأخـذ معه بنيه واخوته وبني أخيه الا محمد بن الحنفية فانه ابى الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه

أما ابن عمر فانه قال اذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لايتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس

حادثة الحسين

جاء الحسـين مكة فـكان أهلها يختلفون اليـه ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قدلزم جانب الـكعبة فهو قائم يصـلى عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيـه ولايزال يشير عليـه بالرأى وهو أثقـل خلق الله على ابن الزبير لان اهـل الحجاز لايبايعونه مادام الحسين بالبلد : لمـا بلغ أهل الـكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة في منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعي واتفقوا أن يكتبوا الى الحسين يسـتقدمونه ليبايعوه فـكتبوا اليـه نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الـكتب عنـده كتب اليهم (أما بعد فقـد فهمت كل الذى اقتصـصتم وقـد بعثت اليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهـل بيتى

مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب الى بحالكم وأمركم ورأيكم فان كتب إلى انه قد اجتمع رأي ملئكم وذوى الحجى منكم على مثل ماقدمت به رسلكم أقدم اليكم وشيكا ان شاءالله فلعمرى ماالامام الا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام) ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطف فان رأى الناس مجتمعين عجل اليه بذلك فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان ابن بشير الانصارى فأقبلت اليه الشيعة تختلف اليه: ولما بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال أما بعد فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال وكان النعمان حليما ناسكا يحب العافية. ثم قال انى لاأقاتل الا من يقاتلنى ولاأثب على من لايثب على ولاأنبه نائمكم ولاأتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم ان أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم امامكم فوالله الذي لااله الاهو لاضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى ولو لم يكن لى منكم ناصر ولامعين أما انى أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يرديه الباطل فقام اليه رجل من شيعة بنى أمية وقال له انه لايصلح ماترى الا الغشم ان هذا الذى انت عليه رأى المستضعفين فقال أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحب الى من أن أكون من الاعزين فى معصية الله ونزل: فكتب ذلك الرجل الى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول ان كان لك بالكوفة حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك فان النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد

الله بن زياد أمير البصرة فجعله والى المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد الى الكوفة وخطب في أهلها فقال ( أما بعد فان أمير المؤمنين ولانى مصركم وثغركم وفيئكم وامرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم امره ومنفذ فيكم عهده فانا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالاخ الشفيق وسيفى وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدى فليبق امرؤ على نفسه ) ثم نزل فاخذ العرفاء والناس أخذا شديدا وقال اكتبوا الى الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم الى برىء ومن لم يكتب لنا احداً فليضمن لنا فى ما في عرافته ان لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد فى عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا صلب على باب داره وألقيت تلك العرافة من العطاء وسير الي موضع بعمان الزارة

سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهانىء بن عروة المرادى فاجاره متكرها وصارت الشيعة تختلف اليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هانيء فاستقدم هانئا فقدم عليه ولما دنا منه قال عبيد الله

أريد حياته ويريد قتلي　　　عذيرك من خليلك من مراد

فقال هانيء وماذاك فقال يا هانيء ماهذه الامور التي تربص فى دارك لامير المؤمنين والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفي لك وقد اراد هانيء أن ينكر فلم يجد الى الانكار سبيلا

فطلب منه ابن زياد أن يسلم اليه مسلماً فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن
زياد به فضرب وحبسه بالقصر . ولما علم بذلك مسلم نادى في أصحابه
بشعارهم يامنصور وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً وحوله فى الدور أربعة آلاف
فاجتمع اليه ناس كثير فعباهم وأقبل الى القصر فأحاط به وامتلأ المسجد
والسوق من الناس ولم يكن مع ابن زياد الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون
رجلا من الاشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا
كثير بن شهاب الحارثي وامره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس
عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الاشعث ان يخرج فيمن أطاعه من
كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الاشراف
وأبقى عنده بعضهم استئناساً بهم فخرج الذين أمروا بالخروج يخذلون الناس
وأشرف الذين بالقصر على الناس فمنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية
ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتى لم يبق مع ابن عقيل فى المسجد
الا ثلاثون رجلا فحار فى أمره اين يذهب واختفى فعلم ابن زياد بمكان اختفائه
فأرسل اليه محمد بن الاشعث فجاء به فقال مسلم لابن الاشعث انى أراك تعجز
عن اماني فهل تستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالى ويقول
له عنى ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فانهم اصحاب ابيه الذين كان يتمنى
فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الاشعث : ولما جىء بمسلم الى ابن زياد قتله
ثم قتل بعده هانىء بن عروة المرادى

أما أمر الحسين فانه لما عزم على المسير الى الكوفة جاءه عمر بن

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني انك تريد العراق واني مشفق
عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الاموال وانما الناس عبيد
الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب
اليه ممن يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً. وجاءه ابن عباس فقال له قد
أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرني ما أنت صانع. فقال قد أجمعت
المسير في أحد يومي هذين فقال له ابن عباس أعيذك بالله من ذلك خبرني
رحمك الله أتسير الى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فان كانوا
فعلوا ذلك فسر اليهم وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر
لهم وعماله تجبي بلادهم فانما دعوك الى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك
ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك
فقال الحسين فاني أستخير والله وأنظر ما يكون: ثم جاءه ابن عباس ثاني
يوم فقال يا ابن عم اني أتصبر ولا أصبر اني أتخوف عليك في هذا الوجه
الهلاك والاستئصال ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد
فانك سيد أهل الحجاز فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب
اليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم اقدم عليهم فان أبيت الا أن تخرج فسر الى
اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ولابيك بها شيعة وأنت
عن الناس في عزلة فتكتب الى الناس وترسل وتبث دعاتك فاني أرجو أن
يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية. فلم يسمع منه الحسين فقال له ابن عباس
فان كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فاني لخائف أن تقتل كما قتل
عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه فلم يفد كلامه شيئاً: ثم سار بأهله وأولاده

فقابله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله الحسين عن خبر الناس فقال له قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء : ثم جاءه كتاب من عبد الله بن جعفر يقسم عليه فيه بالله الاما انصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيه الامان له ويسأله الرجوع فأبى وتم على وجهه فقابله عبد الله بن مطيع ولما علم بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الاسلام أن تنتهك! أنشدك الله فى حرمة قريش أنشدك الله فى حرمة العرب فوالله لئن طلبت ما فى أيدى بنى أميه ليقتلنك ولئن قتلوك لايهابون بعدك أحداً والله انها لحرمة الاسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبنى أمية فابي الا أن يمضي

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك الله الاما جعت من مكانك فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثارنا أو نذوق كما ذاق مسلم فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال أنشدك الله الاما انصرفت فوالله ما تقدم الا على الاسنة وحد السيوف ان هؤلاء الذين بعثوا اليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الاشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأيا فأما على هذه الحال التى تذكر فلا أري أن تفعل فأبى أن يرجع : ولما ترك شراف قابلته خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي فقال لهم الحسين أيها الناس انها معذرة الى الله واليكم إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا امام لعل الله أن يجعلنا بك علي الهدى فقد جئتكم فان تعطوني

ماأطمئن اليه من عهودكم أقدم مصركم وان لم تفعلوا أو كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذى أقبلت منه فلم يجيبوه بشيء فى ذلك ثم قال له الحر انا أمرنا اذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتي نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أدنى اليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك فقال الحسين ثكلتك أمك ماتريد فقال له أما والله لو غيرك من العرب يقولها ماتركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ولكني والله مالى الى ذكر أمك من سبيل الا بأحسن مايقدر عليه . ثم صار الحر يراقبه حتى لايتمكن من الانصراف الي المدينة فسار الحسين يتجه الى الشمال حتي وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما قدم أرسل الى الحسين رسولا يسأله ماالذى جاء به فقال الحسين كتب الى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما اذ كرهوني فاني أنصرف عنهم فكتب عمر الى ابن زياد بذلك فقال :

الآن اذ عرضت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب الى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فاذا فعل ذلك رأينا رأينا وأن يمنعه هو ومن معه الماء : وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوه يرجع الى المكان الذى خرج منه وليس بصحيح انه عرض عليهم أن يضع يده فى يد يزيد فلم يقبلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم بن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما يكن من الامر فلم يكن الا القتال وفى عاشر المحرم سنة ٦١ انتشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذى لم يكن فيه أحد من أهل

الشام وهذه الفئة القليلة الحسين ومن معه وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلا ولم يكن الا قليل وقت حتي قتل الحسين وسائر من معه وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلا وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها الى ابن زياد ومعها بنات الحسين واخواته ومعهم على بن الحسين صغير مريض فامر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان الى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أرضي من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله بن سمية أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ثم قال لمن عنده أتدرون من أين أتى هذا قال أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الامر فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحاج أبى وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمه خير من أمي فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي وأما قوله جده خير من جدى فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ولكنه انما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) ثم أمر بالنساء فادخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد الا أتتهن وأقمن المأتم وسألهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن ثم قرب اليه على بن الحسين وجهزهن بعد ذلك الى المدينة وقال لعلى يا بنى كاتبنى بكل حاجة تكون لك

بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التى اثارها عدم الاناة والتبصر في العواقب فان الحسين بن على رمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط وظن بأهل العراق خيراً وأهم صحاب أبيه فقد كان أبوه خيراً منه

وا كثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الاعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمني فى آخر حياته الخلاص منهم : أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان فى العراق عماله وأمراؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار الى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذى حاربه هل كان الا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بانهم شيعة علي بن أبي طالب وعلى الجملة فان الحسين اخطأ خطأ عظيما في خروجه هذا الذي جر على الامة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها الى يومنا هذا وقد اكثر الناس من الكتابة فى هذه الحادثة لا يريدون بذلك الا ان تشتعل النيران فى القلوب فيشتد تباعدها : غاية مافى الامر ان الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين مايشتهى وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين من يبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوه تأجيجا وقد ذهب الجميع الى ربهم يحاسبهم على مافعلوا : والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهى انه لا ينبغى لمن يريد عظائم الامور أن يسير اليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه الا اذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما انه لا بد أن تكون هناك اسباب حقيقية لمصلحة الامة بان يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله أما الحسين فانه خالف علي يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند اظهار هذا الخلاف

وقعة الحرة

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة
هى فى نظرنا أدهى واشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه
وسلم ومهبط الوحي الالهى وهى التى حرمها عليه السلام كما حرم ابراهيم
مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيها القتال فانتهاك حرمة
احداهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبري فكيف بانتهاك حرمتهما
معاً فى سنة واحدة

أما حادثة المدينة فانه فى عهد امارة عثمان بن محمد أبى سفيان عليها
أوفد الى يزيد بدمشق وفداً من أشراف أهل المدينة فيهم عبد الله بن
حنظلة الانصارى وعبد الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى
والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرمهم وأحسن اليهم وأعظم
جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلا عابداً سيداً مئة
ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فاعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر
ابن الزبير مئة الف فلما قدموا الى المدينة قاموا فى أهلها فأظهروا شتم يزيد
وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبد الله بن حنظلة
ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الانصاري الى المدينة لينصح
قومه فجاءهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم انكم لا طاقة لكم
باهل الشام فلم تجد نصيحته نفعا فعاد عنهم وحينذاك قام هؤلاء الثائرون
وحصروا من فى المدينة من بنى أمية فى دار مروان فكتبوا الى يزيد يستغيثون
به فلما جاءه كتابهم قال متمثلا

لقد بدلوا الحكم الذي في سجيتي　　فبدلت قومي غلظة بليان

وحينذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المري وكان عدة من تجهز معه اثنا عشر ألفاً وقال له يزيد ادع القوم ثلاثاً فان اجابوك والا فقاتلهم فان ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر على بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فانه لم يدخل مع الناس وانه قد أتاني كتابه . سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا في حصار بني أمية ولم يفكوا عنهم الحصار الا بعد أن عاهدوهم ان لا يبغوهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدواً وبذلك جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلما بوادي القرى فدعا بعمرو بن عثمان وقال له ما وراءك فقال لا استطيع فقد أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدواً فانتهره وقال والله لولا انك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل عليه عبد الملك بن مروان فقال هات ما عندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فاذا انتهيت الى ذي نخلة نزلت فاستظل الناس في ظله وأكلوا من تمره فاذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ثم تستقبل القوم فاذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم مالا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم . ثم دخل عليه مروان فقال

ايه فقال مروان أليس قد دخل عليك عبد الملك قال بلى وأى رجل عبد الملك قلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيها به قال مروان اذا القيت عبد الملك فقد لقيتني.

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال ان أمير المؤمنين يزعم انكم الاصل وانى اكره اراقة دمائكم واني أؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت الى هذا المحل الذى بمكة وان ابيتم كنا قد أعذرنا اليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديدا جداً ولكن انتهي بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون المتاع والاموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على انهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم واهليهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتى بعلى بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الوقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٦٣

وأن الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الامصار الاسلامية لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الامة على الدخول فى أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الامصار ولم يكن معهم في هذا الامر أحد من الجنود الاسلامية . انهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة فانه كان من الممكن أن يأخذهم

بالحصار فان المدينة لا تحتمل الحصار كثيراً لأنه ليس فيها ما يمون أهلها وماؤها يجيء من الخارج فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين وربما يقال أن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لانه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين : بعد الانتصار لم يكن هناك معنى لاباحة ذلك الحرم ثلاثاً احتراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا وانا نعوذ بالله من الرءوس التي اذا هاجت لا تنظر في عاقبة ولا تفكر فى مستقبل

## حصار مكة

وثالثة الحوادث التي معظم تبعتها على عبد الله بن الزبير حصار مكة فان مسلما لما انتهي من أمر المدينة سار قاصداً مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة روح بن زنباع الجذامي وقد أدركت المنية مسلماً بالشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نمير كما أمر يزيد فسار بالجند الى مكة فقدمها لاربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفى الخارجى لمنع البيت : فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام فحاربهم حرباً انكشف فيها أصحابه فعاد راجعاً الى مكة فأقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى اذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الاول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فوقف القتال : هذه ثلاث حوادث كبرى داخلية حصلت فى أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروهاً حتي استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث ومن آثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعتها بل ان الذى يتحمله جزء

صغير منها لأنه خليفة بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل وانما الذي عليه تلك الشدة التي أجرتها جنوده بعد أن تم لهم النصر

## الفتوح فى عهد يزيد

استعمل يزيد عقبة بن نافع على أفريقية كما وعده معاوية بذلك فسار اليها ولما وصل الى القيروان قبض على ابي المهاجر وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذرارى والاموال ثم سار فى عسكر عظيم حتي دخل مدينة باغاية وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديداً وانهزموا عنه ودخل المنهزمون المدينة فحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار الي بلاد الزاب وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقري كثير فقصد مدينتها العظمي واسمها أربة فامتنع من بها من الروم فقاتلتهم الجنود الاسلامية حتى هزمتهم ثم رحل الى تاهرت : فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا فى جمع كثير واشتد الامر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق رومى اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الادنى وهو مغرب طنجة فلقيته البربر فى جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة ثم سار نحو السوس الاقصي وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات فقال يارب لولا

هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفا منه ولما وصل الي مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار الى تهوذا لينظر اليها فى نفر يسير فلما رآه الروم فى قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه كان فى الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم فى أيام أبى المهاجر فلما جاء عقبة وأساء الى أبى المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل فاني أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع عقبة راسلوا كسيلة فى أن ينضم اليهم فقبل وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة الى كسيلة فتنحي هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبو المهاجر وكان فى القيروان قيس بن زهير البلوي خليفة عليها فأراد القتال فلم يطعه الجيش فاضطر الى مبارحة القيروان والمسير الي برقة والمقام بها أما كسيلة فانه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الانفال والذرارى من المسلمين واستولى على أفريقية وسنبين ما كان من أمره بعد

وفاة يزيد

لاربع عشرة خلت من شهر ربيع الاول سنة ٦٤ ( ١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣ ) توفى يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام وسنه تسع وثلاثون سنة ومدة

خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً

بيت يزيد

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخال
ويكنى أبا هاشم وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبد ال
وكان أرمى العرب وكان له من الاولاد عبد الله الاصغر وعمر وأبو بكر وعت
وحرب وعبد الرحمن لامهات أولاد شتي

المحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثانى — عبد الله بن الزبير — حال الشام — مروان الاول — عب
الملك — تغلبه على ابن الزبير وقتله — الحجاج بالعراق

٣ ﴿ معاوية الثانى — عبد الله بن الزبير ﴾

بعد موت يزيد كانت بيعتان احداهما بالشام لمعاوية بن يزيد والثا
بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير

فأما معاوية فكانت سنه احدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلا
بعد موت أبيه الا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع النا
فحمد الله واثنى عليه ثم قال (أما بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثـ
عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشور
فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حـ
مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة

ير من نفسه القدرة على لم شعثها واصلاح أمرها

أما ابن الزبير فان يزيد مات وحضين بن نمير محاصر له وقد اشتد الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناداه علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم فلم يصدقوه ولما وصل الخبر الحضين بعث الى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له أنت أحق بهذا الامر هلم فلنبايعك ثم اخرج معنا الى الشام فان هذا الجند الذين معى هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لايختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له انا لاأهدر الدماء والله لاأرضي أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحضين يكلمه سراً وهو يجهر ويقول والله لاأفعل فقال له الحضين قد كنت أظن لك رأياً وأنا أكلمك سرا وتكلمنى جهرا وأدعوك الى الخلافة وأنت لاتريد الا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل الى المدينة فالشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد

هذا حال الشام لاامام فيه والحجاز فيه ابن الزبير . أما العراق فان عبيد الله بن زياد لما بلغه نعى يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال ياأهل البصرة انمهاجرنا اليكم وذارنا فيكم ومولدى فيكم ولقدوليتكم ومايحصي ديوان مقاتلكم الاسبعين ألفا ولقد أحصى اليوم مئة ألف وماكان يحصى ديوان عمالكم الاتسعين ألفا ولقد أحصى اليوم مئة وأربعين ألفا وماتركت لكم قاطبة من أخافه عليكم الاوهو فى سجنكم وان يزيد قد توفي وقد اختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناء وأغني عن الناس وأوسعهم بلاداً فاختاروا لأنفسكم رجلا

ترضونه لدينكم وجماعتكم فانا أول راض من رضيتموه فان اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون وان كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضوا حاجتكم فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغني الناس عنكم : فقالوا له قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحداً أقوي عليها منك فهلم فلنبايعك فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان و يقولون أيظن ابن مرجانة أنا ننقاد له في الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه : ولما علم أهل البصرة بإبائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه ودعا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير فأجابه الى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحرث بن قيس الأزدي ثم بمسعود بن عمرو سيد الازد فأجاراه حتى هرب الى الشام : واختار أهل البصرة واليا عليهم عبد الله بن الحرث بن نوفل الملقب ببة فبايعوه وأقبلوا به إلى دار الامارة وذلك أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أميراً وكتب أهل المصرين الى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده : وكذلك دخل في بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق الا الشام

## حال الشام

كان رأس بني أمية بالشام مروان بن الحكم : وكان أمير دمشق الضحاك ابن قيس وكان هواه في ابن الزبير يدعو له وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابي : وهواهم كلهم في ابن الزبير يدعون له وكان أمير فلسطين حسان بن مالك الكلبي وهواه في بني أمية وقد بايعه على الدعوة

لهم أهل الأردن على شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبد الله وخالداً ابني يزيد لانهم قالوا انا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام فكتب حسان الى الضحاك بن قيس كتاباً يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده ويذم ابن الزبير وانه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتاباً آخر سلمه لرسوله وقال له ان قرأ الضحاك كتابي على الناس والا فقم واقرأه عليهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشائرهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين في دمشق فريقين فقيس تدعو الى ابن الزبير وكلب تدعو إلى بني أمية

خرج الضحاك بجموعه فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية فتشاوروا فيمن يلي أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيراً على تولية مروان بن الحكم فبايعوه لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجابية الى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة في مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها في موطن قط وكانت الوقعة في المحرم سنة ٦٥ : ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هارباً فاتبعه جماعة من أهلها فقتلوه : ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت اليه قيس وقد صحبه في هزيمته شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان يطلبه فقال الشابان لزفر

أنج بنفسك فانا نحن نقتل فمضي وتركهما فقتلا وقال زفر في ذلك

أريني سلاحي لا أبالك انني | اري الحرب لا تزداد الا تماديا
---|---
أتاني عن مروان بالغيب أنه | مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الارض مهرب | اذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني ان تغيبت غافلا | ولا تفرحوا ان جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعي على دمن الثرى | وتبقي حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا | وتترك قتلى راهط هى ماهيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط | لحسان صدعاً بيناً متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا | ومقتل همام أمني الامانيا
فلم تر مني نبوة قبل هذه | فراري وتركي صاحبي ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا أري | من الناس الا من على ولاليا
أيذهب يوم واحد ان أسأته | بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا | وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعرى هل تصيبن غارتي | تنوخاً وحيى طيىء من شفائيا

ولما تم الامر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتتحها وبايعه أهلها ثم عاد الى دمشق فأقام بها

لم تطل مدة مروان فى سلطانه فانه توفي فى رمضان سنة ٦٥ وكان قد عهد بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

ترجمة مروان

هو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكنانى ولد فى السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان في عهد عثمان بن عفان كاتبا له ومدبراً وولي لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب الى ابن الزبير فيبايعه لولا عبد الله بن زياد فانه أشار عليه ان يطلب الخلافة لنفسه لانه شيخ بنى أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الامر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره فى الشام ومصر لم يتجاوزهما حتي مات وولى أمر الامة من بعده ابنه

٥ (عبد الملك)

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية ولما شب كان عاقلا حازماً أديباً لبيباً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي ماذاكرت أحداً الا وجدت لى الفضل عليه الا عبد الملك فانى ماذاكرته حديثا الا زادنى فيه ولا شعراً الا زادنى فيه

ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت الحال فى البلاد الاسلامية على غاية الاضطراب فان الحجاز به عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته وشيعة تدعو الي آل البيت وخوارج وهم من عرفتم حديثهم قبل

فتلقي الامر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له واجتمعت الكلمة عليه

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبيد الله بن زياد الى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقر قيسيا واستعمله على كل ما يفتحه فاذا فرغ من الجزيرة توجه الى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير الى العراق فسار حتي اذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا انفسهم التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين ابن على ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب الا اذا قاموا للمطالبة بثاره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعي فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سراً الى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥هـ فخرجوا حتى اذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبد الملك قتل سليمان قام خطيباً فى أهل الشام فقال ان الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان ابن صرد ألا وان السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريف وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد الازدى وعبد الله بن وال البكرى ولم يبق بعدهم من عنده امتناع

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبى عبيد

الثقفى وكان وثوبه بها رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٦ فأخرج عنها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعماً أنه هو الذى أرسله للاخذ بثار الحسين ولقبه بالامام المهدي وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة المهدي فى عالم الوجود كان يود أن يتبعه على رأيه إبراهيم ابن الاشتر لقوة بطشه وسمو شرفه فأرسل اليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولي الامر فقالوا له ان المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه اليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية الى ابن الاشتر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدي الى إبراهيم ابن مالك الاشتر) فقال ابراهيم قد كتبت الى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب الى فلم يكتب الى الا باسمه واسم ابيه قال المختار ذلك زمان وهذا زمان قال ابن الاشتر فمن يعلم أن هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر ابراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه واتفقوا على الوثوب فى التاريخ الذي بيناه ولما حان الموعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون يالثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ثم بعث العمال الى أمصار الكوفة وكان من أهم الامور لديه انتخاب جيش يوجهه الى قتال ابن زياد الذى أرسله عبد الملك لافتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلا ذريعاً ومنهم عمر بن سعد وغيره ممن كان في ذلك البعث ثم دخلت فى بيعته البصرة

وكان عمل المختار سببا لتغير ابن الزبير على محمد ابن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبايعوه فابوا عليه فحبسهم فأرسل اليهم المختار من خلصهم من سجنه ثم خرج الى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بداله فعاد الى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب الى الطائف وأقام بها

ثم ان المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم ابراهيم بن الاشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الاشتر وقتل عبيد الله بن زياد بعد ان ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الاشتر العمال الى البلاد الجزرية

بعد أن تم الامر للمختار ولى ابن الزبير اخاه مصعبا على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه (طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين) — وأشار نحو الشام — (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض — وأشار نحو الحجاز — (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة — وقال يا أهل البصرة بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبت نفسي بالجزار

وجاءه وهو بالبصرة أشراف من اهل الكوفة وهم الذين ليسوا

راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه فجند مصعب جنداً عظيما قاده بنفسه ومعه أشراف المصريين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فانتدب له جنداً قابل مصعبا عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقتلا فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً ومن غريب ما وقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة

| | |
|---|---|
| ان من أعجب العجائب عندي | قتل بيضاء حرة عطبول |
| قتلت هكذا على غير جرم | ان لله درها من قتيل |
| كتب القتل والقتال علينا | وعلى الغانيات جر الذيول |

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير عزة لكأنه يشاهدنا حيث يقول

| | |
|---|---|
| اذا ما أراد الغزو لم يثن همه | حصان عليها عقد در يزينها |
| نهته فلما لم تر النهي عاقه | بكت وبكى مما عناها قطينها |

ثم سار عبد الملك الى العراق فبلغ خبره مصعبا فتجهز له وجعل على مقدمته ابراهيم ابن الاشتر فتقابل الجيشان بمسكن وكان كثير من أهل العراق كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد

وان الأُولى بالطف من آل هاشم ... تآسوا فسنوا للكرام التأسيا

ومازال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء وولى على المصرين عمالا من قبله . قال بعض الشعراء في مقتل مصعب

حمى أنفه أن يقبل الضيم مصعب ... فمات كريماً لم تذم خلائقه

ولو شاء أعطي الضيم من رام هضمه ... فعاش ملوماً في الرجال طرائقه

ولكن مضي والبرق يبرق خاله ... يشاوره مراً ومراً يعانقه

فولى كريماً لم تنله مذمة ... ولم يك وغداً تطيبه نمارته

بذلك لم يبق خارجاً عن سلطان عبد الملك الا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جنداً الى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبد الله بن الزبير فسار اليه في جمادى الاولى سنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ولم يزل الامر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان الى الحجاج وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخبيب ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه الا قليل لا يغنون عنه شيئا دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي الا اليسير ومن ليس عنده اكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وان قلت كنت على حق فلما أدهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا القتل أحسن . فقال

ياأماه أخاف انقتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني : قالت يابني أن الشاة لاتتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال هذا رأيي والذي خرجت به دائبا الى يومي هذا ماركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ومادعاني الى الخروج الا الغضب لله وأن تستحل حرماته ولكني أحببت أن اعلم رأيك فقد زدتني بصيرة فانظري ياأماه فاني مقتول يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الامر الى الله فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر ولا عملا بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم أومعاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي أللهم لاأقول هذا تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لامي حتي تسلو عني فقالت أمه لارجو أن يكون عزائي فيك جميلا ان تقدمتني احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك اخرج حتي أنظر الي مايصير اليه أمرك فقال جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي قالت لاأدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج فقاتل حتى قتل وكانت سنه ثلاثاً وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لانه بويع له سنة ٦٤ وبقتل ابن الزبير صفا الامر لعبد الملك في جميع الامصار الاسلامية واجتمعت عليه الكلمة وبقي الحجاج والياً علي مكة والمدينة حتى سنة ٧٥ وفيها عزله عبد الملك عنهما وولاه العراقين فسار الى الكوفة في اثني عشر راكبا على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء فاجتمع اليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت حتى أراد بعضهم أن

يحصبه ثم كسف اللثام عن وجهه وقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

ياأهل الكوفة انى لارى رءوساً قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها

وكاني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحي ثم قال

هذا أوان الشد فاشتدي زيم (١) قد لفها الليـل بسواق حطم (٢)

ليس براعي إبـل ولا غنم ولا بجزار على ظهـر وضم (٣)

ثم قال

قد لفها الليل بعصلبي (٤) أروع (٥) خراج من الدوى (٦)

مهاجر ليس بأعرابي

وقال

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد (٧) مثـل ذراع البكر أو أشـد

لا بد مما ليس منه بد

اني والله ياأهل العراق ما يقعقع لى بالشنان (٨) ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقـد فررت عن ذكاء (٩) وفتشت عن تجربة وان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم (١٠) عيـدانها فوجـدني

---

(١) يعنى فرساً او ناقة (٢) الحطم الذى لا يبقى من السير شيئاً (٣) الوضم كل ماقطع عليه اللحم (٤) الشديد (٥) ذكى (٦) الصحراء الواسعة التي تسمع بها دويا بالليـل ويريد بها الغماء الشديدة (٧) شديد (٨) واحدها شن وهو الجلد اليابس فاذا ضرب به نفرت الابل فضرب ذلك مثلا لنفسه (٩) الذكاء حـدة القلب (١٠) مضـغها لينظر ايها اصلب

أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي لانكم طالما أوضعتم (١) فى الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لاحزمنكم حزم السلمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل فانكم لكأهل قرية (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) واني والله ما أقول الا وفيت ولا أهم الا أمضيت ولا أخلق الا فريت واذ أمير المؤمنين أمرني باعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وانى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا ضربت عنقه : ياغلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين الي من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئا فقال الحجاج اكفف ياغلام ثم أقبل علي الناس فقال أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا هذا أدب ابن نهية (٢) أما والله لاؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن اقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ الى قوله سلام عليكم لم يبق أحد فى المسجد الا قال على أمير المؤمنين السلام . ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتي أتاه شيخ يرعش كبراً فقال أيها الامير انى من الضعف على ماترى ولى ابن هو أقوى على الاسفار منى فتقبله بدلا عنى فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتدري من هذا أيها الامير قال لا قال هذا عمير بن ضابيء البرجمى الذى يقول أبوه :

---

(١) الايضاع ضرب من السير (٢) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج

همممت ولم أفعل وكدت وليتني      تركت على عثمان تبكي حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما رد قال أيها الشيخ هلا بعثت الى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ان في قتلك أيها الشيخ صلاحاً للمسلمين ياحرسي اضرب عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الاسدي

تجهز فاما أن تزور ابن ضابيء      عميراً واما أن تزور المهلبا

هما خطتا خسف نجاؤك منهما      ركوبك حوليا من الثلج أشهبا

فاضحى ولو كانت خراسان دونه      رآها مكان السوق أوهي أقربا

من هذه الخطبة وما تلاها تتبين خطة الحجاج التى أراد أن يسوس بها أهل العراق وهي خطة العسف والجور التى قدمنا أنها لا تصلح أمة اصلاحاً حقيقيا أبداً وانما تضع على المرجل غطاء لا يلبث البخار أن يقتلعه ويطير به وتتبين حال أهل العراق وسكونهم الى هذه الذلة بجيئهم الحجاج فى بضعة عشر راكباً وفيهم الاشراف والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليه قولا ويوبخهم علي ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فيظهر مما سنقصه عليكم أن هذا الخضوع وقتى

وبعد ذلك ذهب الى البصرة فخطب فيها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فاتى برجل يشكرى فقال أيها الامير ان بى فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرني وهذا عطائى مردود فى بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففزع لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى تداركوا على العارض بقنطرة رامهرمز وخرج

الحجاج حتي نزل رستقاباذ فى أول شعبان سنة ٧٥ ومعه وجوه أهل البصرة
وكان بينه وبين المهلب ١٨ فرسخا فقام فى الناس فقال ان الزيادة التى زادكم
ابن الزبير في أعطياتكم لست أجيزها فقام اليه عبد الله بن الجار ود العبدى
فقال انها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك
أثبتها لنا فكذبه وتوعده فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس فقاتله
الحجاج حتي قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برءوسهم الى المهلب وهو
يقاتل الخوارج وانصرف الى البصرة

فى سنة ٧٩ ولى الحجاج عبيد الله بن أبى بكرة سجستان فغزا رتبيل وقد
كان مصالحاً وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجاً وربما امتنع فلم يفعل
فبعث الحجاج الى ابن أبى بكرة يأمره بغزوه فتوغلوا في بلاده فأصيبوا وهلك
معظمهم ونجا أقلهم فرأى الحجاج أن يجهز اليهم جنداً كثيفا فجهز عشرين
ألفاً من البصرة ومثلهم من الكوفة وجد في ذلك وشمر وأعطي الناس
أعطياتهم كملا وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض الناس
ولا يري رجلا تذكر منه شجاعة الا أحسن معونته ولما استتب أمر ذينك
الجندين ولى عليهم عبد الرحمن بن الاشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد
منبرها وقال أيها الناس ان الامير الحجاج ولاني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم
الذى استباح بلادكم وأباد أخياركم فاياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه
العقوبة اخرجوا الى معسكركم فعسكروا به مع الناس فعسكر الناس في معسكرهم
ووضعت لهم الاسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتي دخل
في بلاد رتبيل وصار كلما حوى بلداً بعث اليه عاملا وبعث معه أعواناً ووضع البرد

فيما بين كل بلد وبلد وجعل الارصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل
مكان مخوف حتي اذا حاز من أرضه أرضا عظيمة وملأ يديه من الغنائم حبس
الناس عن الوغول فى أرض رتبيل وقال نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم
حتى نجبيها ونعرفها ويجترىء المسلمون على طرقها ثم نتعاطى في العام المقبل
ماوراءها ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من ارضهم حتى نقاتلهم آخر
ذلك على كنوزهم وذراريهم وفى أقصي بلادهم وممتنع حصونهم ثم لا نزايل
بلادهم حتى يهلكهم الله وكتب الى الحجاج بما كانو برأيه فكتب اليه الحجاج
اما بعد فان كتابك أتانى وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرىء يحب
الهدنة ويستريح الى الموادعة قد صانع عدواً قليلا ذليلا قد اصابوا من المسلمين
جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم فى الاسلام عظيما لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن
أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخي النفس عمن أصيب
من المسلمين انى لم أعدد رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ولكن
رأيت أنه لم يحملك عليه الاضعفك والتياث رأيك فامض لما أمرتك به من
الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم وقال في
كتاب آخر ان لم تفعل فان اسحاق بن محمد أخاك أمير الناس فخله وماوليته
فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس واخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم
أيمضي أم يخالف فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج
وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبد الرحمن فبعث الي رتبيل فصالحه وسار
من سجستان الى العراق مصمما على منازلة الحجاج ونفيه من العراق وبين
يديه أعشى همدان يقول

شطت نوي من داره بالايوان ... ايوان كسرى ذى القرى والريحان

من عاشق أمسى بزابلستان ... ان ثقيفاً منهم الكذابان

كذابها الماضي وكذاب ثان ... أمكن ربي من ثقيف همدان

يوما الى الليل يسلي ما كان ... انا سمونا للكفور الفتان

حين طغى بالكفر بعد الايمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن

سار بجمع كالدبيء من قحطان ... ومن معد قد أتى ابن عدنان

بجحفل جم شديد الارنان ... فقل لحجاج ولى الشيطان

يثبت لجمع مذحج وهمدان ... فانهم ساقوه كاس الذيفان

وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض انا اذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك فخلعوه وبايعوا عبد الرحمن على كتاب الله وسنته وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين . ولما بلغ الحجاج خبره بعث الى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود اليه فهاله الامر وبادر بارسال الجنود الشامية اليه والحجاج مقيم بالبصرة فلما اجتمعت الجنود اليه سار بها حتى نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقابلتها جنود ابن الاشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الاضحي سنة ٨٧ وأتت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعاً حتى نزل الزاوية وجاءت جنود ابن الاشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله اليها في آخر ذى الحجة سنة ٨١ . ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثي على ركبتيه وانتضى نحواً من شبر من سيفه وقال لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وكان ذلك العمل مما قوي قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل

منهم عدد وافر فمضى ابن الاشعث الى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتي نزل دير قرة وخرج ابن الاشعث حتي نزل دير الجماجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار علي عبد الملك مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فان قبلوا وثابوا الى الطاعة عزله عنهم فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ليعرضا ذلك على أهل العراق فان قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وان أبوا فالحجاج أمير الناس فجاء الرسولان وعرضا ذلك علي أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع عبد الملك وحينئذ قال محمد بن مروان وعبدالله بن عبد الملك للحجاج شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فانا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين مواقع بدير الجماجم هائلة استمرت مئة يوم وكانت نهايتها فى الرابع عشر من جمادي الآخرة سنة ٨٣ فقيه هزم ابن الاشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادي المنادى من رجع فهو آمن : وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم الا اذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله وجاءه رجل فقال الحجاج انى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر. فقال أخادعى أنت عن نفسي أنا أكفر أهل الارض وأكفر من فرعون ذي الاوتاد. كان الحجاج قد أمر فنودى بعد هزيمة دير الجماجم من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو امانه فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبي فقيه العراق فذكره الحجاج يوماً فقيل له انه لحق بقتيبة فأرسل اليه يأمره أن يبعث اليه بالشعبى

فأرسله فلما اقدم سلم عليه بالامرة ثم قال أيها الامير ان الناس قد أمرونى أن أعتذر اليك بغير ما يعلم الله أنه الحق وايم الله لا أقول في هذا المقام الا حقاً والله سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وما جرت اليه أيدينا وان عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا : فقال له الحجاج أنت والله أحب الى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول مافعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف : فلما مشي قليلا ناداه ثم قال له كيف وجدت الناس يا شعبي بعدنا : فقال أصلح الله الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الاخوان ولم أجد من الامير خلفا : قال انصرف يا شعبي : وجيء اليه بأعشي همدان فقال ايه يا عدو الله انشدنى قولك بين الاشج وبين قيس باذخ : قال بل أنشدك ماقلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحه بها أولها

| | |
|---|---|
| أبي الله الا أن يتمم نوره | ويطفيء نور الفاسقين فيخمدا |
| ويظهر أهل الحق فى كل موطن | ويعدل وقع السيف من كان أصيدا |
| وينزل ذلا بالعراق وأهله | لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا |
| وما أحدثوا من بدعة وعظيمة | من القول لم تصعد الى الله مصعدا |
| وما نكثوا من بيعة بعد بيعة | اذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا |

وهي قصيدة طويلة فرجاله الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به فقتل وعلي الجملة فان فتنة ابن الاشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساؤهم فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم

أما ابن الاشعث فقد تقلبت به الاحوال وانتهى أمره إلى أن توجه الى رتبيل مستغيثاً به فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل اليه ابن الاشعث و يتوعده ان لم يفعل فأراد رتبيل أن يرسله فقتل ابن الاشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلاً من أقاربه وأرسل بالرءوس إلى الحجاج

مضي على الأمة اثنتان وعشرون سنة من سنة ٦٤ إلى سنة ٨٦ وهي مصابة بالفتن والاضطرابات فى معظم الجهات الاسلامية يقتل بعضهم بعضاً كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون لله فى أمتهم عهداً كأنهم لم يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله فى كراهة الفتن والدخول فى غمارها ولا تخلي ولاة أمرها من تبعة تلك الحوادث فانهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف و يكرهوها على الطاعة اكراهاً من غير أن يتقربوا الى قلوبها بشيء مما تحبه

من الضروري أن نقص عليكم شيئاً من أخبار الخوارج فى هذه المدة لتكون صورة الامة كلها ممثلة امام أنظاركم في ذلك العهد

## المحاضرة السادسة والثلاثون

### الخوارج

لما وردت جنود الشام الى مكة لقتال ابن الزبير فى عهد يزيد رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الازرق الحنفى أن يذهبوا إلى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم فلما جاءوه عرفوه بأنفسهم فأظهر لهم انه على رأيهم ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده فدخلوا عليه وهو متبذل فقالوا إنا جئناك لتخبرنا رأيك ما تقول في الشيخين قال خيراً قالوا فما تقول فى عثمان الذي أحمى الحمي وآوي الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبى معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين وفى الذى بعده الذى حكم فى دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفى أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو امام عادل مرضي لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن فى بيوتهن وكان لك فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة فان أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق وان أنت أبيت الا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت امامته خذلك الله وانتصر منك بأيدينا . فقال ابن الزبير ان الله أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر

الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما فى فرعون (فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تؤذوا الاحياء بسب الأموات فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجادّ فى المحاربة والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى بالشرك ذنباً وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فان كانا منهم دخلا فى غمار الناس وان لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبويه (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) وقال جل ثناؤه (وقولوا للناس حسناً) وهذا الذى دعوتم اليه أمر له ما بعده وليس يقنعكم الا التصريح والتوقيف ولعمرى ان ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا الى من عشيتكم هذه اكشف لكم ما أنا عليه

فلما كان العشى راحوا اليه فخرج اليهم وقد لبس سلاحهُ وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهم فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة الى البصرة وطائفة إلى اليمامة فكان ممن سار إلي البصرة نافع ابن الأزرق فى أصحابه وقد أمروه عليهم ثم مضي بهم الى الاهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحداً ويناظرهم الناس وطردوا عمال السلطان عنها وجبوا الفيء : ولم يزل الخوارج على رأى واحد حتى ظهر من نافع بن

الأزرق القول باكفار القعد وقتل الاطفال واستحلال الأمانة وقال الدار دار كفر الا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه وهم ككفار العرب لا نقبل منهم الا الاسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل ولما عرفت عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما فى ذلك مكاتبات وخالفه أيضاً أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعى وعبد الله بن اباض المرى : أما ابن أباض ومن نحا نحوه من النجدية فانهم كانوا يقولون ان عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنا لا نحرم مناكحتهم ومواريثهم لأن معهم التوحيد والاقرار بالكتاب والرسول فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كفاراً للنعم وأما الصفرية فقالوا ألين من هذا القول في أمر القعد حتى صار عامتهم قعداً وسموا صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبد الله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة وأما أبو بيهس فانه قال اعداؤنا كاعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الاقامة فيهم كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجري عليهم وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الاسلام وان حكمهم عند الله حكم المشركين : وبذلك افترقوا على أربع فرق أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق واباضية أصحاب ابن أباض وبيهسية أصحاب أبى بيهس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً

أقام نافع بن الازرق بالاهواز يعترض الناس ويقتل الاطفال فاذا أجيب الى المقالة جبا الخراج وفشا عماله فى السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا الى الأحنف بن قيس وقالوا ليس بيننا وبين العدو الا ليلتان وسيرتهم ماترى فقال الأحنف ان فعلهم فى مصركم ان ظفروا بكم كفعلهم فى سوادكم فجدوا فى

جهاد عدوكم فاجتمع اليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريز وكان ديناً شجاعاً فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وتضاربوا بالسيوف والعمد فقتل فى المعركة ابن عبيس ونافع ابن الازرق فولى أمر أهل البصرة الربيع بن عمر الغدانى وولى أمر الخوارج عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي فكان الرئيسان من بنى يربوع فاقتتلوا قتالاً شديداً نيفاً وعشرين ليلة قتل فى آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميرى فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعد بالآلات والدروع والجواشن حتى أمسوا وقد كره بعضهم بعضاً وملوا القتال فانهم لمتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم فى حماتهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالأهواز : ومما قاله بعض الخوارج وهو قطرى بن الفجاءة في ذلك اليوم من الشعر

لعمرك انى فى الحياة لزاهد ... وفي العيش مالم ألق أم حكيم

من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بث ولا لسقيم

لعمرك إنى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جد لئيم

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم

غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم

وكان لعبد القيس أول جدها ... وأحلافها من يحصب وسليم

وظلت شيوخ الازد فى حومة الوغى تعوم وظلنا فى الجلاد نعوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريما على فتى أغر نجيب الامهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنا له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا الامر الخوارج الا المهلب بن أبي صفرة فعرضوا عليه ذلك فرضى بشرط أن يكون له ولاية ما غلب عليه وأن يعطى من بيت المال ما يقوى به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحب فأجابوه الى ما شرط فانتخب الناس وسار اليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتي انتهوا الى منزل من الاهواز يقال له صلى وسلبرى فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتتلوا هم والخوارج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لو لا ثبات المهلب وقوة جأشه فان ذلك قواهم حتي قتل أمير الخوارج عبيد الله بن الماحوز وانهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا الى كرمان وجانب أصفهان. وكتب المهلب الى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فانا قد لقينا الازارقة المارقة بحد وجد فكانت الناس جولة ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الامل فصاروا دريئة رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجوا أن يكون آخر هذه النعمة

كأولها والسلام. فكتب اليه الحارث : قد قرأت كتابك يا أخا الازد فرأيتك قد
وهب الله لك شرف الدنيا وعزها وذخر لك ثواب الآخرة ان شاء الله وأجرها
ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهاد أركان المشركين وأخا السياسة والرياسة
فاستدم الله بشكره يتمم عليك نعمه والسلام. فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال
أما تظنونه يعرفني إلا أخ الازد : ما أهل مكة الا أعراب ولم يزل المهلب يطارد
الخوارج مدة الحارث بن عبد الله : فلما ولي مصعب العراق استقدم المهلب
وأمره أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولى مصعب المهلب على الموصل وولى
على حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر والخوارج بارجان وعليهم الزبير
ابن على السليطى فشخص اليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم
بأصبهان فجمعوا له وأعدوا واستعدوا : ثم أتوا سابور فسار اليهم ونزل قريبا منهم
فقال له مالك بن حسان ان المهلب كان يذكى العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة
وهو على أبعد من هذه المسافة منهم فقال له عمر اسكت خلع الله قلبك أتراك تموت
قبل أجلك فأقام هناك وفى ذات ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء فقال لمالك
كيف رأيت قال قد سلم الله ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها فقال أما أنكم لو
ناصحتموني مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفى هذا العدو ولكنكم تقولون
قرشي حجازي بعيد الدار خيره لغيره فافتقاتلون معى تعذيرا ثم زحف الى الخوارج
فقاتلهم قتالا شديدا حتى انهزموا وقتل فى الموقعة ابنه عبيد الله فكتب الى مصعب
: أما بعد فاني قد لقيت الازارقة فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له
السعادة ورزقنا عليهم الظفر فتفرقوا شذر مذر وبلغتني عنهم عودة فيممتهم

وبالله أستعين وعليه أتوكل : ثم سار اليهم وكانوا قد عادوا الى فارس فألح عليهم حتى أخرجهم الى أصفهان فأقاموا برهة ثم عادوا الى الاهواز وقد ارتحل عمر الى اصطخر : وما زالوا يروحون ويغدون ويعيثون في الارض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على اعادة المهلب الى حربهم وكانوا قد ولوا أمرهم قطرى بن الفجاءة المازنى فخرج اليهم المهلب ولما أحس به قطري تيمم نحو كرمان فأقام المهلب بالاهواز. ولما استمد الخوارج كروا عليه فحاربهم المهلب ونفاهم الى رامهرمز وفى تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير فى حربه مع عبد الملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ماتقولون فى مصعب قالوا إمام هدي قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا ضال مضل : ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ماتقولون في مصعب فسكتوا قالوا فما تقولون فى عبد الملك قالوا إمام هدى فقال الخوارج ياأعداء الله بالامس ضال مضل واليوم إمام هدي ياعبيد الدنيا عليكم لعنة الله

ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه أن لا يفعل وقيل له انما أمن أهل هذا المصر بان المهلب بالاهواز وعمر بن عبيد الله بفارس فاذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبي الا عزله وولى حرب الخوارج أخاه عبد العزيز بن عبد الله فسار اليهم حتي قابلهم بدار بجرد فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب الى عبد الملك به فكتب اليه عبد الملك أما بعد فقد قدم رسولك بكتابك تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال

الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني
انه عامل لك علي الاهوز فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك إعرابيا من أهل مكة
على القتال وتدع المهلب الى جنبك يجبى الخراج وهو الميمون النقيبة الحسن
السياسة البصير بالحرب المقاسى لها ابنها وابن أبنائها انظر أن ينهض بالناس حتى
تستقبلهم بالاهواز ومن وراء الاهواز وقد بعثت الى بشر أن يمدك بجيش من أهل
الكوفة فاذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره
فيه ان شاء الله: فشق عليه أن فيل رأيه في بعثة أخيه وترك المهلب وفى أنه لم يرض
رأيه خالصا حتى قال احضره المهلب واستشره فيه وكتب عبد الملك الى أخيه
بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود فاختار لهم خمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن
محمد بن الاشعث وخرج خالد باهل البصرة حتى جاء الاهواز فاجتمع الجندان
علي الخوارج فرأوا اماهالهم فانصرفوا منهزمين كانهم على حامية وأتبعهم خالد
داود بن قحذم في جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة آلاف من أهل
الكوفة فاتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع
عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الاهواز

وفى ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فديك الخارجى فغلب علي البحرين
وقتل نجدة بن عامر الحنفي فاجتمع علي خالد بن عبد الله نزول قطرى الاهواز
وأمر أبى فديك فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف الى أبي
فديك فانهزم

لما رأى عبد الملك ذلك عزل خالداً وولى أخاه بشر مكانه وكتب
أليه أما بعد فابعث المهلب فى أهل مصره الي الازارقة ولينتخب من اهل

مصره وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فانه أعرف بهم وخله ورأيه فى الحرب فاني أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً وابعث عليهم رجلاً معروفا شريفا حسيبا صليبا يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم انهض اليهم أهل المصرين فليتبعوهم أى وجه ماتوجهوا حتي يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك . فدعا بشر المهلب فأقرأه كتاب عبدالملك وأمره أن ينتخب من شاء وشق على بشر أن امرة المهلب جاءت من قبل عبدالملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان اليه ذنب ثم دعا عبدالرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال له انك قد عرفت منزلتك مني وأثرتك عندي وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش للذى عرفت من جزئك وغنائك وشرفك وبأسك فكن عند حسن ظنى بك أنظر إلى هذا الكذا والكذا يقع في المهلب فاستبد عليه بالأمر ولا تقبلن له مشورة ولا رأياً وتنقصه وقصر به — فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الاسلام وأقبل يغريه بابن عمه كأنه من السفهاء أو ممن يستصبي ويستجهل : وهكذا في كل زمان وفى كل أمة من يدوس المصالح العامة ارضاء لشهواته النفسية واهوائه الفاسدة ولا تهمه الامة سعدت أوشقيت : رجل يكره رجلا فما بال مصالح الناس وعامة المسلمين تكون ميدان الانتقام إن هذا البلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه خرج الجيشان حتى وصل رامهرمز وبها الخوارج فتراءى العسكران ولم يلبث الناس الا عشراً حتى بلغهم نعى بشر بن مروان وتوفى بالبصرة فارفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من

خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد يأمرهم فيه بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبد الملك فلم يجد ذلك فيهم نفعاً حتى جاءهم الاسد الهصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً عنيفاً ووجههم الى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلما تتابع مسير الجنود الي المهلب وابن مخنف ناهضا الازارقة حتي أجلوهم عن رامهرمز فساروا الى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان : كان المهلب يخندق دائما على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك ابن مخنف . فأبي فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة

ثم انه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالا شديداً وكانت كرمان فى أيدى الخوارج وفارس فى يد المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذى هم به لا يأتيهم من فارس مادة فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتي نزل بجيرفت وهى مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالا شديداً وحازهم عن فارس كلها فبعث اليه الحجاج مع البراء بن قبيصة كتاباً يقول فيه : أما بعد فانك والله لو شئت فيما أري لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الارض حولك : وقد بعثت اليك البراء بن قبيصة لينهضك اليهم فانهض اليهم اذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشد الجهاد واياك والعلل والاباطيل والامور التى ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة والسلام فأخرج المهلب بنيه كل ابن فى كتيبة واخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشد قتال

الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار . ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة الى المهلب فقال لا والله ما رأيت كبنيك فرساناً قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرساناً قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا بأس أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتى اذا كان عند العصر خرج اليهم بالناس و بنيه فى كتائبهم فقاتلوه كقتالهم أول مرة فانصرف البراء الى الحجاج فأخبره الخبر على جليته ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء

حدث فى معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم فى حسبان ذلك أن رجلا من فرسانهم يقال له المقعطر قتل رجلا كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري ان يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصاً فقال لهم ما أري أن أفعل رجل تأول فأخطأ فى التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطرياً وولوا عبدربه الكبير وبقى على بيعة قطرى منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضاً وكان من رأى الحجاج أن يناهضهم فى وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأى المهلب فتركه الحجاج ورأيه : استمر الخوارج يقتتلون نحواً من شهر ثم أن قطرياً خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وبايع عامتهم عبدربه الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم الا قليل وأخذ عسكرهم ومافيه وسبوا لانهم كانوا يسبون المسلمين : ولكعب الأشقرى قصيدة طويلة يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها

يا حفص انى عدانى عنكم السفر  وقد سهرت فأودي نومي السهر

وهى من غر الشعر العربي وقد أنشدها بين يدى الحجاج فقال له أشاعر أنت أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرنى عن بني المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم

وكفى بيزيد فارساً شجاعاً وجوادهم وسخيهم قبيصة ولا يستحيي الشجاع أن يفر
من مدرك وعبد الملك سم ناقع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفاك
بالمفضل نجدة قال فكيف خلفت جماعة الناس قال بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا
ما خافوا قال فكيف بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فاذا أليلوا
ففرسان البيات قال فأيهم كان أنجد قال كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها
قال فكيف كنتم أنتم وعدوكم قال كنا اذا أخذنا عفونا واذا أخذوا يئسنا منهم
واذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج ان العاقبة للمتقين كيف أفلتكم
قطري قال كدناه ببعض ما كاد نا فصرنا منه إلى الذي نحب قال فهلا اتبعتموه قال
كان الحد عندنا آثر من الفل" قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له قال كان لنا منه
شفقة الوالد وله منا بر الولد قال فكيف اغتباط الناس قال فشا فيهم الأمن وشملهم
النفل قال أكنت أعددت لى هذا الجواب قال لا يعلم الغيب الا الله فقال هكذا
تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب إلى
الحجاج الحمد لله الكافى بالاسلام فقد ما سواه الذى حكم بأن لا ينقطع المزيد منه
حتى ينقطع الشكر من عباده أما بعد فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكنا نحن وعدونا
على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على
اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع
فانتهزت منهم الفرصة فى وقت امكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعانقت
الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا

والحمد لله رب العالمين): فكتب اليه الحجاج أما بعد فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد لله رب العالمين فاذا ورد عليك كتابي فاقسم في الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وان كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلا تقوم بازائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهماً من ولدك ولا ترخص لاحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم عليّ وعجل القدوم ان شاء الله . فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يا بني انك اليوم لست كما كنت انما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك الا على ما احتمل عليه أبوك : فأحسن إلى من معك وان أنكرت من انسان شيئاً فوجهه الى وتفضل على قومك وقدم المهلب على الحجاج فأجلسه الى جانبه وأظهر اكرامه وبره وقال يا أهل العراق انكم عبيد المهلب ثم قال أنت والله كما قال لقيط الايادى

وقلدوا أمركم لله دركم … رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا يطعم النوم الا ريث يبعثه … هم يكاد حشاه يقصم الضلعا

لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده … ولا اذا عض مكروه به خشعا

ما زال يحلب هذا الدهر أشطره … يكون متبعاً طوراً ومتبعا

حتي استمرت على شزر مريرته … مستحكم الرأى لا قحماً ولا ضرعا(١)

فقام اليه رجل فقال أصلح الله الامير والله لكأني أسمع الساعة قطرياً وهو يقول المهلب كما لقيط الايادى ثم أنشد الشعر فسر الحجاج حتي امتلأ سروراً فقال المهلب انا والله ما كنا أشد على عدونا ولكن دمغ الله الباطل وقهرت الجماعة

(١) القحم آخر سن الشيخ والضرع الصغير الضعيف

الفتنة والعاقبة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة فقال له الحجاج اذكر لى القوم الذين أبلوا وصف لى بلاءهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب ماذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا ان شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم فى البلاء وتفاضلهم فى الغناء وقدم بنيه وقال انه والله لو تقدمهم أحد فى البلاء لقدمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم : قال الحجاج صدقت وما أنت بأعلم بهم منى وان حضرت وغبت انهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر معن بن المغير بن أبى صفرة وأشباهه : فقال الحجاج أين الرقاد فدخل رجل طويل أجنأ فقال المهلب هذا فارس العرب فقال الرقاد أيها الامير انى كنت اقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس فلما صرت مع من يلزمني الصبر و يجعلنى أسوة نفسه و ولده و يجازينى على البلاء صرت أنا وأصحابى فرساناً فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم و زاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك : قال المغيرة بن حبناء من أصحاب المهلب :

انى امرؤ كفنى ربى وأكرمني ... عن الامور التى فى رعيها وخم

وانما أنا انسان اعيش كما ... عاشت رجال وعاشت قبلها أمم

ماعاقنى عن قفول الجند اذ قفلوا ... عنى بما صنعوا عجز ولا بكم

ولو أردت قفولا ما تجهمنى ... اذن الأمير ولا الكتاب اذ رقموا

ان المهلب ان اشتق لرؤيته ... أو امتدحه فان الناس قد علموا

ان الاريب الذي ترجى نوافله ... والمستعان الذى تجلى به الظلم

ألقائل الفاعل الميمون طائره ... أبو سعيد اذا ماعدت النعم

أزمان أزمان اذ عض الحديد بهم — واذ تمنى رجال انهم هزموا

وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطرى فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته فى أسفل الشعب فتدهدى حتى خرّ الى أسفله فقتل ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم فحاصروهم فى قصر قومس حتى جهدوا ثم خرجوا فقاتلوا حتى قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧

و بذلك انتهى أمر الازارقة بعد ان ذاق الناس منهم مرّ الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة

وممن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التميمى ورفيقه شبيب بن يزيد كان صالح رجلا ناسكا مخبتاً مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بدارا من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال لهم ذات يوم ماأدرى ماتنتظرون وحتى متي أنتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاة على الناس الا علواً وعتوا وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون من انكار الباطل والدعاء الى الحق مثل الذى تريدون فيأتونكم فنلتقى وننظر فيما نحن صانعون وفى اى وقت ان خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب الى صالح يستنهضه للخروج وقدم عليه فاتعدوا أن يخرجوا فى هلال صفر ليلة الاربعاء سنة ٧٦ وقال صالح لمن معه اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا الى قتال أحد من الناس الا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون لكم فانكم انما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه وعصي فى الارض فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الاموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثم تعملوا بها فان كل ما أنتم عاملون

أنتم عنه مسئولون : ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث اليهم جنداً عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث جنداً آخر عدته ثلاثة آلاف فأشجوا الخوارج حتى تركوا امكانهم وساروا فقطعوا أرض الجزيرة ودخلوا أرض الموصل فقطعوها ومضوا حتى قطعوا الدسكرة فأرسل اليهم الحجاج جنداً عدته ثلاثة آلاف فقاتلهم الخوارج حتى قتل أميرهم صالح ابن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن

وما زالوا ينتقلون من جهة إلى أخرى والجند يرسل اليهم تلو الجند فيهزمون جنود الحجاج وهم فى عدد لا يتجاوز المئتين عداً وأخيراً جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاثوا فيها فساداً وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس إلى اخراجهم فاجتمع اليه القواد ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة وخرج فسارت الجنود وراءه ولكنها لم تنل منه منالاً وهو فى كل مرة يهزمها حتى استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب اليه أن يرسل اليه جنداً من أهل الشام فوجه اليه أربعة آلاف ووجه الحجاج اليهم نحواً من خمسين ألفاً من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ الفاً ومن الغريب ان الالف هزمت الخمسين : وكان لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجداً فخرج اليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى بهم وقال لهم يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الارجاس حقكم غضوا الابصار واجثوا على

الركب واستقبلوا القوم بأطراف الاسنة فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وكانهم حرة سوداء وأقبل اليهم شبيب فى تعبية فثبتوا له حتى اذا غشى أطراف الاسنة وثبوا فى وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدماً وما زال القتال بينهم عامة اليوم وقتل فى هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهي الامر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك أمرأته غزالة فقتلت ثم أرسل الحجاج فى أثره جنود الشام حتي قابلوه بالانبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جدا وأنتهى أمر الخوارج بغرق شبيب فى النهر وتفصيل الوقائع التى جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج يطول أمرها والنتيجه أن المسلمين استراحوا من الازارقة ومن شبيب فى سنة واحدة

## المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة — الفتوح فى الشرق — الفتوح فى الشمال ـ الحج السكة ـ ولاية العهد ـ وفاة عبد الملك وبيته وصفته الوليد الاول ـ الاصلاح الداخلى

### بناء الكعبة

من الحوادث الكبرى التى حدثت ابان هذه الاضطرابات وهدم الكعبة وبناؤها ففى سنة ٦٥ هـ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالارض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس ويصلون الى موضعه وجعل الحجر الاسود عنده فى تابوت فى سرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثياب أو

طيب عنـد الحجبة فى خزانة البيت حتى أعادها لما عاد بناءها وكان السبب
في ادخاله الحجر ضمن البيت ماروته أمه أسماء عن عائشـة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال لها لولا قومك حديثو عهـد بكفر لنقضت الـكعبة
وجعلتها على قواعد اسماعيل وجعلت لها بابين . فلما قتـل ابن الزبير وولى
الحجاج نقض ذلك الركن الذى فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليـه
فى عهـد قريش فالبنـاء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج

الاحوال الخارجية

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بعد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم
لان الامـة اذا كان بأسها بينها شـديداً فحسبها ان تحافظ على ما بأيديها من
البلاد ولـكن هذه الامة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تقصر يدها
عن الفتح ولم تظهر أمام الامم الاخرى بمظهر الضـعف الا فى بعض الاحيان

الفتوح في الشرق

بعـد ان انتهي المهلب من أمر الخوارج ولاه الحـجاج خراسان ففى
سـنة ٨٠ قطـع نهر بلخ ونزل على كس وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك
الختل فدعاه الى غزو الختـل فوجه معـه ابنه يزيد فنزل في عـسكره وكان
الملك يومئذ اسـمه السـبل فى عسكره على ناحية فبيت السـبل ابن عمـه
فكبر في عسكره فظن ابن العم أن العرب قـد غـدروا به وأنهم خافوه على
الغدر حين اعتزل عسكرهم فأسره الملك وقتله في قلعته فأتي يزيد بن المهلب
القلعة وأحاط بها فصالحه الملك على فدية حملها اليـه ورجع إلى المهلب ووجـه

المهلب ابنـه حبيباً إلى ربنجن فوافى صاحب بخاري فى أربعين ألفا فـكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب

ومكس المهلب بكس سنتين فقيل له لو تقدمت إلى السـغد وما وراء ذلك قال ليت حظى من هـذه الغزوة سلامة هـذا الجنـد حتى يرجعوا إلى مروسالمين ثم صالح المهلب أهل كس على فـدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة وكان خليفته على مرو فجزع جزعا شديدا وولى مكانه ابنه يزيد: ولما أخذ الفدية عاد إلى مرو فتوفى بها ولما شعر بدنو أجـله دعا من حضر من ولده ودعا بسـهام فحزمت وقال أترونـكم كاسريها مجتمـعة قالوا لا قال أفـترونـكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فهكذا الجماعة فأوصـيكم بتقوي الله وصلة الرحم فان صـلة الرحم تنسيء في الاجـل وتثرى المال وتـكثر العـدد وأنهاكم عن القطيعة فان القطيعة تعـقب النار وتورث الذلة والقلة فتحابوا وتوصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم . ان بنى الام يختلفون فـكيف ببنى العـلات وعليكم بالطاعـة والجماعـة وليكن فعالـكم أفضل من قولـكم فانى أحب للرجـل أن يكون لعمله فضـل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فـكفي بغـدو الرجل ورواحه اليكم لذكرة له وآثروا الجود على البخـل وأحبوا العرب واصـطنعوا العرب فان الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك فـكيف الصنيعة عنده عليكم فى الحرب بالاناة والمـكيدة فانها أنفع فى الحرب من الشـجاعة واذا كان اللقاء نزل القضاء : فان أخـذ رجل بالحزم فظهر على عـدوه قيـل أتي الامر من

وجهه ثم ظفر فحمدوا ان لم يظفر بعد الاناة قيل مافرط ولاضيع ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين واياكم والخفة وكثرة الكلام فى مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لو لم تقدمه لقدمناه ومات المهلب وأوصي إلى حبيب فصلى عليه وكتب يزيد إلى عبد الملك بالخبر وباستخلاف المهلب اياه فأقره وتوفي فى ذى الحجة سنة ٨٣ فقال نهارين توسعة التميمي

| | |
|---|---|
| ألا ذهب الغزوا المقرب للغنى | ومات الندي والجود بعد المهلب |
| أقاما بمرو الروذ رهن ضريحه | وقد غيبا عن كل شرق ومغرب |
| اذا قيل اي الناس أولي بنعمة | علي الناس قلناه ولم نتهيب |
| أباح لنا سهل البلاد وحزنها | بخيل كارسال القطا المتسرب |
| يعرضها للطعن حتى كانما | يجللها بالارجوان المخضب |
| تطيف به قحطان قد عصبت به | وأحلافها من حي بكر وتغلب |
| وحيا معد عوذ بلوائه | يفدونه بالنفس والام والاب |

وفى ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيزك بباذغيس واحتلها وكان ملكها قدخرج عنها فلما جاء صالحه على ان يدفع اليه مافى القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحي بن يعمر العدواني ونص كتابه إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفه ولحقت طائفة برءوس الجبال وعراعر الادوية وأهضام الغيطان وأثناء الانهار : فلما جاء الكتاب الحجاج سأل عمن يكتب ليزيد

فقيل له يحيي بن يعمر فكتب الى يزيد فحمله على البريد فقدم عليه أفصح الناس فقال له أين ولدت قال بالاهواز قال فهذه الفصاحة قال حفظت كلام أبى وكان فصيحاً قال من هناك قال فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد قال نعم كثيراً قال ففلان قال نعم قال فأخبرني عني أألحن قال نعم تلحن لحناً خفياً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل أن في موضع إن وإن في موضع أن قال أجلتك ثلاثاً فان أجدك بعد ثلاث بارض العراق قتلتك فرجع الى خراسان وفى سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل :

وفى عهد المفضل غزيت باذغيس وفتحت ثم تلتها آخرون وشومان نظفر . ولم يكن للمفضل بيت مال كان يعطى الناس كلما جاءه شىء وان غنم شيئاً قسمه بينهم . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى وسيكون له ذكر جميل فى خلافة الوليد

## الفتوح في الشمال

لم يكن من الممكن فى عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين وفي سنة ٧٠ ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين وذلك في الوقت الذى يتجهز فيه عبد الملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدى عبد الملك اليه كل جمعة ألف دينار خوفا على المسلمين ولما انقشعت هذه السحابة واستقر الامر لعبد الملك عادت الغزوات الى بلاد الروم فنظمت الشواتي والصوائف وافتتح عبد الملك قيسارية وفى سنة ٨١ فتحت قاليقلا وكان

أمير جندها عبيد الله بن عبد الملك وفى سنة ٨٤ غزا عبد الله بن عبد الملك ففتح المصيصة

## الحج

كان الذى يقيم الحج عبد الله بن الزبير فى عهد خلافته وفى سنة ٦٨ وافت عرفات أربعة ألوية : ابن الحنيفة فى أصحابه فى لواء وابن الزبير فى لواء ونجدة الحرورى فى لواء ولواء بنى أمية قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت اليهم جميعا فجئت محمد بن على في الشعب فقلت يا أبا القاسم اتق الله فانا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله الى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد من الحجاج من قبلى ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير وما يروم منى وما أطلب هذا الامر الا أن لا يختلف على فيه اثنان ولكن ائت ابن الزبير فكلمه وعليك بنجدة قال فجئت ابن الزبير فكلمته بنحو ما كلمت به بن الحنفية فقال أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعونى وهؤلاء أهل خلاف فقلت أري لك خيراً الكف قال أفعل ثم جئت نجدة الحرورى فأجده فى أصحابه فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال اما أن أبتدىء أحداً بقتال فلا ولكن من بدأ بقتال قاتلته قلت فانى رأيت الرجلين لا يريدان قتالك : ثم جئت شيعة بنى أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحدا الا ان قاتلنا. ثم كان أول لواء انقض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس :وهذه حادثه غريبة في تاريخ

الحج وبعد قتله كان بقيمة عمال بني أمية

السكة الاسلامية

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وانما كانوا يستعملون مايضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى كانت سنة ٧٤ من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الاسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطاً والدينار عشرين قيراطاً فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامي وأمر عبد الملك الحجاج أن يضرب بها بالعراق وقد نقش عليها أولا باسم الله الحجاج ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الامصار الاسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة . وسنوضح أمر السكة بعد

ولاية العهد

كان مروان قد ولى عهده عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز بن مروان ففي سنة ٨٥ أراد عبد الملك ان يعزل عبد العزيز ويولي مكانه الوليد بن عبد الملك فاستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال لو خلعته ما انتطح فيه عنزان فبينا هو على ذلك اذ

جاءه الخبر بوفاة عبد العزيز فقال لروح كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه

وعهد الى ابنيه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما الى البلدان فبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام ابن اسماعيل المخزومي وطاف به وحبسه فكتب عبد الملك الى هشام يلومه على ما فعل ويقول سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وانا لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف

وفاة عبد الملك

في يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ (٩ اكتوبر سنة ٧٠٥) توفى عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويع بالشام احدى وعشرين سنة وشهرا ونصفا من مستهل رمضان سنة ٦٥ الى منتصف شوال سنة ٨٦ وكانت خلافته مذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل فى ١٧ جمادى الاولى سنة ٧٣ وكان عمر عبد الملك ستين سنة لانه ولد سنة ٢٦

بيت عبد الملك

تزوج عبد الملك (١) ولادة بنت العباس بن جزء العبسى فولدت له الوليد وسليمان ومروان الاكبر (٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم (٣) أم هشام بنت هشام ابن اسماعيل المخزومي فولدت له هشاماً (٤) عائشة بنت موسى بن طلحة التيمى فولدت له أبا بكر واسمه بكار (٥) أم أيوب بنت عمرو بن

عثمان بن عفان فولدت له الحكم (٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي فولدت له فاطمة (٧) شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائي (٨) ابنة لعلي ابن أبي طالب (٩) أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر . وله من الاولاد عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لامهات الاولاد

صفة عبد الملك

كان عبد الملك قوى العزيمة ثابت النفس لا تزعزعه الشدائد ولى أمر الامة وهى فى غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهي على غاية من الهدو والطمأنينة ولكن الضحايا التى ذهبت فى سبيل ذلك كثيرة جدا لان الامة حية نشيطة لا تدين الا للقوة القاهرة التى هي فوق طاقتها والاهواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لا يمر منه الا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الامر مني وان ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا : ومما عد من مساوى عبد الملك انه قال مرة وهو على المنبر من قال لى بعد مقامي هذا اتق الله ضربت عنقه وقد أعتذر عن ذلك بأن كثيراً من الناس كانو يقفون هذه المواقف قصد الشهرة حتي اذا أصابهم من جراء ذلك شر اشتهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لا يصلح على أية حال عذرا ومما عد من مساويه وهو قبيح غدره بعمرو بن سعيد وقتله اياه بعد أن أمنه وقالوا ان هذا أول غدر حصل في الاسلام ومن

سن سنة سيئة فعليه اثمها واثم من عمل بها إلى يوم القيامة

والتاريخ يدلنا على ان كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلموا من الهنات في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة وكان عبد الملك فصيحا عالما بالاخبار فقيها وقد قدمنا شيئاً من ذلك فى أول خلافته

## ٦ ﴿ الوليد الاول ﴾

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسي ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد الا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفي أبوه عبد الملك بويع بالخلافة فى اليوم الذي مات فيه لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتي صعد على منبر دمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس انه لا مقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم الله وقد كان من قضايا الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت وقد صار الى منازل الابرار ولى هذه الامة بالذي يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على اعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفرد أيها من ابدى الناس لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه : ثم قام اليه الناس فبايعوه

موسى بن نصير (٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان

فأما القاسم بن محمد فانه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم اليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج اليه فسار القاسم إلى بلاد السند حتى أتى الديبل ( ١ ) فنزل عليه وكان به بد عظيم والبد منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة : ولم يزل القاسم حاصراً للديبل حتى خرج العدو اليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بني بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف . ثم أتي البيرون فأقام أهله العلوفة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنيين منهم إلى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم بالصلح ثم جعل لا يمر بمدينة الا فتحها حتى عبر نهراً دون مهران ( ٢ ) فأتاه سمنية سربيدس فصالحوه على من خلفهم ووظف عليهم الخراج وسار إلى سهبان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته : ثم ان محمداً عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقده فالتقي بداهر في جنوده الكثيرة وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع بمثله وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون فقال في ذلك قاتل داهر

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد

---

( ١ ) مدينة على ساحل نهر الهند

( ٢ ) نهر السند يصب فى خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة

انى فرجت الجمع غير معرد حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجدلا متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند . ثم فتح راور عنوة ثم أتى برهمنا باذ العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا فخاف بهاتاه لا ثم سار فتلقاه أهل ساوندري وسألوه الأمان فأعطاهم اياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودلالتهم : ثم تقدم الى بسمد فصالح أهلها على مثل صلح ساوندرى : ثم انتهى الى الرور ( ١ ) وهي من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحاً على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدهم وقال ما البد إلا ككنائس النصاري واليهود وبيوت نيران المجوس ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجداً : ثم سار حتي قطع نهر بياس الى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيراً منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة وكان بد الملتان تهدى اليه الأموال وتنذر له النذور ويحج اليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده فحاز محمد ذلك كله : وفى ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان الى الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطي الناس ووجه إلى البيلمان جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسالمه أهل سرست ثم أتي الكيرج فخرج اليه دوهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دوهر : بعد إتمام هذه الفتوح العظيمة التى نشرت ظل الاسلام على جميع بلاد السند مات الوليد بن عبد الملك فوقف أمر محمد وسنتكلم

---

(١) ناحية بالسند تقرب من الملتان فى الكبر وعليها سوران وهى على شاطىء نهر مهران على البحر وهى متجر وفرضة بهذه البلاد وبينهم وبين الملتان اربع امرحل وبالقرب من الرور مدينة بغرور

بعد على خاتمة حياته وأما قتيبة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج بن يوسف ولاه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم ان الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات و يزيد بكم المال استفاضة والعدو وقماً ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق و كتاب ناطق فقال (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) ثم أخبر عمن قتل في سبيله انه حي مرزوق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصي أثر وأمضى ألم وايای والهوينا

ثم عرض الجند في السلاح والكراع وسار واستخلف على مرو فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده فأتاه وأتي ملك كفتان بهدايا وأموال ودعاه الى بلاده فمضي مع ملك الصغانيان فسلم اليه بلاده وكان ملك آخرون وشومان قد أساءه جواره وضيق عليه فسار قتيبة الى آخرون وشومان وهما من طخارستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضي ثم عاد إلي مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب اليه يلومه و يعجز رأيه في تخليفه الجند وكتب اليه اذا غزوت فكن في مقدم الناس واذا قفلت فكن في

أخرياتهم وساقتهم

وفى سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك انه كان فى يد نيزك أسري من المسلمين فكتب اليه قتيبة يأمره باطلاقهم ويتهدده فخافه نيزك فأطلق الأسري فوجه اليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبنه حيث كان لا يقلع عنه حتي يظفر به أو يموت قبل ذلك فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل باذغيس على أن لا يدخلها

بعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهي أدنى مدائن بخارى الي النهر فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل اليه رسول ولم يجر له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة وبين عدوه وفى ذات يوم لقي المسلمون عدوهم بجد حتى أنزل الله عليهم نصره فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمون بينهم وبينها فتفرقوا وركب المسلمون اكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة ابتدأ بهدمها سألوا الصلح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه ان أهل بيكند غدروا بالعامل فقتلوه وأصحابه فرجع اليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلها وأصاب فيها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو : ولما كان الربيع سار عن مرو فى عدة حسنة من الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتي نومشكث وهى من بخارى فصالحه أهلها ثم سار الى راميثنة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف اليه الترك معهم السغد وأهل فرغانة فاعترضوا المسلمين في طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسناً وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع الى مرو

## الحال في عهد الوليد

كانت مدة الوليد غرة في جبين الدولة الاموية ففيها قام باصلاح داخلي عظيم واشتهر في الامة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا الى المملكة الاسلامية بلادا واسعة واستردوا هيبتها في أنفس الامم المجاورة لها وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الامور ومهدها فاستلمها الوليد والامة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبت نار الاهواء فان الخوارج ذهبت حدتهم وشوكتهم وقلت جموعهم وشيعة آل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم فلم يحركوا ساكنا ولم يوقظوا فتنة

## الاصلاح الداخلي

كان الوليد ميالا الي العمارة فاهتم في زمنه باصلاح الطرق وتسهيل السبل في الحجاز وغيره ففي سنة ٨٨ كتب الي عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان وكتب الي سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التي يستقى منها أهل المدينة وأجرى اليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها : واصلاح الطرق من أهم ما يذكر لولاة الامر في إصلاح البلاد . ومن أعماله العظيمة بناء ذينك المسجدين العظيمتين مسجد المدينة وجامع دمشق : ففي السنة المتقدمة مر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت أزواج الرسول وادخالها في المسجد وأن يشتري دوراً في مؤخره ونواحيه ليتسع حتي يكون مئتى ذراع في مثلها ومن أبي فلتقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع اليهم ثمنها فان لك في ذلك

سلف صدق عمر وعثمان وأرسل اليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل
فى ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم
مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث اليه بمئة
ألف مثقال ذهب وبعث اليه بمئة عامل وبعث اليه من الفسيفسا باربعين جملا
فابتدىء بعمارته وأدخلت فيه جميع الحجر التي لازواج رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولم يبق الا حجرة عائشة التى فيها القبور الثلاثة وكان من رأي
بعض أهل المدينة أن لا تكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين
فى صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر فى ذلك عمر وقد هداه الفكر أن
يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة
مخمساً أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الاموى فان الوليد احتفل
له احتفالا عظيما حتى خرج مناسبا لعظمة المملكة الاسلامية ولا يزال الشيء
من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس فى حياته قد شغفوا بالعمارة تبعا له حتي
كانت مسألتهم عنها اذا تقابلوا: وبنى الوليد المصانع فى الشام لتسهيل الاستقاء

ومن الاصلاح العظيم حجره على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل
لهم من العطاء مايقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل قائد ضريراً

وعلى الجملة فكان الوليد محسناً الى رعيته . ومما يدل على حسن
معاملته للعلماء انه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة فلما وصل
المدينة دخل الي المسجد ينظر الى بنائه فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد
وبقي سعيد بن المسيب مايجتريء أحد من الحرس أن يخرجه وما عليه
الا ريطتان ماتساويان خمسة دارهم فقيل له لو قمت فأبى أن يقوم قبل

الوقت الذى كان يقوم فيه قيل فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم اليه قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد رجاء أن لا يري سعيداً حتى يقوم فحانت من الوليد نظرة الى القبلة فقال من ذلك الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول نعم يا أمير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار فى المسجد حتي وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال فقال كيف أنت ايها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله فانصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال أجل يا أمير المؤمنين وقليل من ذوى السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوى الاسنان حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوى السلطان قليلاً أما العلماء فانهم رضوا لانفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتي صار كل مايصيبهم فى الحصول عليهما سهلا وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقتل مكانتهم وأما ذوو السلطان فانهم أحيانا يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون ان يكون لاحد من رعيتهم كلمة فوق كلمتهم فيتجهمون لمن يبدي لهم نصيحة أو يعرفهم واجبا فيحاربونهم لقصد اذلالهم وحط درجتهم ولكن الذى يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحة فانه لا يضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك

ومن حسنات الوليد استعانته فى عمله بعمر بن عبد العزيز الذى

أعاد سيرة سلف هذه الامة الصالح فقد ولاه المدينة سنة ٨٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينه عروة ابن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن وأبا بكر ابن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم ابن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم اذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه اجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال انى انما دعوتكم لامر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ماأريد أن أقطع أمراً الا برأيكم أو برأى من حضر منكم فان رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك الا بلغنى فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه وقد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا الى المدينة ومكة وان ذلك وهن فاستشاره فيمن يوليه على المدينة فاشار بعثمان بن حيان المري فولاه المدينة

المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح فى عهد الوليد — ولاية العهد — وفاة الحجاج — وفاة الوليد — سليمان

## الفتوح فى عهد الوليد

اشتهر في زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجمل الأثر فى الفتح الاسلامي وهم (١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى (٢) قتيبة بن مسلم الباهلى (٣)

## وفاة الحجاج

فى شوال سنة ٩٥ توفى بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقين وما بينهما من المشرق كله وكانت سنه ٥٤ سنه واستخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبى كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبى مسلم وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة

كانت للحجاج نفس تحب العلو فى الارض ولا تقبل أن يقف فى طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات فان فعل أحد شيئاً من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت فى سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها واذا كان لتلك النفس قوة فهنالك العذاب الاكبر والعسف الشديد واذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالانباء الكاذبة حتى تكبهم على وجوههم وكان الحجاج من القسم الاول فعسف أهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن عندهم امتناع : اسرف فى القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهى أمره الى السلطان القاهر والكلمة التي لا ترد : قال له عبد الملك يوماً كل امرىء يعرف عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبأ عنى شيئاً . قال أنا لجوج حقود حسود : ومتى كانت هذه الصفات فى ذى سلطان أهلك الحرث او النسل الا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج

لم يكن الحجاج خاليا من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شراً عظيما : وكان فصيحا لا يكاد

يعادله أحد فى الفصاحة من أهل زمنه وكانوا يقرنون به الحسن البصري وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين : وعلى الجملة فان الرجل مهد بلاد العراق بعد ان ضحى فى سبيل ذلك أنفسا كثيرة وكان الخراج العراقي فى زمن الفتن والعسف قد قل جدا : وأنا كما علمتم لست ممن يعجبه الاصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدها اصلاحا حقيقيا وانما هي طريقة اذلال واخضاع لايدوم أثرها كثيرا لان النفوس تنطوى على مافيها من البغض والكراهة حتى اذا حانت لها الفرصة وثبت

وفاة الوليد بن عبد الملك

فى منتصف جمادي الآخرة سنة ٩٦ توفى بدير مران الوليد بن عبد الملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث فى الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ الى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦) وكانت سنه اذ توفى ستا وأربعين سنة وكان له من الاولاد تسعة عشر ابنا

(سليمان)

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة بويع بالخلافة بعد موت أخيه وكان بالرملة من أرض فلسطين وكانت لاول عهده أحداث خير وشر

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشي أن يموت الوليد قبله فيقع فى يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل الى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الالد : فلما ولى سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولى يزيد بن أبى كبشة السكسكى السند فأخذ محمد ابن القاسم وقيده

وحمله الى العراق فقال محمد متمثلا

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكي أهل السند على محمد فلما وصل الى العراق حبس بواسط فقال

فلئن ثويت بواسط وبارضها رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب قينة فارس قدرعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا

ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن فى رجال من آل أبي عقيل حتي قتلهم بذلك انتهت حياة هذا القائد ارضاء لاهواء الخليفة حتي تقر نفسه بالانتقام وتناسى مافعله ذلك القائد من عظيم الاعمال ولا ندرى كيف تنبغ القواد وتخلص قلوبهم اذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك

أما القائد الثانى قتيبة بن مسلم فانه كان ممن وافق الوليد على غرضه فى عزل سليمان وتولية ابنه عبد العزيز فاضطغنها عليه سليمان وهو بعد من صنائع الحجاج فلما ولى سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولى خراسان يزيد بن المهلب فكتب اليه كتابا يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة ان لم يعزله عن خراسان وكتب كتاباً ثانيا يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعظم صوته فيهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلى وقال له ادفع اليه الكتاب الاول فان كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأ الكتاب ورماه اليه فادفع اليه الثانى فان قرأه ورماه اليه فادفع اليه الثالث فان قرأ الكتاب

الاول ولم يرمه اليه فاحتبس الكتابين الآخرين فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع اليه الكتاب الاول فقرأه ورماه الى يزيد فدفع اليه الثاني فقرأه ورماه الى يزيد فاعطاه الثالث، فقرأه فتمعر وجهه واحتبس الكتاب في يده وحول الرسول الى دار الضيافة ولما أمسى اجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة علي خراسان فخرج حتى اذا كان بحلوان بلغه ما كان من أمر قتيبة كان قتيبة غير مطمئن الى سليمان فأجمع رأيه على خلعه فدعا الناس الذين معه الى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعا سيد بني تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو واخوته واكثر بنيه قال رجل من عجم خراسان يامعشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ماصنع قتيبة الا انه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب اليه أن اختلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التى تعجلها قتيبة وما كان ضره لو تأني قال عبد الرحمن ابن جمانة الباهلي يرثيه

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش الى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح الى الجنات عفا مطهراً
فما رزيء الاسلام بعد محمد ... بمثل أبي حفص فبكيه عبهرا

وكانت قيس تزعم ان قتيبة لم يخلع وانما تجني عليه وكيع وعلى كل حال فان الذى حصل كان موافقا لهوى سليمان بن عبد الملك

وقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضي إلى بخارى فنزل خرقانة السفلي فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعد له ملكها فلم يظفر من البلد بشئ فرجع الى مرو وكتب الى الحجاج بذلك فكتب اليه الحجاج أن صورها لى فبعث اليه بصورتها فكتب اليه الحجاج ان ارجع الى مراغتك فتب الى الله مما كان منك واتها من كان كذا فخرج قتيبة عن مرو سنة ٩٠ فاستنصر ملك بخارى بالسند والترك ومن حولهم ولكن قتيبة سبقهم الى بخاري فحصرها وفى اثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة فى القلب وجازوه حتي ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم الى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم لنا عن هذا الموضع فلم يجبه أحد فمشي الى بنى تميم وقال لهم يوم كايامكم أبى لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بنى تميم أتسلمونني اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هريم بن أبي طحمة المجاشعى على خيل بنى تميم فقال وكيع قدم ياهريم ورفع اليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هريم ودب وكيع في الرجال فانتهى هريم الى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع أقحم ياهريم فنظر اليه هريم نظر الجمل الصؤول وقال أنا أقحم خيلي هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها والله انك لاحمق فقال وكيع مغضبا أتخالفنى وحذفه بعمود كان معه فضرب هريم فرسه فأقحمه وقال ما بعد هذا أشد منه وعبر هريم فى الخيل وانتهي وكيع الى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر وقال أصحابه من

وطن منكم نفسه على الموت فليعبر ومن لا فليثبت مكانه فعبر معه ٨٠٠ راجل فدب فيهم حتى اذا أعيوا أقعدهم فأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل مجنبتيه وقال لهريم اني مطاعن القوم فاشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شدوا فحملوا فما انثنوا حتي خالطوهم وحمل هريم خيله عليهم فطاعنوهم بالرماح فما كفوا عنهم حتي حدروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك وإبنه: ولما تم الفتح كتب به قتيبة الى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصغد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها

وفي سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحاً وكانت مدينة الفيل أحصنهن ثم غزا سمرقند وهي مدينة السغد ففتحها بعد قتال شديد وبني بها مسجداً وصلى فيه وكان معه في هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهار بن توسعة فقال يا نهار أين قولك

الا ذهب الغزو المقرب للغنى … ومات الندى والجود بعد المهلب
أقام بمرو الروذ رهن ضريحة … وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

أفغزوا هذا يا نهار قال لا هذا أحسن وأنا الذي أقول

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا … ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم
أعم لاهل الترك قتلا بسيفه … واكثر فينا مقسما بعد مقسم

ثم ارتحل قتيبة راجعاً الى مرو واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلف عنده جنداً كثيفاً وآلة من آلات الحرب كثيرة . ثم انصرف الى مرو فأقام بها وفي سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش (١) وفرغانة (٢) حتي بلغ خجندة وكاشان

(١) اقليم متاخم لبلاد الترك واقليمها اكبر اقاليم بما وراء النهر وخراسان وقصبتها بنكث وله مدن كثيرة خربت (٢) مدينة وكورة بما وراء النهر متاخمة

مدينتي فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالا شديداً فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفي سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر (١) وهي أدني مدائن الصين سار اليها من مرو فمر بفرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يقعده ذلك عن الغزو وسار الى كاشغر فافتتحها وكان بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل اليه قتيبة وفداً عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم ويهلكه فقال له هبيرة كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه قال فما الذي يرضي صاحبك قال انه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطي الجزية قال فانا نخرجه من يمينه نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمة وردهم ووطىء التراب ثم عاد الى مرو

هكذا افتتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها الى المملكة الاسلامية فانتشر فيها الاسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم: كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود

---

البلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ ف ومن ولايتها خجندة

(١) مدينة يسافر اليها من سمرقند وهي في وسط بلاد الترك

وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم الى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعد على خاتمة حياته

وأما موسى بن نصير فانه ذلك القائد العظيم الذى فتح بلاد الاندلس وأدخل الاسلام فى قارة أوربا ولما كنا عازمين أن نفرد تاريخ الاندلس بفصل خاص نعقده له فيما نستقبل من محاضراتنا ان شاء الله فانا نؤجل الكلام عن فتحه الآن

وأما مسلمة بن عبد الملك فان عزيمته ظهرت فى حروب الروم فكان فى كل سنة يسير اليهم الجنود فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التى أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك ومن الحصون التى افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية واذا ورلية وهرقلة وقمونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هابهم الروم

ولاية العهد

كان عبد الملك قد ولى عهده ابنيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه فى حق أخيه عبد العزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيه فاراد عزل سليمان وتولية عبد العزيز بن الوليد ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه الا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز فكتب اليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير اليه فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك : ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج ومن على رأيه

وأما القائد الثالث وهو موسى بن نصير فان خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فانه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه الى دمشق فقدم وقدمات الوليد وكان سليمان منحرفا عنه فعزله عن جميع الاعمال وحبسه وأغرمه مالا عظيما لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب فى معونته وعلى الجملة فان فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم

أما العامة فانهم استبشروا به لانه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم فى عهد أخيه وأطلق الاسارى وخلى أهل السجون وأحسن إلى الناس

الفتوح فى عهده

في عهد امارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم اتي جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جنداً وسار الى طبرستان فقاتله بها الاصبهبذ قتالا شديداً ثم صالحه أخيرا وبيناهو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معه فعاد اليهم وفتح جرجان الفتح الاخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحا عظيما لانها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد الى سليمان بن عبد الملك ( أما بعد فان الله قد فتح لامير المؤمنين فتحاً عظيما وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه واحسانه في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابور ذا الاكتاف وكسرى ابن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لامير المؤمنين كرامة من الله له

وزيادة فى نعمه عليه وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد ان صار الى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لامير المؤمنين ان شاء الله)

في بلاد الروم

في عهد سليمان سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتي يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحاصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر

ولاية العهد

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولى عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة فى تولية عمر بن عبد العزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة من بعدى ومن بعدك يزيد ابن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا اليهم فاخبرهم أن هذا كتابى وأمرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه

وفاة سليمان

فى يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفى سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنه اذ توفى ٤٥ سنة

# المحاضرة التاسعة والثلاثون

## عمر — يزيد الثاني

### ٨ (عمر)

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب ولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه اياه لما مات سليمان خرج رجاء بعهده الذى لم يكن فتح وجمع بنى أمية فى مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان فى كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعى عمر فاجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبد الملك يسترجع لما أخطأه

ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس فقال ماهذا قالوا مركب الخلافة قال دابتى أوفق لى وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم اقبل سائرا فقيل له منزل الخلافة فقال فيه عيال أبي أيوب وفي فساطى كفاية حتى يتحولوا فأقام فى منزله حتي فرغوه بعد

كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد الي الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون الى أمتهم نظر الاب البار ويعدلون بينهم فى الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها : كذلك كان عمر بن العزيز

في أول خلافته أرسل كتاباً عاماً الى جميع العمال بالامصار هذه نسخته (أما بعد فان سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى

ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان وإن الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس
على بهين ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان في الذي أعطاني من
ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديداً
ومسئلة غليظة الا ما عافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) .
وهذا الكتاب ينبئ عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء
وشعوره بعظيم ما ألقي عليه من أمر المسلمين

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبي
السري ان قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والانصاف
فأذن لنا فليفد منا وفد الى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فان كان لنا حق أعطيناه
فان بنا الى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوماً إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم
كتب إلى سليمان يقول له ان أهل سمرقند قد شكوا الى ظلماً أصابهم وتحاملاً من
قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فاذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر
في أمرهم فان قضى لهم فأخرجهم إلي معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم
قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي فقضي أن يخرج عرب سمرقند
إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة : فقال
أهل السغد بل نرضي بما كان ولا نجدد حرباً لا ذوي رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء
القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فان عدنا إلى الحرب لا ندرى لمن يكون الظفر
وان لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا
ولم ينازعوا : وهذا عمل لم نعلم أن أحداً وصل في العدل اليه

ومما يبين رفقه بالأمة وميله إلى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق

فكتب إلى عامله يأمره أن لا يحركهم الا أن يسفكوا دماً أو يفسدوا في الارض فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلاً صليباً حازماً فوجهه اليهم ووجه معه جنداً وأوصه بما أمرتك به فجهز لهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبد الله البجلي وكتب عمر إلى رئيس الخارجة واسمه بسطام من بني يشكر يدعوه ويسأله عن سبب خروجه فجاء كتاب عمر ومحمد بن جرير . وكان كتاب عمر بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست بأولى بذلك مني فهلم اناظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وان كان في يدك نظرنا في أمرنا : فكتب بسطام إلى عمر قد أنصفت وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك : ولما وصل هذان الرجلان إلى عمر ناظراه فقال لهما عمر ما أخرجكما هذا المخرج وما الذى نقمتم : فقال المتكلم ما نقمنا سيرتك انك لتتحرى العدل والاحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الامر أعن رضاً من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم : فقال عمر ماسألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد الى رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره على أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل وان خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لى عليكم : فقال بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فان كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم : فقال عمر قد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ان الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعاناً وقال ابراهيم (فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وقال الله عزّ وجل (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) وقد سميت أعمالهم ظلماً وكفى بذلك ذماً و نقصاً وليس لعن أهل الذنوب فريضة

لا بد منها فان قلتم انها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون قال ما أذكر متى لعنته قال أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني الا أن ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون — قال أما هم كفار بظلمهم قال لا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الايمان فكان من أقر به و بشرائعه قبل منه فان أحدث حدثاً أقيم عليه الحد فقال الخارجي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى توحيد الله والاقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء — قال الخارجي فابرأ مما خالف عملك و رد أحكامهم قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق قال بلى قال أتعلم أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذرارى وأخذ الاموال قال بلى قال أتعلم أن عمر رد السبايا بعده الى عشائرهم بفدية قال نعم قال فهل برئ عمر من أبي بكر قال لا قال أفتبرءون أنتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دماً ولم يأخذوا مالاً وأن من خرج اليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته وهي حامل قال نعم — قال فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض قال لا قال أفتبرءون أنتم من إحدى الطائفتين قال لا قال أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني الا البراءة من أهل بيتي والدين واحد فاتقوا الله فانكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم و تردون عليهم ما قبل ويأمن عندكم من

خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده فانكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمناً وحقن دمه وماله وانتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر أهل الاديان فتحرمون دماءهم وأموالهم فقال الخارجى أرأيت رجلا ولى قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذى يلزمه الله عز وجل أو تراه قد سلم قال عمر لا قال أفتسلم هذا الأمر الى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال انما ولاه غيرى والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا : وكان هذا السؤال الأخير محرجاً لعمر فطلب النظرة فى الاجابة عنه

وكانت هذه المناظرة سبباً لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء : أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ماقلت وأعلم ما حجتهم فانظروا كيف فعل عمر مع هؤلاء الناس لما اعلم أنهم انما خرجوا طلباً للآخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فانه طلبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره وهذا من نهاية الرفق بأمته

ومن أعماله العظيمة تركه لسب علي بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه فتركه وكتب إلى الامصار بتركه وكان الذي وقر ذلك فى قلبه أنه لما ولى المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شيء عما يقوله بنو أمية فقال له عبيد الله متي علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذي بلغني عنك فى علي فقال عمر معذرة إلى الله واليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع

مكان ذلك (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) فأى شر رفع وأى خير وضع وقال فى ذلك كثير عزة

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... برياً ولم تتبع مقالة مجرم

تكلمت بالحق المبين وانما ... تبين آيات الهدى بالتكلم

وصدقت معروف الذى قلت بالذي ... فعلت فأضحى راضيا كل مسلم

ألا انما يكفي الفتى بعد زيغه ... من الأود البادى ثقاف المقوم

ومن اصلاحه أمره بعمل الخانات في البلدان القاصية فقد كتب الى سليمان ابن أبى السري أن أعمل خانات فمن مر بك من المسلمين فاقروه يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين وان كان منقطعاً به فأبلغه بلده

ومما يذكر به أنه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت فى عهد الحجاج ابن يوسف فقد كتب الى أمير العراق (أما بعد فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء وان قوام الدين العدل والاحسان فلا يكونن شيء أهم اليك من نفسك فلا تحملها قليلاً من الاثم ولا تحمل خراباً على عامر وخذ منه ما طاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذن من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الارض ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من اهل الذمة فاتبع فى ذلك

أمري فاني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله) : ومما فعله انه نهي عن تنفيذ حكم بقتل أو قطع الا بعد أن يراجع فيه بعد ان كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على حسب هوي الامير وما ذكر الحجاج عنكم ببعيد ومن الحكمة أن لا يتساهل في مثل هذه الحدود وضم رأي الخليفة الى رأي القاضي الذى حكم ضمان كبير لان يكون الحكم قد وقع موقعه

رده المظالم لاهلها — لما ولى الخلافة أحضر قريشا ووجوه الناس فقال لهم ان فدك كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم انها قد صارت الى ولم تكن من مالى أعود منها على وانى أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال لمولاه مزاحم ان أهلى أقطعوني مالم يكن لى أن آخذ ولا لهم أن يعطونيه واني قد هممت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك فجرت دموعه وقال أتكلهم الى الله فخرج مزاحم حتي دخل على عبد الملك بن عمر فقال له ان أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيته عنه فقال عبد الملك بئس وزير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال ان مزاحماً أخبرني بكذا وكذا فما رأيك قال إني أردت أن أقوم به العشية وقال عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعينني على دينى ثم قام من ساعته فى الناس فردها. وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذاك مظالم ففزع بنو أمية الى عمته فاطمة بنت مروان فأتته فقالت تكلم ياأمير المؤمنين فقال ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم

ولي أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولي عمر فعمل عملها ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضي الامر الي وقد يبس النهر الاعظم فلم يرد أصحابه حتي يعود الى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فاما اذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً فرجعت اليهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بانفسكم تزوجتم باولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا

لما ولى عمر قال للناس في خطبة من صحبنا فليصحبنا بخمس والا فلا يقربنا يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده : ويدلنا من الخير على ما نهتدي اليه : ولا يغتابن أحداً : ولا يعترض فيما لا يعنيه . فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل يوم درهمين وكان يتقشف فى ملبسه كجده عمر بن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبد الملك فلما مرض مرضه الذى توفى فيه دخل عليه عمر فقال يا بنى كيف تجدك قال أجدني فى الحق قال يا بنى أن تكون فى ميزانى أحب الى من أن أكون في ميزانك فقال يا أباه لان يكون ما تحب أحب الى من أن يكون ما أحب فمات فى مرضه وله سبع عشرة سنة قال مرة لابيه يا أمير المؤمنين ما تقول لربك اذا أتيته وقد تركت حقا لم تحيه أو باطلا لم تمته فقال يا بني ان أجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الامور الي وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنا وجميلا الا تطلع الشمس

على فى يوم الا أحييت فيه حقا وأمت باطلا حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك

وعلى الجملة فان عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمح بهم القدر كثيراً . ويرى المسلمون أن عمر هو الذى بعث على رأس المئة الثانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء فى حديث « ان الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الامة أمر دينها »

وربما يسأل عمن اكتسب عمر هذه الاخلاق وهو فى بيئة المترفين والاخلاق انما تكتسب من البيئة التى يعيش فيها الانسان فنقول ان عمر بن عبد العزيز أرسله أبوه الى المدينة وهو صغير فربي فيها بين فقهائها وصلحائها فاكتسب منهم حسن الخلق ومحبة الامة والعفة عن أموالها والرأفة بها . قال محمد بن على الباقر ان لكل قوم نجيبة وان نجيبة بنى أمية عمر بن عبد العزيز وانه يبعث يوم القيامة أمة وحده وقال مجاهد أتيناء عمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه وقال ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت مذ علمت ان الكذب يضر أهله

لم يحدث فى عهد عمر شىء من الحوادث الداخلية المهمة الا ما كان من القبض على يزيد بن المهلب واحضاره الى عمر فسأله عن الاموال التى كتب بها الى سليمان ابن عبد الملك فقال كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت وانما كتبت الى سليمان لاسمع الناس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به فقال لا أجد فى أمرك الا حبسك فاتق الله وأد ما قبلك فانها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها وحبس بحصن حلب فجاء عمر مخلد بن يزيد بن المهلب فقال يا أمير المؤمنين ان

الله منح هذه الامة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقي الناس بولايتك
علام تحبس هذا الشيخ أنا حمل ما عليه فصالحني علي ما تسأل فقال عمر لا الا أن تحمل
الجميع فقال يا أمير المؤمنين ان كانت لك بينة فخذ بها والا فصدق مقالة يزيد واستحلفه
فان لم يفعل فصالحه فقال عمر ما آخذه الا بجميع المال فخرج مخلد من عنده ولم يلبث
أن مات فصلى عليه عمر بن عبد العزيز واستمر المهلب في سجنه حتى اذا أحس بقرب
موت عمر أعد للهرب عدته خوفا من يزيد بن عبد الملك لانه كان قد عرب آل أبى
عقيل وهم أصهار يزيد لانه كان متزوجا ببنت أخي الحجاج وهرب بن المهلب
قاصدا البصرة وكتب الى عمر اني والله لو وثقت بحياتك لم اخرج من محبسك
ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة فورد الكتاب وبعمر رمق فقال اللهم
ان كان يريد بالمسلمين سوءاً فالحقه به وهضه فقد هاضني

ومن الحوادث الخارجية فى عهده انه كتب الى ملوك السند يدعوهم
الى الاسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا
باسماء العرب

واستقدم مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطنية وأمر أهل طرندة
بالقفول عنها الى ملطية وطرندة داخلة فى البلاد الرومية من ملطية بثلاث
مراحل وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة
٨٣ وملطية يومئذ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم
الى أن ينزل الثلج ويعودون الى بلادهم فلم يزالوا كذلك الى أن ولي عمر فأمرهم
بالعود الى ملطية واخلى طرندة خوفا على المسلمين من العدو
وأخرب طرندة

وفاة عمر بن عبد العزيز

في ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفى عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ في تقويم مختار باشا المصرى أربعة عشر يوما بدل أربعة أيام لانه ذكر وفاة سليمان فى ٢١ صفر سنة ٩٩ وبين هذا التاريخ ووفاة عمر ما ذكرناه الا انه ذكر في بعض الروايات ان سليمان توفي لعشر مضين من صفر بدل بقين منه واذا كان ذلك صح أن تكون الايام أربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية فى موت سليمان بل ذكر وفاته في ٢١ صفر

٩ ﴿ يزيد الثانى ﴾

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد اليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفى عمر بويع بها فلما تولى عمد الى كل صالح فعله عمر فأعاده الى ما كان عليه وهو أول خليفة من بنى أمية عرف بالشراب وقتل الوقت فى معاشرة القيان

وفى أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فانه لما هرب من محبس عمرو بلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدي ابن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والاهواز فبعث اليه يزيد بن عبد الملك جيشا عظيما يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك. خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم انه يدعوهم الى كتاب الله وسنته وحثهم على الجهاد وزعم ان جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم فسمعه الحسن البصرى سيد فقهاء اهل البصرة فقال والله لقد رأيناك واليا ومولياً عليك فما ينبغى لك ذلك فقام اليه

أناس فأسكتوه خوفاً من أن يسمعه ابن المهلب :

وروى الطبري أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعونا الى سنة العمرين فقال الحسن انما كان يزيد بالامس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها الى بنى مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب قصباً ثم وضع عليها خرقاً ثم قال انى قد خالفتهم فخالفوهم قال هؤلاء القوم نعم وقال انى أدعوكم الى سنة العمرين وان من سنة العمرين أن يوضع قيد فى رجله ثم يرد الى محبس عمر الذى فيه حبسه

ثم ان يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطاً فأقام بها أياما ثم سار منها حتى التقي بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود ولما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم فى السفن البحرية حتي اذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى اذا انتهوا الى قندابيل لحقهم الجند الذى امر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم الا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فانهما نجوا : وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الاموية من تتباهى الامم بهم ولما تم على يدى مسلمة بن عبد الملك اخماد هذه الفتنة ولاه أخوه العراقين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزاري فقال فى ذلك الفرزدق الشاعر

راحت بمسلمة الركاب مودعا     فارعى فزارة لا هناك المرتع

عزل ابن بشر وابن عمرو قبله     وأخو هراة لمثلها يتوقع

ولقد علمت لئن فزارة أمرت ... أن سوف تطمع في الامارة اشجع

من خلق ربك ماهم ولمثلهم ... في مثل مانالت فزارة تطمع

يعني بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمرو محمد بن عمرو ابن الوليد وبأخي هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملا لمسلمة على خراسان

وولى ابن هبيرة سعيداً الحرشي على خراسان وكانت له مع السغد أهل سمرقند وقائع عظيمة من كثرة مانقضوا كاد يستأصلهم فيها

وفي عهده دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالا شديداً فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع مافيه واقبل المنهزمون الى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال يا أمير المؤمنين ماجبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انقطع سيفي غير أن الله تبارك وتعالى يفعل مايريد ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا في بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد الجراح بن عبد الله الحكمي حينئذ على ارمينية وامده بجيش كثيف وامره بغزو الخزر وغيرهم من الاعداء فسار الجراح حتي وصل برذعة وبعد أن استراح سار نحو الخزر فعبر نهر الكر ولما وصل الى مدينة الباب والابواب لم يجد فيها احداً من الخزر فدخلها بغير قتال ثم اقبل اليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفراً عظيما ثم سار حتي نزل على حصن يعرف

بالحصين فنزل أهله بالامان على مال يحملونه فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم عنه . ثم سار الى بلنجر وهو حصن عظيم من حصونهم فنازله وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الابصار ثم ان الجراح أخذ اولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل اليه فحضر ورد اليه امواله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبره بما يفعل العدو ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألفا من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة أثرا وفتحا في تلك البلاد القاصية

ولاية العهد

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده فقيل له انه صغير فولى أخاه هشاما ومن بعده ابنه الوليد

وفاة يزيد

لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفي يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من ارض دمشق وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة وقد أقام خليفة أربع سنين وشهرا من ٢٥ رجب سنة ١٠١ الى ٢٥ شعبان سنة ١٠٥

المحاضرة الاربعون

هشام — الاحوال الداخلية في عهده — صفته ووفاته — الوليد الثاني يزيد الثالث — مروان الثاني

١٠ ﴿ هشام ﴾

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة ٩٢ من الهجرة وكان ابوه عبد الملك اذ ذاك يحارب مصعب بن

الزبير وامه عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومية

وكان حين مات اخوه يزيد مقيماً بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى اتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة الى سادس ربيع الاول سنة ١٢٥ أى تسع عشرة سنة وستة أشهر واحد عشر يوما وكان هشام معدوداً من خير خلفاء بنى امية ولعمرى ان من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير بذلك

الاحوال الداخلية فى عهده

فى العراق والشرق — كان أمير العراق حين ولى هشام عمر بن هبيرة وكان لهشام فكر حسن في أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى بدله خالد بن عبد الله القسرى وهو قحطاني . فاختاره لولاية خراسان أخاه أسد بن عبد الله واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على السند

فاما أسد بن عبد الله فقد كان هماما مقداما غزا فى اول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم . وفى سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند الى بلخ واقطع كل من كان له بالبروقان مسكنا بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن اقطعه مسكنا وتولى بناء مدينة بلخ برمك ابو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان : وكان من عيوب أسد انه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس ضرب نصر بن سيار ونفرا معه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر والبخترى بن ابي درهم وحلق رءوسهم وسيرهم الي اخيه خالد وهؤلاء هم قروم مضر فقال في ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمى من مضر

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا

اذا للقيتم عند شد وثاقه بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا

وخطب أسد يوماً فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني الى مهاجري ووطني فبلغ فعله ذلك هشاما فكتب الى خالد أعزل أخاك فعزله ثم ولى هشام خراسان أشرس بن عبد الله السلمي وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلا خيراً وكانوا يسمونه الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به : ولاول عهده أرسل الى أهل سمرقند وماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك الي الاسلام فكتب صاحب الخراج الى أشرس ان الخراج قد انكسر فكتب اشرس الي أمير سمرقند ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة انما اسلموا تعوذا من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع اخراجه : كان رسول أشرس الى الصغد بدعوة الاسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأي العمال يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا ولج وكانت النتيجة ان عصى أهل الصغد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس على أبي الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتي جيء بهم فحبسهم واستخف بعد ذلك بعظماء العجم والدهاقين فكفر أهل الصغد واستجاشوا الترك فاعانوهم . لما علم بذلك أشرس خرج غازيا في جنود حتى عبر النهر من عند آمل فاقبل اليه الصغد والترك وكان بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون ينهزمون فيها لولا ان رجعوا فثبتوا حتى هزمو

عدوهم : ثم سار أشرس حتى نزل بيكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشاً لولا أن انتدب شجعانهم الى الترك فأزالوهم عن الماء واستقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم

فذهب خاقان الى مدينة كمرجة وهى من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخاري فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التى علي الخندق واستماتوا فى المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل الى من بالمدينة يقول لهم انه ليس من رأينا أن نرحل عن مدينة نحاصرها حتى نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم ثم اتفق معهم خاقان أخيرا على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة الى سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة الي الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين

وفى سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد بن عبد الرحمن المرى فلما جاء خراسان نزع عماله ولم يستعمل الا مضريا

وفى سنة ١١٢ خرج غازيا يريد طخارستان فوجه جندا عدده ثمانية عشر الفاً الى طخارستان وجندا عدده عشرة آلاف الى وجه آخر فكتب اليه أمير سمرقند ان خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت اليهم فلم

أطق ان أمنع حائط سمر قند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور
النهر . فقال له ذوو الرأى ممن معه ان أمير خراسان لا يعبر النهر فى أقل
من خمسين ألفاً وأنت قد فرقت جندك : قال فكيف بسورة (أمير سمر قند)
ومن معه من المسلمين لو لم أكن الا فى بنى مرة أو من طلع معى من الشام لعبرت
ثم عبر فنزل كس وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجنيد
بالناس حتى صار بينه وبين سمر قند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان
فى جمع عظيم وزحف اليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا
ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسناً مع قلة عددهم وكثرة
عدوهم ولما اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله
ابن حبيب اختر اما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر : قال هلاك سورة أهون علىّ
قال فاكتب اليه فليأتك فى أهل سمر قند فانه اذا بلغ الترك اقباله توجهوا اليه
فقاتلوه : فكتب الجنيد إلى سورة يأمره بالقدوم : فرحل سورة عن سمر قند
فى اثنى عشر ألفاً فلما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشد
قتال فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا
فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم
الترك ولم ينج منهم الا القليل

وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم على المسير إلى
سمر قند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الوقعة الاولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم
المسلمون ومضي الجنيد فنزل سمر قند وحمل عيال من كان مع سورة الى مرو وأقام
بالصغد أربعة أشهر ثم بلغه ان خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من سمر قند محترساً

على تعبية فلقيته بالطريق جنود خاقان فهزمها : ولم يزل سائراً حتى ورد بخاري :
والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم
لهذا العدو الكثير العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد في تدبيره

وفي سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولي بدله عاصم بن عبد الله الهلالي
وكان هشام قد غضب على الجنيد لانه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فقال
لعاصم ان أدركته وبه رمق فأزهق نفسه فجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحه الله من
هذا الشر الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد
وعذبهم وفي عهده خرج عليه الحارث بن سريج لابساً السواد داعياً الى كتاب الله
وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعه خلق كثير فاستولى على بلخ والجوزجان ثم قصد
مرو وبها عاصم فقابله عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده
بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الأعظم وهرب الحارث

لما رأى عاصم حال خراسان كتب الى هشام بن عبد الملك يقول له ( أما بعد
فان الرائد لا يكذب أهله وان خراسان لا تصلح الا أن تضم إلى العراق وتكون
موادها ومعونتها في الاحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها
وتباطوء غياثه عنها ) فعزل هشام عاصماً عن خراسان وولاها أسد بن عبد الله
القسري وجعلها من ضمن ولاية خالد : ولما بلغ عاصماً اقبال أسد صالح الحارث
ابن سريج على أن ينزل الحارث أي كور خراسان شاء وان يكتبا جميعاً الى هشام
يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فان أبى اجتمعا عليه فختم
الكتاب بعض الرؤساء وأبى آخرون وقالوا هذا خلع لامير المؤمنين فلم يتم أمر
الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم فيها الحارث هو وأصحابه

ولما قدم أسد حبس عاصماً وحاسبه وطلب منه مئة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد

وعمل أسد في تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان في معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت قاعدة عمله : ثم ان خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم على بعض : وأرسل أسد مبشراً الى هشام بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكراً

وفي سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعتهم العظمى وفرق العسكر في أودية الختل فملئوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله الى الصين : وفي سنة ١٢٠ توفي أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالداً القسري عن العراق لوشاية أثرت في نفسه وولي مكانه يوسف بن عمر الثقفي وكان عاملاً على اليمن فسار حتى أتى الكوفة في جمادى الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عماله حسب تلك السنة القبيحة المشؤمة

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوي الاخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ضابطاً لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعاً حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلي الضحي ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفاً في ضرب الابشار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمر ظفره عليه فان تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله في الحمق نوادر كثيرة

ولى خرسان نصر بن سيار ولاه هشام وأمره أن يكاتب يوسف ابن عمر

وفى ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن على بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سراً قيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بنى عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ: وبلغت الاخبار يوسف بن عمر وهو بالحيرة فتهيأ له ولما علم بذلك أهل الكوفة جاؤا زيداً وقالوا له: ماقولك فى أبى بكر وعمر قال رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتى يقول فيهما الا خيراً وان أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بسلطان ما ذكرتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الناس أجمعين ندفعو ناعنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً وقد ولوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة: قالوا فلم يظلمك هؤلاء اذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو الى قتالهم: فقال ان هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لى ولكم ولانفسهم وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والى السنن أن تحيا والى البدع أن تطفأ فان أجبتمونا سعدتم وان أبيتم فلست عليكم بوكيل ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الامام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات فسماهم زيد الرافضة. وفي الليلة التي كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأته اكثر من مئتى نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى الامر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه الى هشام فصلب على باب دمشق: والى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن

. ما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ماوراء النهر كان له فيها

النصر دائماً : ووضع الجزية عمن أسلم من العجم ، وانتهت مدة هشام ويوسف ابن عمر على العراق ونصر على خراسان

في أرمينية وأذربيجان — كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمي وكان له غزوات الى ماوراء بلنجر وفي سنة ١٠٧ عزله هشام وولي بدله مسلمة بن عبد الملك فارسل مسلمة نائباً عنه وهو الحارث ابن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقا وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً وفي سنة ١١٠ سار مسلمة الى الترك من باب اللان فلقى ملكهم في جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر وكانت الهزيمة على الترك

وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالماً فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بمرج أردبيل : وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشي واتبعه بالجنود ولما وصل ارزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل الى خلاط فافتتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شيء الى أن وصل برذعة فنزلها : كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورثان ولما بلغه وصول الحرشي رحل عنها فوصلها الحرشي وليس بها أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أساري وسبايا فسار اليهم ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه

فى أربع جهات فكبسهم مع الفجر فما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم الى باجروان: ثم تجمعت الخزر مرة أخري ولقيها الحرشي بجهة برزند واقتتلوا اقتتالاً شديداً انهزم فيه الخزر هزيمة منكرة وعلى الجملة فان الحرشي أذل الخزر اذلالاً شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه

وأرسل الحرشي بأخبار انتصاه الى هشام فكتب اليه هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانياً فسار إلي الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد فى آثارهم وفتح مدائن وحصوناً ودان له من وراء بلنجر فاجتمعت تلك الامم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع كثير فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل الى الباب والابواب فى آخر رمق

وفي سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا اليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئاً مع هذا العدو الشديد وطلب اليه أن يوليه أرمينية وأن يمده بمئة وعشرين ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فاجابه الى ذلك هشام وعزل مسلمة وولى مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود اليه فدخل مروان بلاد الخزر وسار فيها حتى انتهى الى آخرها وملك الخزر ينفض بجموعه أمامه ذليلا فاقام مروان فى تلك البلاد أياماً ودخل بلاد ملك السرير فأوقع باهله وفتح اقلاعاً ودان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ما عليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان يلح على أهل تلك

البلاد باظهار القوة حتي لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفا شديداً ودانت له جميع البلاد التي على شاطىء بحر الخزر

في الشمال

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالى للبلاد الاسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جد الاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتي والصوائف دائمة الحركة وممن اشتهر بقيادة الجيوش في تلك الاصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولى أرمينية) ومسلمة بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان بن هشام وقد افتتحوا في غزواتهم بلدانا كثيرة رومية منها قونية وخرشنة وقيسارية وكثيرا من الحصون والقلاع

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر في عهد هشام عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ومن أكبر القواد عبدالله بن عقبة

ومما ينبغي ذكره في حروب الروم قتل عبد الوهاب بن بخت سنة ١١٣ وكان يغزو مع عبدالله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الرى أمامك فخالط القوم فقتل : وفي سنة ١٢٢ قتل عبد الله البطال وكان كثير الغزو الى بلاد الروم والاغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنه مسلمة الى بلاد الروم وأمره على رءوس

أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلائعه وقال انه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم

وانما اشرنا الى ذكر عبد الوهاب والبطال لانهما بطلا رواية كبيرة ألفت فى عصر لا نعلمه بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهمة والعامة يلفظونها ( الدلهمة ) وهى أم عبد الوهاب وقد كنا في صغرنا نسمعها من بعض ( المحدثين ) ونتفكه بقراءتها واليوم لا نرى أحدا يقرأ منها شيئاً : وخيالها يشبه خيال سيرة الظاهر بيبرس فيظهر انهما ألفا فى عصر واحد

فى الحجاز

كان والى الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبد الملك بن مروان وفى سنة ١٠٦ حج هشام بن عبد الملك : ومما يروي عنه فى حجه هذا أنه لقيه سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان فسار الى جنبه يقول يا أمير المؤمنين ان الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون فى هذه المواطن أبا تراب فانها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغي له ان يلعنه فيها : فشق على هشام قوله وقال لا قدمنا لشتم أحد ولا للعنه قدمنا حجاجاً ثم . قطع كلامه وأقبل على أبى الزناد راوى هذ الحديث يسأله عن الحج ومناسكه

ولما دخل مكة كلمه ابراهيم بن محمد بن طلحة وهو فى الحجر فقال له أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظما له الا رددت على ظلامتي قال أى ظلامة قال دارى قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك قال ظلمنى : قال فالوليد وسليمان قال ظلمانى قال فعمر : قال رحمه الله

ردها على قال فيزيد بن عبد الملك . قال ظلمني وقبضها مني من بعد قبضى لها وهي فى يدك فقال هشام لو كان فيك ضرب لضربتك قال في والله ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول لا يزال فى الناس بقايا ما رأيت مثل هذا

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذى يقيم للناس حجهم الا فى سنة ١١٦ فان الذى أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولى العهد وفى سنة ١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك

ولم يحصل في الحجاز حوادث ولا ثورات في عهد هشام

أما أمر مصر والمغرب فسنتكلم عليه ان شاء الله وحده فى تاريخ مصر هذا مجمل حال الامة العربية فى عهد هشام الذى طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الاعداء الا أن الذى يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والربعية ومن عيوب الامم الكبرى ان تكون شعبا جنسية فان هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلا لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قويا فاذا ضعف اثره قليلا ونبض عرق التعصب الذميم فمن المؤكد انه لا بقاء للأمة معه وهكذا كان حال الامة العربية بعد هذا العهد بقليل

ولاية العهد

كان ولي العهد بحسب وصية يزيد بن عبد الملك وهو الوليد بن يزيد فبدا لهشام ان يعزله ويولي بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وأن كان قد أجابه بعض القواد الى ما أراد : وقد انتهى زمن هشام والوليد متباعد له نازل بالازرق على ماء له بالاردن

وفاة هشام

لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفى هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما ( من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ الى ٦ ربيع الاول سنة ١٢٥ )

صفته

كان هشام مشهورا بالحلم والعفة : شتم مرة رجلا من الاشراف فقال له الرجل أما تستحى أن تشتمني وانت خليفة الله في الارض : فاستحيا منه هشام وقال اقتص مني قال اذاً انا سفيه مثلك قال فخذ مني عوضا من المال قال ما كنت لافعل : قال فهبها لله : قال هي لله ثم لك : فنكث هشام رأسه واستحيا وقال والله لا أعود لمثلها ابدا

قال عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس جمعت دواوين بنى أمية فلم أر ديوانا أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض : والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة المزانية التي بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف :

ولعل هذا هو الذي جعل الناس يصمونه بوصمة البخل لان ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفاً حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا بذكره . ومما يؤخذ عليه مافعله مع الوليد بن يزيد فانه اساء اليه كثيراً حتى ساء خلقه : ودعا القواد إلى خلع الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجعلهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته

١١ ﴿ الوليد الثاني ﴾

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي كان ولي العهد بعد هشام وكان مغاضباً له في حياته حتى خرج وأقام في البرية كما ذكرنا

ولم يزل مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان أول مافعله أن كتب الى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحمي مافيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه الا مسلمة بن هشام فانه كلم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد . وقد أثر عن الوليد شعر كثير في الشماتة بهشام فمن ذلك قوله

هلك الاحول المشـ ـئوم وقد أرسل المطر
وملكنا من بعد ذا ك فقد أورق الشجر
فاشكر الله انه زائد كل من شكر

وقوله

ليت هشاما كان حيا فيرى محلبه الاوفر قد أترعا
ليت هشاما عاش حتى يري مكياله الاوفر قد طبعا

كلناه بالصاع الذى كاله ... وما ظلمناه به اصبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعة ... أحله الفرقان لي أجمعا

كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاما عليه وهم كثير من سادة الامة وأفراد البيت الاموى

كان ممن أجاب هشاما الى خلع الوليد محمد وابراهيم بناهشام بن اسماعيل المخزوميان فوجه الوليد الى المدينة يوسف بن محمد الثقفي واليا عليها ودفع اليه محمداً وابراهيم موثقين فى عباءتين فقدم بهما المدينة فاقامهما للناس ثم حملا الى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك بالقرابة . قال أي قرابة بيننا قال فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب بسوط الا فى حد . قال ففى حد أضربك وقود أنت أول من فعل بالعرجى وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان ( وكان محمد قد اخذه وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه الى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجى اياه ) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه ابراهيم ثم أوثقهما حديدا وأمر أن يبعث بهما الي يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه عذبها حتي ماتا

وأخذ سليمان بن هشام بن عبد الملك فضربه مئة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه الي عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالك

وكان خالد بن عبد القسري سيداً من سادات اليمن فطلب اليه الوليد أن يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبي فغضب عليه الوليد وكان ذلك سبباً في أن أرسله الى يوسف بن عمر الثقفي والى العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله الى الكوفة فعذبه عذاباً شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه قضاعة وهم اليمن أكثر جند الشام

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم فيه يزيد بن عبد الملك وكان الناس الى قوله أميل لانه كان يظهر النسك بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله الا شهوة الانتقام التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها اصلاح واذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع أتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنه لم ينته وبايع الناس سراً وبث دعاته فدعوا اليه الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان وهو بارمينية فكتب الى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهي الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الامر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد الى العباس بن الوليد فاستدعي العباس يزيد وتهدده فكتمه يزيد الخبر فصدقه : ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق وقد بايع له اكثر أهلها سراً وكان واليها عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق وجهز جيشاً لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فذهب اليه وهو بالاغدف من أرض عمان فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليه بابه

وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رمح وطيف به في دمشق

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر : وبقتله افتتح باب الشؤم على بني أمية

١٢ ﴿ يزيد الثالث ﴾

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسري وفي ذلك يقول

أنا ابن كسري وأبي مروان وقيصر جدي وجدي خاقان

بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكان يسمى يزيد الناقص قيل لانه نقص من أعطيات الناس مازاده الوليد بن يزيد وردها إلى ما كانت عليه زمن هشام : وكانت ولاية يزيد فاتحة الاضطراب في البيت الاموى ومبدأ انحلاله وذهاب سعادته

وأول ما كان من الاضطراب بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد ممن قتله وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان بن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملاً للوليد على حمص وهو من سادة بني مروان نبلا وكرماً وعقلاً وجمالاً : فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل اليهم رسلاً فيهم يعقوب بن هانيء وكتب اليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وانما يدعو الى الشورى فلم يرض بذلك أهل حمص وطردوا رسل يزيد وحينئذ جهز لهم جيشاً عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حوارين : كان أهل حمص يريدون الذهاب إلى

مشق فشرع إليهم مروان بن عبد الله أن يبدءوا بقتال هذا الجيش فاتهموه فقتلوه
هو وابنه وولوا أبا محمد السفياني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلي
دمشق فسار سليمان مجداً في اثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جنداً
آخر يقدمه عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فهزموهم وقتلوا
منهم عدداً عظيماً وأسروا فلما رأوا ذلك دانوا ليزيد وبايعوه . وكما فعل أهل حمص فعل
أهل فلسطين فانهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك
وكذلك فعل أهل الاردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل
فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير اليهم يزيد سليمان بن هشام في أهل
دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفاً ولم
تتم لاهل فلسطين والاردن لانهم اختلفوا فتفرق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الامر على أشد من ذلك بالعراق
والمشرق فان يزيد ولى العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر
فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان
فامتنع نصر بن سيار من تسليم عمله الى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس
بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم : قام في وجهه رجل من كبار
اليمن هو جديع بن علي الازدي المعنى ويلقب بالكرماني لانه ولد بكرمان وقام
معه اليمانية يريدون افساد الامر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصبية
له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب وهما
اليمانية والنزارية فاستحضر نصر الكرماني وحبسه فاحتالت الازد حتى
أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع بينهما ولولا

أن سعى الناس بالصلح بينهما ولكنه صلح على فساد لان كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئاً لدعاة بني العباس : ولم يكن عند ولاة الامر من بني أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلمة التي أثاروها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فانه توفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة اشهر واثنين وعشرين يوماً من استخلافه : وكان قد عهد بالولاية من بعده لاخيه ابراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك : فلما توفي يزيد قام بالامر من بعده أخوه ابراهيم غير أنه لم يتم له الامر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالامارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والي الجزيرة وأرمينية لم يرض ولاية ابراهيم فسار الى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل عين الجر قابلته جنود أرسلت لحربه من قبل ابراهيم بن الوليد فانتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتي أتي دمشق فاستولي عليها وبايعه أهلها وهرب ابراهيم بن الوليد فأمنه مروان ولعدم تمام الامر لابراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء

## ١٣ ﴿ مروان الثاني ﴾

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الاشتر فاخذها محمد بن مروان يوم قتل ابراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان والياً على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدى لانه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه

في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . و بويع بالخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع الى أن قتل

وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة داعيا الى نفسه و كان معه من الشيعة عدد عظيم جداً و كان والى العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فجد في حربه و كانت العامة تميل اليه لمحبتهم لابيه فساعده ذلك على أن غلب عبد الله ابن معاوية و نفاه عن العراق

ثم كان بالشام ماهو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالى على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليه اهل حمص و كان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم خالف عليه أهل الغوطة فحاربهم وانتصر عليهم . ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم : ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك فانه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة . فأجابهم الى ذلك وسار باخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فاتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياء فاقبل اليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة انانهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عدداً عظيما فقتلهم ويقال انه أحصيت القتلي من جند سليمان يومئذ فبلغت

ثلاثين ألفاً ومضى سليمان فى هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فقصده مروان وفي الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار الى تدمر فاقام بها أمام مروان فاتي حمص واستولى عليها افانتم ترون ان القوة التي كان يرتكز عليها ملك بنى أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقاقاً محزناً تبعاً لانشقاق البيت المالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذى يعرف كيف ينتهز الفرص

لم تقف الاضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لاظهار ما فى أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيبانى وأتى الكوفة واستولي عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبد الله الى واسط فتبعوه ولما اشتدت الحرب سلم عبد الله الامر الى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية وكذلك دخل فى هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك للضحاك عاد الى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان اذ ذاك محاصراً لحمص فلما بلغه الخبر كتب الى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير الى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار اليها فى سبعة آلاف فسار اليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مئة ألف ولما انتهي مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقي به فى نواحى كفرتوثا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولي الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبرى أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهزم القلب وفيه مروان ووصل الخيبري الى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر قلة من مع الخيبرى ثار اليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان وقد جاز العسكر بخمسة أميال منهزماً فانصرف الى عسكره ورد خيوله الى

مواقعهما وبات ليلته في عسكره

ولما علم الخوارج بقتل الخيبري ولوا بدله شيبان بن عبد العزيز اليشكري فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأى ان الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه الي الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر

في أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هبيرة الي العراق بالجنود فأجلى الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جند المساعدة مروان فلما علم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان في أثره جندا وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فان قاتله شيبان قاتله فلم يزل يتبعه حتى لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكرة فمضى شيبان الى سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠

ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الازدي الشهير بابي حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو الناس الى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافي عبد الله بن يحيي في آخر سنة ١٢٨ فقال له يا رجل أسمع كلاما حسنا أراك تدعو الى حق فانطلق معي فاني رجل مطاع في قومي فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا الي خلاف مروان وآل مروان

وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩ اذ اطلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رءوس الرماح وهم سبعمئة ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا أضن وعليه

أشح فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الاخير

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الاول نفر عبدالواحد فيه وخلى مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال . ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليهم عبد العزيز ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان فمضوا حتى اذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبى حمزة فاوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حربا فرقي منبرها وقال بعد أن حمد الله وأثني عليه تعلمون ياأهل المدينة انا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا ولكنا لما رأيناه مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الارض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز فى الارض) أقبلنا من قبائل شتي النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وانفسهم يتعاورون لحافا واحداً قليلون مستضعفون فى الارض فآوانا وأيدنا بنصره فاصبحنا والله جميعا بنعمته اخوانا ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم الي طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا الي طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي ثم أقبلوا يهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذى رونق ندارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون

وأنتم ياأهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بايدينا ويشف صدور قوم مؤمنين يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر ياأهل المدينة الناس منا ونحن منهم الا مشركا أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو اماما جائرا ياأهل المدينة من زعم أن الله عز وجل كلف نفسا فوق طاقتها أو سألها مالم يؤتها فهو لله عز وجل عدو ولنا حرب ياأهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل فى كتابه على القوى والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد فاخذها لنفسه مكابراً محارباً لربه ياأهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابى قلتم شباب احداث واعراب جفاة ويلكم ياأهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا شبابا أحداثا شباب والله مكتهلون في شبابهم غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا الله عز وجل أنفسا تموت بانفس لا تموت قد خالطوا اكلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا باية شوق شهقوا شوقا الى الجنة فلما نظروا الي السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت والي السهام قد فوقت وارعدت الكتيبة بصواعق الموت واستخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت فى جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها أقول قولى هذا وأستغفر الله من تقصيرنا (وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)

ثم ان أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد

انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد ابن عطية السعدي وأمره أن يجد في السير ويقاتل الخوارج فاذا ظفر بهم سار حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيى فسار ابن عطية حتي لقي أباحمزة بوادى القري فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار الى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار الى اليمن وبلغ عبد الله بن يحي مسيره اليه وهو بصنعاء فأقبل اليه بمن معه ولما التقيا قتل عبد الله وحمل رأسه الى الشام

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجرى فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعة بنى العباس ورئيسهم المقدام أبي مسلم الخراساني على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بنى العباس ثم مدوا سلطانهم الي العراق فاستولوا عليه من عمال بنى أمية (وسنفصل حديثهم وما كان منهم حينما نشتغل بتاريخ الدعوة العباسية)

وفى شهر ربيع الاول سنة ١٣٢ بويع بالكوفة لابي العباس السفاح أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الامر بالعراق فكر في ارسال الجند لمروان حتى يقضي عليه القضاء الاخير فاختار عمه عبدالله بن على قائداً لذلك الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٣ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة صار مروان ينتقل من بلد الى آخر وعبد الله بن على يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبد الله فى أثره أخاه صالح بن على فلم يزل وراء حتى عثر به نازلا فى كنيسة

بقرية بوصير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الاموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)

---

## الخاتمة

### فى مدنية الاسلام في عهد الدولة الاموية وأسباب سقوطها

### الخلافة الاسلامية

لبست الخلافة فى عهد الدولة الاموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدهم عنه باب وجد فى العهد الاموى الحجاب والمقاصير فى المساجد الجامعة . وبعد أن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد قتل ابن الزبير ولا يأمرني احد بتقوي الله بعد مقامى هذا الا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كاحدهم في الاسواق والمجامع يأمر وينهى ويربى ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنه واحترام الامير عمر بن عبد العزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نروى الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد للوليد بن يزيد ابن عبد الملك حينما جاءه نعي عمه هشام بن عبد الملك

طاب يومي ولذة شرب السلافة　　وأتانا نعى من بالرصافة
وأتانا البريد ينعى هشاماً　　وأتانا بخاتم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزىء أحدهم بأقل مما يجتزي به الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافا لا عليه ولا له صرنا نرى بعض بنى مروان قد انغمسوا فى الترف فاختيرت لهم الالوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الاغانى من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد : وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة فى هذه الدولة قد انحصرت فى بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولى عهده من أهل بيته اما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن الملك العقيم وبعد أن كانت الامة تساس بوازع الدين وأثره فى النفس رأيناها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة الناس فى عهد أبي بكر وعمر فكانه يعتذر لهم عن قسوته فى معاملتهم بانهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الاخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له

هم بدلوا الحكم الذى في سجيتى　　فبدلت قومي غلظة بليان

واذا كنا على رأى من يقول ان الأمة هي التى تخلق ملوكها (وهو قول حق ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه

وعلى الجملة فان مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها فى آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة فى بيت واحد

## الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بني أمية على اختيار أولياء العهد في حياتهم فكلهم كان مختاراً من سلفه ماعدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد فان أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الامر واجتمعت عليه الكلمة : ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية على يد ابنه عبد الملك : ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني حتي قتله وحل محله : ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل في أخذ ورد حتي دالت دولتهم على يده

اما من عدا هؤلاء الاربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الاول اختاره أبوه معاوية . ومعاوية الثاني اختاره أبوه يزيد : وعبد الملك اختاره أبوه مروان : والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبد الملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان الاول ابن عمه والثاني أخوه وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد الاول أخوه والثاني ابنه

ولم يحصل في عهد بني أمية أن اختار أحدهم واحداً كولاية عهده بل كانوا دائما يختارون من يلي عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التي جربوا سوء نتائجها ولم يرعووا عنها فكانت سبباً مهماً من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتي توضيحه

وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم فاذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد والميثاق : وأول من كان يبايع أمراء البيت الاموى ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم

وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد شذوا أحياناً عن نص هذه البيعة اذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المرى البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم فى أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة ابن الاشعث لا يبايع الا من أقرّ على نفسه بالكفر بخروجه

ادارة البلاد

كانت البلاد الاسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم

وكانت مقسمة الى أمارات كبرى وهي

(١) الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقيم الامير بالمدينة وكان يضاف الى ذلك أحياناً بلاد اليمن واحياناً تكون مستقلة بأمير

(٢) العراق وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والامير يقيم في الكوفة بعض السنة وفى البصرة بعضها وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يخاطب الخليفة رأساً : وقد يضاف أحياناً الى امارة العراق بلاد اليمامة

(٣) الجزيرة وأرمينية وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية

(٤) أجناد الشام وكانت خمسة وهي فلسطين — والاردن — ودمشق وحمص — وقنسرين وكانت قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتي كان يزيد ابن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبجا جنداً برأسه وانما سمي كل منها جند لانه يجمع كوراً والتجند التجمع وقيل سميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيه والاقرب أن هذا هو أصل التسمية

( ٥ ) مصر وأفريقية وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقية وكانت أفريقية في بعض الاحيان تستقل بوال عن مصر

( ٦ ) بلاد الاندلس بعد فتحها وتارة كانت تضم الى أفريقية

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود أمارته

كانت الاعمال التي ترجع الى الخلفاء هي ( ١ ) اقامة الصلاة ( ٢ ) قيادة الجيش ( ٣ ) جباية الخراج والصدقات ووضع ذلك مواضعه ( ٤ ) القضاء بين الناس في منازعاتهم: وقد كان الامير يقوم مقام الخليفة أحيانا في جميع ذلك يقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جابياً للخراج فيصرف منه حاجات الامارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى الى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس وتارة كانوا يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع اليه رأسا

والامراء الذين كانت اليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في العرف الحاضر بالاستقلال الاداري فكانوا يتصرفون في كل شيء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الامور العظيمة . وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله . والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري الا أن الحجاج كان اكثرهم استقلالا للثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضي في حواضر الامارات الا انه لا مانع تمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره الى الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته وقد يضيق على

الامراء عمر بن عبد العزيز بعض التضييق لان ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم ان لا ينفذوا احدا من الحدود من قتل أو قطع الا اذا عرض عليه وأمر بتنفيذه : أما فى عهد غيره فكان الامراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يامر بقتل الرجل على أيسر الذنوب أو يضرب به الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لا من الخليفة ولا من الناس

والذي دعا الى تمتع الامراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلو ألزم الامير أن يستشير فى كل ما يقع فى دائرة ولايته لطال عليهم الزمن وبقيت المشاكل من غير حل زمنا طويلا وهذا مسبب للاضطراب الكثير

ومن أعظم ما يؤخذ على بنى أمية فى النصف الثانى من أيام خلافتهم إذلال الامراء ومصادرتهم فى أموالهم وأحيانا الاتيان على أنفسهم بعد أن يعزلوا وقد ابتدأ هذا في عهد سليمان بن عبد الملك فانه أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن مهدوا لهم السبل ووطئوا لهم المنابر واستمر الامر على ذلك من بعد عمر بن عبد العزيز الى أن انتهى أمرهم وقد كان هذا سببا من أسباب فناء البيت الاموى ومن أغرب ما حصل لهم أن يوسف بن عمر الثقفي الذى ولى العراق بعد خالد بن عبد الله القسري اشتري من الوليد بن يزيد خالداً وعماله بخمسين ألف ألف فدفعه اليه فنزع يوسف ثيابه وألبسه عباءة وحمله فى محمل بغير وطاء وعذبه عذابا شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله الى الكوفة فعذبه ووضع المضرسة على صدره فقتله من الليل ودفنه من وقته بالحيرة فى عباءته التى كان فيها وذلك بعد ان ولى

خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن وعظيم من عظمائهم

## قيادة الجنود

تمتاز هذه الدولة بان عصرها كله كان زمن فتح ففيه اتسعت حدود المملكة الاسلامية من الجهة الشرقية فى السند والصغد وبلاد الترك ومن الجهة الشمالية في أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية فى أفريقية والاندلس

وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام حيناً مع الخوارج وحيناً مع طلاب الخلافة من بنى على ولم يخل عصر خليفة أموى من حروب داخلية الا عصر الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فهي اذاً دولة حربية. ولا جرم ان امتاز فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود الي حومة الوغي واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير فى الحرب وها نحن نورد على أسماعكم جملة من اولئك الافراد العظام الذين مر ذكرهم

ممن اشتهر بالشرق (١) المهلب بن أبى صفرة الازدى وكان علمه تاماً بمكيدة الحرب والاحتراس من غوائلها واشتهر فى حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات (٢) قتيبة بن مسلم الباهلي وكان شجاعا مقداماً لا يرده شيء عن قصده واشتهر بحروبه بما وراء النهر فانه دوخ تلك البلاد وأذل أهلها وقد أخذ عليه خلعه لسليمان بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته وفقد الدولة صالح خدمتهم (٣) يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة الازدى وكان شجاعا لا يخطر له الفرار على بال

واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فانه رد أهلهما الى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق طريق خراسان وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعه ليزيد بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سببا لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا غرة فى جبين الدولة الاموية ( ٤ ) أسد بن عبد الله القسرى اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وهابوه هيبة لم يهابوها قائدا قبله وأخذ عليه عصبية لقومه من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سببا في فساد أهل خراسان واختلافهم ( ٥ ) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى اشتهر بحروبه فى بلاد السند على عهد الحجاج بن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الامر بها حتى دانت له وقد قتل فى أول خلافة سليمان بن عبد الملك

واشتهر فى أرمينية وأذربيجان ( ٦ ) محمد بن مروان بن الحكم الاموي كان شجاعا أيداً ذا عزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبد الملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح فى شمال أرمينية وأذربيجان ( ٧ ) مروان ابن محمد بن مروان كان كأبيه بطلا مقداماً سد ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن ( ٨ ) الجراح بن عبد الله الحكمى وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر

واشتهر فى بلاد الروم ( ٩ ) مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيراً من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمة ولم يكن بنوا أمية فى أول أمرهم يولون الا أولاد الحرائر ( ١٠ ) أبو محمد عبد الله البطال كان

رئيساً على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة (١١) العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامي مسلمة في نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيرا ما يقود الشواتي والصوائف الى البلاد الرومية واشتهر في الغرب وأفريقية (١٢) عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر في معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل في احدي تلك الوقائع (١٣ و ١٤) موسي بن نصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الاندلس وادخلا الاسلام في قارة أوربا

وهناك غيرهم من القواد لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لهؤلاء

ولم تكن همة الدولة الاسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم اسطول قوى في البحر الابيض المتوسط يحمي البلاد الاسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم : وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلا عما كانوا يغنمونه من مراكب الروم ولم تكن أمراء البحر في الدولة الاموية تقل مهارة واقداماً عن أمراء البحر الروميين وعلى الجملة فان الدولة الاموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الامم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها : وكانت السيادة في الجيوش للعنصر العربى لان الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجميا

## القضاء والاحكام

لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة على بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين الا ان تناكر الخصوم أرشدهم الى تسجيل الاحكام

قال محمد بن يوسف الكندي في كتاب القضاة الذين ولوا مصر ص ١٠ اختصم الى سليم بن عنز (قاضى مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان) في ميراث فقضي بين الورثة ثم تناكروا فعادوا اليه فقضي بينهم وكتب كتابا بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند قال فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه

ولم يكن القضاة يتقيدون برأى فى أحكامهم اذ لم تدون اذذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الامر راجعا الى اجتهاد القضاة أنفسهم أو الى مايشير به المفتون من كبار المجتهدين فى أمصارهم

كان توبة بن نمر لا يملك شيئا الا وهبه ووصل به اخوانه وأفضل به عليهم فلما ولى القضاء بمصر فى عهد هشام بن عبد الملك كان يري أن يحجر على السفيه والمبذر فرفع اليه غلام من حمير لا تحوى يده شيئا الا وهبه وبذره فقال توبة أرى أن أحجر عليك يا بنى: قال فمن يحجر عليك أيها القاضى والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد. فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاة من الحرية في اختيار الآراء التى يقضون بها. وكانوا أحيانا يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم فى الحوادث المختلفة اذا اشتبه عليهم الامر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الازدى قاضى مصر من قبل عمر بن عبد العزيز اليه يسأله فى أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران فكتب اليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فاذا وقعت الحدود بين أهل الشرك فى الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التى يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة.

وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضاً فى الامصار المختلفة لأن

المجتهدين لم يكونوا على رأى واحد ولم تلتفت الدولة الى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شيء يقضي به قضاتهم أو يحمل مجتهدى كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين : لم يفعلوا هذا ولا ذاك بل تركوا لكل قاض تمام حريته فى الحكم بما يراه

وكان الي القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن ابن معاوية بن حديج قاضي مصر من قبل عبد العزيز بن مروان فانه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتاباً وكان عنده قال الكندى فجرى الامر على ذلك

وكانوا يتولون الاحباس وأول قاض بمصر وضع يده على الاحباس توبة بن نمر فى زمن هشام بن عبد الملك وانما كانت الاحباس فى أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فلما كان توبة قال ما أرى مرجع هذه الصدقات الا الى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من الالتواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الاحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول انشاء ديوان الاوقاف بمصر

كان اختيار القضاة يرجع غالباً الى أمراء الامصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحياناً كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضى حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدني امتياز عن سائر القضاة ولا رأى فى اختيارهم

ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم الى مد الايدى الى السحت رأيت أن عبد الرحمن بن حجيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مئتى دينار ومن القصص مئتى دينار ورزقه فى بيت المال

مئتى دينار وكان عطاؤه مئتى دينار وكانت جائزته مئتى دينار فكان يأخذ ألف دينار في السنة . ورأيت في الكندي أمراً بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني هذا نصه ( بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبي عطاء الى خزان بيت المال أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه لشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الاربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١ ) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدماً

## الدواوين

كانت الدواوين لعهد بني أمية ثلاثة

( ١ ) ديوان الجند ( ٢ ) ديوان الخراج ( ٣ ) ديوان الرسائل فأما ديوان الجند فانه مذ وضع كان بالعربية لان عمر انما كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش : وكان هذا الديوان يحصر جند كل امارة وأعطياتهم وكل مايختص بهم فهو ديوان (الحربية)

وأما ديوان الخراج فانه كان بالعراق باللغة الفارسية وببلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث ولم يكن المسلمون تمهروا بعد فيه : فلما ولى الحجاج العراق كان رئيس الديوان في عهده زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح بن عبد الرحمن وكان أبوه من سبي سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية فخف على قلبه شعر صالح بذلك فخاف من زاذان وقال له أنت الذي رقيتني حتى وصلت الى الامير وأراه قد استخفني ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلتك فقال زاذان لا تظن

ذلك هو أحوج الى مني اليه لانه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته قال فحول منه أسطراً حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض فبعث اليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان فى فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان فى نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه فى امضائه فنقله من الفارسية إلى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى عليهم وكان عبد الحميد بن يحيي الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب : وأما ديوان الشام فان الذى نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل فى خلافة الوليد بن عبد الملك وكان الذى يليه فى عهد معاوية سرجون بن منصور الرومى ثم كتب بعده ابنه منصور ابن سرجون

وأما ديوان مصر فقد نقل فى عهد عبد الله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزارى من حمص هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة الى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة الى الكتاب من الامم الأخرى

• وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أو هو ديوان (المالية)

• وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذى كانت تصدر منه الرسائل الى الامراء والعمال فى الامارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً

وكان عندهم ما يسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذى تختم فيه الكتب بعد أن تكتب وكان الخلفاء يختارون من ثقاتهم والامناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم خاتم الخلافة وقد ذكر الطبرى في حوادث سنة ٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء وممن اشتهر منهم عبد الحميد بن يحيي قال الطبرى وكان من البلاغة في مكان مكين ومما اختير له من الشعر

ترحل ما ليس بالقافل  واعقب ما ليس بالزائل
فلهفي على الخلف النازل  ولهفي على السلف الراحل
أبكي على ذا وأبكي لذا  بكاء مولهة ثاكل
تبكى من ابن لها قاطع  وتبكي على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبرة  لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبي  ورد التقى عنن الباطل

السكة الاسلامية

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها باعيانها غير انه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا اله الا الله وحده وفى آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل وأن عثمان ضرب فى خلافته دراهم نقشها الله أكبر

قال المقريزى فلما اجتمع الامر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزياد ابن أبيه الكوفة والبصرة قال يا أمير المؤمنين ان العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلبا للاحسان الى الرعية فلو جعلت أنت عيارا دون ذلك العيار

ازدادت به الرعية مرفقاً ومضت لك به السنة الصالحة فضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطاً تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت تجري مجري الدراهم وضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ماضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً فدورها عبد الله ونقش على احد وجهى الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاها الناس فى العطاء

فلما استوسق الامر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابنى الزبير فحص عن النقود والاوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم فى سنة ٧٦ فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً الا حبة بالشامي وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطاً سوى والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطان ونصف وكتب الى الحجاج وهو بالعراق أن اضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها بقية الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فان فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشترى ولا يعيب من أمرها شيئا : وجعل عبد الملك الذهب الذى ضرب به دنانير على المثقال الشامى وهى الميالة الوازنة كل مئة دينارين أى ان النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و١٠٢

ثم قال وكان الذى ضرب الدراهم رجلا يهوديا من تيماء يقال له سمير

نسبت الدراهم اذذاك اليه وقيل لها الدراهم السميرية . وبعث عبد الملك بالسكة الى الحجاج فسيرها الحجاج الى الآفاق لتضرب الدراهم بها وتقدم الى الامصار كلها أن يكتب اليه منها في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم وان تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الاسلامية وتحمل اليه أولا فأولا وقدر فى كل مئة درهم درهما عن ثمن الحطب وأجر ضراب ونقش على أحد وجهى الدرهم قل هو الله أحد وعلي الآخر لا اله الا الله وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب فى الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفي الطوق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله

ثم قال وكان الذى دعا عبد الملك الى ذلك انه نظر للامة وقال هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية العتق تبقى مع الدهر وقد جاء فى الزكاة أن في كل مئتين أو فى كل خمسة اواق خمسة دراهم وأشفق ان جعلتها كلها على مثال السود العظام مئتين عددا أن يكون قد نقص من الزكاة وان عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على انها اذا بلغت مئتين عددا وجبت الزكاة فيها فان فيه حيفا وشططا على أرباب الاموال فاتخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا اضرار بالناس مع موافقة ماسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ماعزم عليه عهد الى درهم واف فوزنه فاذا هو ثمانية دوانيق والى درهم من الصغار فاذا هو اربعة دوانيق فجمعهما وكمل زيادة الاكبر على نقص الاصغر وجعلهما درهمين

متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى واعتبر المثقال أيضا فاذا هو لم يبرح فى آباد الدهر موفي محدودا كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فانها سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره

ثم قال ومات عبد الملك والامر على ماتقدم فلم يزل من بعده فى خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر الى ان استخلف يزيد بن عبد الملك فضرب الهبيرية بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبد الملك وكان جموعا للمال أمر خالد بن عبد الله القسرى في سنة ١٠٦ أن يعيد العيار الى وزن سبعة وان يبطل السكك من كل بلد الا واسطا فضرب الدراهم بواسط فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولي من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر السكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسط وحدها فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بحران الى أن قتل

وقد نقل المرحوم على مبارك باشا في الجزء الاخير من الخطط توضيحات نافعة فى أمر الدرهم والدينار فى الدول الاسلامية وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم والدنانير فى الازمنة المختلفة : وحقق أن المثقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثقال سدس الاوقية والاوقية المصرية الرومانية التى يغلب على الظن أن العرب اعتبرتها قدرها ٢٨,٣٢ جراما فسدسها الذي هو المثقال ٤,٧٢ جرام وهناك مثقال آخر يقل عن هذا شيئا يسيرا اذ أن وزنه ٤,٦٩ وأن الدينار كان وزنه ٤,٢٥٠

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوي وزن القطعة

ذات القرشين تقريبا لان وزنها ٥٠ و ٣ جرامات وكان الدرهم في عهد عبد الملك يتراوح وزنه بين ٩٤ و٢ ج وبين ٧٠ و٢ ج وأن وزن الدينار كان يساوي فى الوزن نصف الجنيه الانكليزي لان وزنه ٢٥ و ٤ وقد كان وزن الدينار فى عهد عبد الملك يتراوح بين ٦٤ و٤ ج وبين ٢٥٢ و ٤

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقودا اسلامية لان هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالى وما كان يصح لمثل الدولة الاموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس فى الدرهم والدينار

أسباب السقوط

استولى البيت الاموى على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لا عن رضا ومشورة فان معاوية بن أبى سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم له الامر ورضي الناس عنه والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته كان فى الامة العربية طريقان عظيمان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بني هاشم والاولون ذوو اقدام بسالة والدد لا يقف فى أوجههم عما أرادوا شيء الا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت هذا شأنه لا يصفو له الملك الا اذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التى تشايعه والتى سلت سيوفها لنصرته فاذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ما تهب تلك القلوب من مكانها فان صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى

وان صادفت شمل خصمها متفرقا قهرته وقضت عليه

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ماألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم فكان يغضي عن الزلات ويعفوا عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه اليه فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجد مزحا ومن العداء تقربا ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذى يذلل النفوس الجامحة ويقرب القلوب النافرة الا انه نرى فيما زلة كبري قللت من قيمة عمله وهى اهتمامه بالغض من على بن أبى طالب على منابر الامصار فكان هو وأمراؤه يفعلون ذلك حتي جعل النيران تتأجج في صدور شيعته وكان كثير منهم يظهر من ذلك امتعاضا ويبادر الجرىء منهم على الامير وجها لوجه فيكون من وراء ذلك اسراف في العقوبة يزيد الامر شرا كما حصل من زياد فى أمر حجر الكندى

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الاموى كانوا فى حاجة لتأييد سلطانهم الى مالا يحتاج اليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيرا فظهرت لهم جملة عيوب كانت سببا فى القضاء عليهم وهي

(أولاً) ولاية العهد

كانت ولاية العهد سببا كبيرا فى انشقاق البيت الاموى وذلك أن بنى مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلى أحدهما الآخر : وأول من فعل ذلك مروان فانه ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز فكاد عبد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده الى ابنه الوليد وعزل أخيه عبد العزيز لولا أن ساعد القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة : ولكنه وهو الذى رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان . خطر ببال الوليد أن

يعزل سليمان ويولي ابنه فعاجله القضاء وأخر الامر إلى حين لم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك . ولم يكن عمر يميل إلي يزيد فخيف منه فعوجل حتى قيل أنه سم : أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاماً أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد : وكان كثير من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة في الدولة الاموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأي فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في اشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فان البيت انشق وتجزأت القوي التي كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الأنفاس وجعلتهم أثراً بعد عين

( ثانياً ) احياء العصبية الجاهلية التي جاء الاسلام معفياً لأثرها ومشدداً في النعي عليها لانه رأي أن حياة الامة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم في جاهليتهم

وقد نبض عرقها في أول الدولة المروانية فان وقعة مرج راهط التي تلاها قيام مروان بالامر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايع الضحاك وكلب التي كانت تشايع مروان يقدمها حسان بن بحدل الكلبي وقال في ذلك مروان

لما رأيت الأمر أمراً نهباً يسرت غسان لهم وكلبا
والسكسكين رجالاً غلبا وطيئاً تأباه الا ضربا
والقين تمشي في الحديد نكبا ومن تنوخ مشمخراً أصعبا

لا يأخذون الملك الا غصبا    وان دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذى أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار بن أبى عبيد الثقفى كاد يستأصل فان عمر بن الحباب السلمى كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادي يالثارات قتلي المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله وكثير من جند الشام: في الوقت الذي نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بين بة قيس واليمن فى الشام كان ماهو أشد منه فى خراسان فان مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبى صفرة وهو أزدي والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبد الله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت فى المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن أكتب لى عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم الي مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا إلى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له نبايعك على أن تسير الى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار اليهم ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلاً ذريعاً ثم عاد ابن خازم الى مرو

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لانهم من مضر فلما صفت له خراسان جفاهم فتنكروا له وكانت بينهم مواقع

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساماً أربعة اليمن وربيعة وقيس

عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الاخيران مضر

كانت الامراء تساعد على انماء هذه الروح الخبيثة فاذا ولى يمانى رفع رءوس أهل اليمن واستعملهم عمالاً على الامصار فاذا تلاه مضرى عكس الامر وانتقم من سلفه ومن عماله

ولم يكن ذلك العرق يسكن الا اذا كانت حروب خارجية مع الصغد أو الترك فهناك تجتمع كلمتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم فاذا عادوا عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الاموي الذين يطالبونه بما فى يده مما ليس له فان أبا مسلم الخراسانى أتكأ على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تم له الظفر بجميعهم . ولا ننسي ان لشعراء العرب الذين نبغوا في هذه الدولة يداً كبرى فى انماء هذه العصبية فمن قرأ أشعار الاخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة يتجلى له ذلك لاشيء أضر على الامم من أن تنقسم طوائف تنتمي الى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فاذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فان الكلمة تحق على الامة ويقرب منها الفناء فان الجهل يجعل روح العصبية موجهة الى معاكسة المخالفين فتكون الامة قوى متنافرة لاقبل لها بمن ينازعها بقاءها . لم ينتج من انماء العصبية الجاهلية فى قلب الامة العربية ذهاب البيت الاموى وحده بل كان من ذلك ضعف لامة العربية نفسها وتغلب الاعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان فى عهد الدولة العباسية مما سيأتى تفصيله ان شاء الله

(ثالثا) تحكيم بعض الخلفاء من بنى أمية أهواءهم فى امر قوادهم وذوى الاثر الصالح من شجعان دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الاول

والثانى فان سليمان بن عبد الملك لما ولى بعد ان كان الوليد يريد اخراجه من ولاية العهد عمد الى كل من كان هواه مع الوليد فاذلهم وحرم نفسه وأمته من الانتفاع بتجاربهم فقد أهلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولا ذنب لهما الا أنهما من صنائع الحجاج الذى كان هواه مع الوليد ولا يميل الى سليمان . ولما جاء يزيد بن عبد الملك كان هواه مع آل الحجاج لانه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج فخاف وخلع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبى صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار في خدمة بنى أمية والامة الاسلامية وكان بعد من هذا شيء كثير فقسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بنى أمية ومن يؤازرهم .

الامة التى ينتقم خلفها من عمال السلف لانهم كانوا على وفاق معه تفقد صالح الاعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يختمر لها رأى ولا ينضج فيها عمل تمر عليها الامم سائرة الى الامام وهي فى موقفها أو لها حركة لا تتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزلة الا صادفتها أخري حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر أو تساق الى الفناء فتكون عبرة من العبر .

تنبيه — لما كان اكثر الذين دونوا فى عهد بنى أمية قد عاشوا فى الدولة العباسية استحسنا ان نجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية

صفحة

# فهرست الجزء الثانى

صفحة



صفحة

صفحة



صفحة

﴿تمت﴾